مكتبة

روايات قصيرة Novella

Christopher Morley

كرستوفر مورلي

مكتبة 894

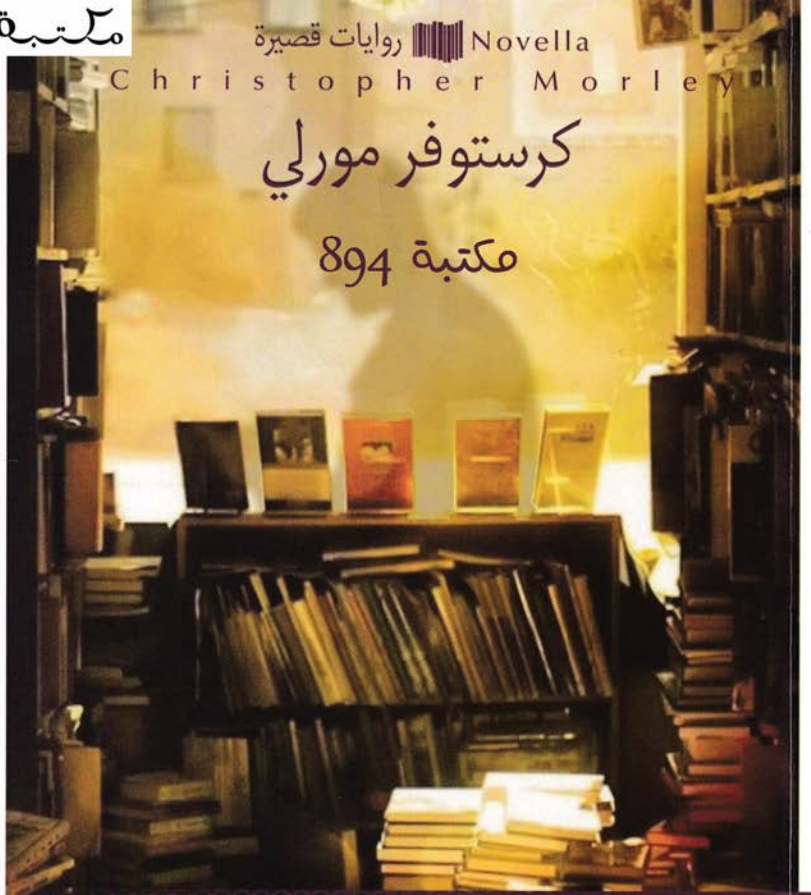

متجر الكتب المسكون

ترجمة : شوق العنزي

أثر

إهداء لـ..

دكتر هبة & هايدي

مكتبة | 894
سُر مَن قرأ

متجر الكتب
المسكون

متجر الكتب المسكون / رواية
كريستوفر مورلي
ترجمة: شوق العنزي
الطبعة الأولى 1443 / 2022
ردمك: 978-603-91691-0-9
رقم الإيداع: 1443 / 1182

دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966549966668
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

25 7 2022
مكتبة
t.me/t_pdf

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

متجر الكتب المسكون

رواية

كريستوفر مورلي

ترجمة

شوق العنزي

مكتبة 894
سُر مَن قرأ

أثر

1

متجر الكتب المسكون

إن حدث يومًا وأتيت إلى بروكلين، تلك البلدة الحالمة حيث غروب الشمس الخلاب، والحدائق الغناء ترفل بالورود، والمشاهد الرائعة لأزواج يدفعون عربات الأطفال، فمن المحتمل عندئذ مرورك مصادفة بشارعٍ يستقر على أحد جانبيه متجر للكتب لافت للنظرِ بشدة. متجر الكتب هذا، الذي يحمل اسمًا غير مألوف "بارنسوس في المنزل"[1]، يقع بين عدة منازل مريحة وعتيقة الطراز من الحجر البني، كانت مصدرًا لبهجة عدة أجيال من السباكين والصراصير أيضًا. كابد صاحب المحل آلامًا جمة لجعله مزارًا أكثر ملائمة لتجارته، التي تعتمد فحسب على الكتب المستعملة. ليس هناك متجرٌ للكتب بين كل المتاجر قاطبة جديرًا بالاحترام أكثر منه.

في أحد أماسي نوفمبر الباردة، حوالي الساعة السادسة، نفحات من رذاذ المطر تداعب الرصيف، سار شاب متردد الخطا على امتداد شارع غيسنغ، يقف بين حينٍ وآخر لينظر إلى واجهات المحلات، بدا كما لو أنه غير متيقن من مسلكه. توقف عند واجهة براقة ودافئة لمطعمٍ فرنسي وأخذ يقارن الأعداد المحفورة على اللافتة مع الأعداد المكتوبة في المذكرة التي يحملها بين يديه، ومن ثم تابع مسيره لبضع دقائقٍ أخرى. في نهاية المطاف وصل إلى العنوان الذي سعى إليه. جذبت انتباهَه اللافتة الموضوعة فوق المدخل:

بارنسوس في المنزل

ر. و. ميفلين

مكتبة
t.me/t_pdf

(1) بارنسوس تعني منزل الفكر من الميثولوجيا الإغريقية. (المترجمة).

أهلًا بمحبي الكتب! هذا المتجر مسكون بالأشباح

تعثّر نزولًا على عتبات السلّم الثلاث التي وصلت به إلى دار ربات الأدب، أخفض ياقة معطفه وتطلع حوله.

كان المتجر مختلفًا عن غيره من متاجر الكتب التي اعتاد التعامل معها. طابقا البيت القديم دُمجا في طابقٍ واحد: الطابق الأول قُسِّم إلى تجاويف صغيرة، والثاني تكوّن من رفوف دارت حول الجدران، تكدّست عليها الكتب وصولًا للسقف. الهواء ثقيل هنا، محمّل بعبق الأوراق المعتّقة والجلود المثقلة برائحة التبغ. وجد نفسه أمام ملصق كبير في إطار كتب فيه:

هذا المتجر مسكون بأشباح الأدب.

لا نبيع نسخًا مزيفة أو مهترئة.

مرحبًا بك، تفضل واقترب،

لا موظفون يتفوّهون بالهراء.

دخنوا رجاءً، لكن لاتسقطوا الرماد!

تصفح كما يحلو لك.

أسعار الكتب واضحة.

إذا كنت تود طرح الأسئلة، ستجد رب العمل حيث تجد دخان التبغ أكثر كثافة.

الدفع نقدًا فقط.

لدينا ما تريد، مع أنك قد لا تعرف ذلك.

إنّ عدم تغذية الروح بملكة القراء لهو علة

خطيرة.

دعنا نصف لك علاجًا.

مع جزيل الاحترام، ر. ميفلين.

تكتنف المتجر ظلمة تبعث على الراحة والدفء، نوع من الغسق الذي يعمّهُ الهدوء، يخترقه هنا وهناك الضوء الأصفرالساطع لمصابيح معطلة. دخان التبغ المتفشي ينتقل بسلاسة ليستقر تحت ظلال المصباح الزجاجي. مجتازًا الممرّ الضيق بين التجاويف والزوار.

لاحظ أن بعض الأجزاء غارقة في العتمة، بينما المصابيح متوهجة في أجزاء أخرى ممّا مكّنه من رؤية طاولة ومقاعد من حولها. وفي زاوية ما تحت لافتة كُتب عليها "مقالات"، شاهد رجلًا مسنًا يقرأ، يحمل تعابيرَ تنم عن نشوة متطرفة مضاءة بالسطوع الحاد للكهرباء، لكن لا تطوِّقهُ هالة من دخان التبغ، لذا استنتج الزبون الجديد أنّ ذلك الرجل لم يكن رب العمل.

في الوقت الذي اقترب فيه الشاب من الجزء الخلفي للمحل، أخذ التأثير العام يزداد روعة شيئًا فشيئًا. عندها تناهى إلى مسمعه صوت قطرات المطر تقرع كوّة سقفية، لكن بخلاف ذلك كان المحل هادئًا تمامًا، آهلًا فقط (أوهكذا بدا) بدوائر الدخان المنفوثة والوجه الساطع لقارئ المقالات. بدا كما لو أنه معبد سري، مزارٌ تُمارس فيه الطقوس الغريبة، دخان التبغ والاستثارة تسببا بتضييق حنجرة الفتى وشد أوتارها. نظر إلى الأعلى حيث الكثير والكثير من رفوف الكتب تقبع في الظلمة نحو السقف.

وقع بصره على طاولة يعلوها ورق بني للتغليف وخيط، من الواضح أن هذا موضع تغليف المشتريات، لكن لا إشارة على وجود من يفعل ذلك. "ربما هذا المكان مسكون فعلًا" قال لنفسه، "ربما تسكنه الروح السعيدة

للسيد والتر رالي[1] زبون التبغ، لكن ليس من قِبل ملاكه كما يبدو".

كان يجول ببصره عبر زرقة المحل وضبابيته، عندما جذبته دائرة ساطعة تلمع كلمعان بيضة مسلوقة، جزيرة برّاقة وسط أمواج من الدخان. حينما اقترب كفايةً وجد انه رأسٌ أصلع.

(رأى بعد ذلك) أنّ هذا الرأس ينتمي إلى رجل صغير حاد العينين يجلس مائلًا إلى الخلف على كرسي دوار، في ركنٍ بدا أنه مركز المؤسسة. أمام مكتبه الضخم تتكدس المجلدات من كل نوع مع قصاصات الصحف والرسائل وعلب التبغ.

عند آلة طابعة عتيقة تبدو وكأنها قيثارة نصف مدفونة بطبقات من المخطوطات، جلس الرجل حليق الرأس يدخن غليونًا ويقرأ كتاب طبخ.

أوجس الشاب منه خيفةً وقال: "أستميحك عذرًا سيدي، هل أنت صاحب المحل؟"

رفع صاحب المحل ناظريه، عندها رأى الشاب عينين زرقاوين ثاقبتين، ولحية حمراء قصيرة، مع أثير مقنع من الأصالة يحيط به.

أجاب السيد روجر ميفلين: "نعم، أنا هل بإمكاني مساعدتك؟"

قال الشاب: "اسمي أوبري جيلبرت، أنا أمثل وكالة غري ماتر للإعلانات. أود نقاشك عن إمكانية تولينا أمر حسابك الدعائي. نعد نسخة أنيقة لك ونروج لها في الأماكن المكتظة. انتهت الحرب الآن ويجب أن تعد حملة بناءة من أجل ازدهار العمل".

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه صاحب المحل. وضع كتاب الطبخ جانبًا، وزفر دخانًا كثيفًا ونظر إلى الأعلى مزهوًا وقال: "ياعزيزي أنا لا أقوم

(1) والتر رايلي مستكشف إنجليزي يُعرف بإشاعته استخدام التبغ في إنجلترا. (المترجمة).

بأي إعلان".

صرخ الشاب: "هذا مستحيل". مذهولًا من السلوك غير المبرّر لصاحب المتجر.

"ليس بالمعنى الذي استشفيته. الإعلانات التي تصبّ في مصلحة العمل يقوم بها مؤلفو الإعلانات الأنشط بين أمثالهم".

قال الشاب بأسى:" أعتقد أنك تشير إلى وكالة وايتووش وغيلت؟"

"كلا، لا أعنيهم البتة. من يقوم بالإعلان لي هم ستيفنسون وبراوننج وكونراد وشركاه".

صاح عميل الإعلانات جيلبرت: "يا إلهي، لم أسمع بهذه الوكالة مطلقًا. مع ذلك ما زلت أشك بأنّ نسختهم ستكون أكثر رواجًا من نسختنا".

"لا أعتقد أنك فهمت مقصدي. إعلاناتي هي الكتب التي أبيع. إذا تمكنت من إقناع قارئ ما بشراء كتاب لستيفنسون أو لكونراد، كتاب قد يدخل السرور أو الخوف على نفس القارئ، عندئذ يتحول الكتاب إلى إعلانٍ نابض بالحياة لتجارتي".

"اندثرت الإعلانات الشفهية في الوقت الحاضر، لا يمكن لأعمالك الازدهار على هذا النحو. علامتك التجارية يجب أن تكون في كل مكان أمام الجمهور".

صرخ ميفلين: "بحق عظام تاوتشنيتز[1]"، ثم أردف شارحًا: "أنت لا تذهب إلى طبيب أو أخصائي علاجي وتقول له: ينبغي عليك أن تروج لنفسك بالجرائد والمجلات؟ الطبيب يعلن عن نفسه عن طريق الأجساد

---

(1) بيرنهارد تاوتشنيتز ناشر ألماني الجنسية اشتهر بتصديره المؤلفات الإنجليزية للقارة الأوربية، وساهم في إنشاء قانون حقوق النشر. (المترجمة).

التي يعالجها. وأنا أعلن عن نفسي عن طريق العقول التي أحفزها. دعني أؤكد لك أن تجارة الكتب تختلف عن غيرها من أصناف التجارة. الناس لا يعرفون أنهم يريدون الكتب، بمجرد نظري إليك أستطيع معرفة أن عقلك مصاب بمرض شحّ الكتب، لكنك غير مدرك لهذه الحقيقة المرة! لا يذهب الناس لبائع الكتب إلا حين يتعرضون لإصابة عقلية أو علة حقيقية تجعلهم يدركون الخطر من حولهم. حينئذ يأتون إليَّ طالبين النصح. الإعلان سيكون مفيدًا بالنسبة لي بقدر ما هو مفيدٌ إخبار الناس الذين يشعرون بأتمِّ الصحة أنه ينبغي عليهم الذهاب إلى الطبيب. هل تعلم لماذا يقرأ الناس الآن أكثر من أي وقت مضى؟ لأنّ الكارثة المرعبة للحرب أنارت بصيرتهم، وأدركوا مرض عقولهم. عانى هذا العالم كلّ أنواع الحمى والأوجاع والاضطرابات العقلية، ولم يعلم الناس بذلك قط. أما الآن فمخاضنا العقلي مسرف في وضوحه، جميعنا نمارس القراءة بكل نهمٍ وتعجّل محاولين أن نتبين ما الذي دهى عقولنا، بعد زوال الأزمة".

وقف بائع الكتب قصير القامة، وبذات الوقت تطلع إليه زائره بشعور يختلط فيه التندر والجفول، حدّث جيلبرت نفسه: "أعتقد أنَّ لا ضير في التسامح مع غرابة أطواره".

قال ميفلين: "أوتعلم؟ لابد أنك ظننت أنّ المجيء إلى هنا جديرٌ بالعناء وهذا يعنيني كثيرًا، ويعزز من قناعتي بالمستقبل الزاهر لتجارة الكتب. لكنّني أؤكد لك أنّ ذلك المستقبل لن يتحقق بمجرد تنظيمها كتجارة، بل بتكريمها كمهنة قائمة بحد ذاتها أيضًا. إنه استهزاء بالعامة لتوقهم الشديد للكتب الرخيصة، وكتب الشعوذة، أو حتى الكتب المليئة بالأكاذيب. أيها الطبيب عالج نفسك! دع بائع الكتب يتعلم تمييز الكتاب الجيد وتوقيره، تمييز سنيها ودنيّها، هذا سيمكنه من توجيه الزبون نحو الغني من الكتب. أضحى التعطش للكتب الجيدة الآن أكثر شيوعًا وإلحاحًا مما تتخيل. لكن

ما زال ذلك يحدث بطريقة لا شعورية. الناس بحاجة ماسة للكتب لكنهم يجهلون حاجتهم لها. هم لا يشعرون عادةً أنّ الكتب التي تكون أحيانًا بمثابة الترياق الذي يحتاجونه، متوفرة من حولهم.

سأل الشاب بأسلوب يغلب عليه الحدة: "لماذا لا يكون الإعلان هو الطريق لإخبارهم بذلك؟"

"أيها الفتى، أنا أدرك أهمية الإعلان، لكن في حالتي فالأمر عديم الجدوى. لست بائعًا في سوق، إنما أنا متخصص بملائمة حاجة الإنسان للكتب. ونعلم في قرارة أنفسنا أنه لا وجود لما يطلق عليه بصورة تجريدية كتابٌ "جيد". الكتاب لا يصبح جيدًا إلا حين يشبع نهم الإنسان أو يدحض بعضًا من الهفوات البشرية. أما ما أراه بعيني كتابًا جيدًا، فاحتمال كبير أن تراه كتابًا مفلسًا لا قيمة له. من دواعي سروري أن أصبح كالطبيب الذي يجعل من الكتب وصفات علاجية للمرضى الذين يأتون هنا ويخبرونني بأعراضهم. بعض الأشخاص تضمحل لديهم القدرة على القراءة، لذا كل ما أستطيع فعله لهم هو إعطاؤهم شهادة وفاة. لكن معظم الحالات قابلة للعلاج. لن يكون هناك من هو أكثر امتنانًا من شخص أعطيته كتابًا يوافق احتياجات روحه دونما علمه بذلك. ليس هناك إعلان أكثر فاعلية من مشترٍ يشعر بالامتنان. سأخبرك بسبب آخر لعدم قيامي بالإعلان، في هذه الأيام الجميع كما قلت يروّج لعلامته التجارية، عدم الإعلان سيكون أمرًا مبتكرًا ومذهلًا في آن معًا. إنه جاذبٌ للانتباه بطريقةٍ ما، عدم إعلاني هو في الحقيقة ما قادك إليَّ. وجميع من يأتي إلى هنا يظن أنه اكتشف المكان بنفسه. ويمضي لأصدقائه ليخبرهم عن مصحّة الكتب، هذه التي يديرها مخبولٌ شديد الهوس. فيأتون إلى هنا متلهفين لرؤية ما يبدو عليه المكان حقًا".

قال عميل الدعاية: "يجدر بي القدوم إلى هنا مرةً أخرى، واستطلاع

المكان، كما أريدك أن تقدم لي وصفة للعلاج على يديك".

"كل ما نحتاجه هو امتلاك قدر من الحُنو. هذا العالم يطبع الكتب منذ 450 عام، رغم ذلك ما يزال البارود أكثر انتشارًا. لا تشغل بالك! حبر الطباعة هو أعظم إنجاز وسينتصر، أشعر بهذا. لديَّ هنا بعض الكتب الجيدة التي أفلحت في الحصول عليها. حوالي 30.000 كتاب من أهم الكتب في العالم. أعتقد أن 5000 منها كُتبت باللغة الإنجليزية وتُرجم منها نفس العدد".

"هل تبقي المحل مفتوحًا في المساء؟"

"حتى الساعة العاشرة مساءً. عدد كبير من زبائني المفضلين يكدحون طوال اليوم، وفي المساء فقط يتمكنون من زيارة المحل. محبو الكتب حقًا ينتمون إلى الطبقات المتواضعة، الشغوف بالكتب منهم لديه قليلٌ من الوقت أو الصبر ليصبح أكثر ثراءً عبر خداع زملائه".

أضاء مصباحٌ معلقٌ على طاولة التغليف صلعةَ بائع الكتب القصير. لمع في عينيه بريق مشرق وجاد، كانت لحيته الحمراء خشنة كأنها سلكٌ معدني، يرتدي معطفًا من طراز نورفلوك[1] بدا مهترئًا وبه زران مفقودان.

حدّث العميل نفسه: "إنه شخصٌ تبدو عليه سمات التعصّب لكنه مسلٍ للغاية:. ثم قال: "حسنًا، يا سيدي، أنا ممتنٌ لك جدًا، سأعود مرة أخرى، طابت ليلتك". واجتاز الممر قاصدًا الباب.

في الوقت الذي اقترب فيه من مقدمة المحل، أضاء السيد ميفلين مجموعة من المصابيح المعلقة عاليًا، حينها وجد الشاب نفسه بجانب لوحة كبيرة

---

(1) هي سترة فضفاضة مع طيات مربعة في الظهر والأمام سميت على مقاطعة نورفلوك وشاعت في ستينيات القرن التاسع عشر. (المترجمة).

مغطاة بأنواع القصاصات والإعلانات والمنشورات وملاحظات قليلة كُتبت بخط صغيرومرتب. لفت انتباههُ التالي:

وصفة طبية:

إذا كان عقلك بحاجة للفسفور فلتجرب رواية "التوافه" للكاتب لوغان بارسيل سميث.

إذا كان عقلك بحاجة لنفحة من هواءٍ منعش ونقي، قادم من أعالي الهضاب ووديان زهرة الربيع، فلتأخذ "قصة قلبي" للروائي ريتشارد جيفيرز[1].

إذا كان عقلك بحاجة إلى خليط منشط من المقويات والكحول فلتقرأ "مذكرات صموئيل بتلر" أو "الرجل الذي كان الخميس" لجلبرت شيسترتون.

إذا كنت بحاجة إلى "معرفة كل ما هو إيرلندي"، وإلى الانغماس في الغرابة الطائشة أيضًا، عليك "أنصاف آلهة"[2] لجيمس ستيفنز. إنه أفضل مّما يتوقعه المرء أو يستحقه.

من الجيد أن تقلب عقلك رأسًا على عقب بين الفينة والأخرى، ليغدو كالساعة الرملية التي تتساقط حبيبات رملها من الأعلى للأسفل.

من يتحدث الإنجليزية سيحصل على كثير من المتعة بقراءته القواميس اللاتينية.

روجر ميفلين.

---

(1) ريتشارد جيفرز كاتب إنجليزي اشتهر بتصويره للطبيعة والريف في كتاباته. (المترجمة).

(2) نصف إله رواية من الأدب الإيرلندي، تظهر فيها مجموعة من الأبطال القدامى على شكل ملائكة مجنحة في الريف الإيرلندي. (المترجمة).

يولي الناس قليلًا من الاهتمام لما يُقال لهم، إلا إذا كانوا يعرفون عنه شيئًا. لم يسمع الشاب بأيٍّ من تلك العناوين التي وصفها ممارس المعالجة بالكتب. لذا كان على وشك فتح الباب والمغادرة، عندما ظهر السيد ميفلين بجانبه.

قال السيد ميفلين بإحراجٍ لا يخلو من اللباقة: "انتظر، استمتعت بحديثنا، لقد أثار اهتمامي جدًا. أنا وحدي هذا المساء، زوجتي تقضي إجازتها بعيدًا. ما رأيك في البقاء وتناول العشاء برفقتي؟ كنتُ أبحث عن وصفات طهوٍ جديدة عندما ظهرت".

كان الآخر سعيدًا ومتفاجئًا بهذه الدعوة الاستثنائية. قال: "هذا لطف كبير منك يا سيدي، هل أنت واثق من أنني لن أزعجك؟"

صاح بائع الكتب: "كلا، على الإطلاق! أبغض الأكل بمفردي، كنت آمل قدوم أحدهم. عندما تكون زوجتي بعيدة أحاول دائمًا استضافة الزبائن للعشاء. عليَّ البقاء في المنزل كي أراقب المتجر. ليس لديَّ خادم هنا كما ترى، أنا أقوم بالطبخ لنفسي. إنها متعةٌ عظيمة. الآن أشعل سيجارك، وتصرف وكأنك بالمنزل، لبضع دقائق ريثما أجهّز العشاء. بما أنك عدت الآن إلى عريني".

على طاولة عند مقدمة المحل وضع السيد ميفلين بطاقة حروف كبيرة، كُتب عليها :

صاحب المتجر يتناول العشاء، إذا كنت بحاجة للمساعدة اقرع الجرس.

وضَع بجانب البطاقة جرس عشاء قديم، ومن ثم ذهبا إلى الجزء الخلفي من المحل.

هناك خلف المكتب الصغير الذي كان يدرس فيه التاجر الغريب وصفات الطبخ ارتفع سلّم ضيق الجوانب. قادتنا عتباته بعد مسافة قصيرة

إلى بهوٍ منزلي. وجد الزائر نفسه مهتديًا إلى غرفة صغيرة جهة اليسار، حيث لمح جمرًا يتوهج أسفل موقد رخاميٍّ أصفر تعلوه غبرة. عدد من الغليونات وعلب التبغ تصطف على رف الموقد هذا. أما في الأعلى فكانت هناك لوحة زيتية مذهلة بألوان لافتة للنظر، تظهر فيها عربة عملاقة يجرها حيوان أبيض ضخم، من الواضح أنه حصان. وخلفيتها غنية بالمشاهد الرائعة التي تعزز من أسلوب الفنان البليغ، أما ما تبقى من الجدارن امتلأ بالكتب. بجانب الموقد مقعدان مريحان وباليان في الوقت ذاته، جلس بقربهما كلبٌ بلون الخردل كان قريبًا من الوهج للحد الذي مكنني من شم رائحة شعره المحروق.

قال المضيف: "هنا، هذه حجرتي، معبدي حيث الهدوء والسكينة، اخلع معطفك واجلس".

قال جيلبرت: "حقًا، أخشى من أنني.."

"هراء! اجلس الآن وسلّم روحك للعناية الإلهية ولموقد المطبخ أيضًا. سأتجول في الأرجاء وأحضّر العشاء".

أخرج جيلبرت غليونه، ومع شعور بالجذل هيأ نفسه للاستمتاع بهذه الأمسية العجيبة. كان شابًا يافعًا يحمل من الصفات المقبولة معظمها، ودودًا وحساسًا. اهتدى لعيوبه في الجانب الأدبي، رغم أنه تلقى تعليمه في كلية ممتازة إلا أن نوادي الغناء الجماعيّ والأدوار المسرحية تركت له القليل من الوقت للقراءة، لكنه مع ذلك أحبّ الكتب الجيدة رغم معرفته الضئيلة بها ممّا يسمعه من أحاديث. كان في الخامسة والعشرين من عمره ويعمل كمؤلف للإعلانات لدى وكالة غري ماتر.

الحجرة الصغيرة التي دخلها جيلبرت، كانت ببساطة ملجأ بائع الكتب، فهي تحوي مكتبته الشخصية. نظر جيلبرت إلى رفوف الكتب بفضول، معظم المجلدات كانت رثّة ومعطوبة، من الواضح أنهم أخذوا واحدًا تلو

الآخر من الأماكن المتواضعة لبائعي المجلدات المستعملة، تظهر عليها جميعًا علامات الاستخدام والتأمل.

كان لدى جيلبرت الهوس الحقيقي بتطوير الذات، الذي أفسد حياة كثير من الشباب، لكن هذا الهوس يعد أمرًا حميدًا لدى أولئك الذين يشعرون بأنهم مقيدون بوظائفهم الجامعية وشعار الأخوية. فجأة خطرت له فكرة؛ ماذا لو أعدّ قائمة من عناوين مجلدات السيد ميفلين، كاقتراح لقراءاته الخاصة، أخرج مذكرته وبدأ بتدوين عناوين الكتب التي أثارت اهتمامه:

- أعمال فرنسيس تومسون (3 مجلدات).
- التاريخ الاجتماعي للتدخين: جورج أبرسون.
- الطريق إلى روما: هيلاير بيلو.
- كتاب الشاي: أوكاكورا كاكوزي.
- أفكار سعيدة: فرانسيس بورناند.
- صلوات وتأملات: صموئيل جونسون.
- مارجريت أوفيلي: جيمس ماثيو باري.
- اعترافات سفاح: فيليب ميدوز تايلور.
- فهرس عام لجامعة أوكسفورد.
- مفكرة الحرب العظمى: تشارلز اداورد مونتاج.
- روح الإنسان: روبرت بريدجز.
- الخمر الروماني: جورج هنري بورو.
- قصائد: إيميلي ديكنسون.

مكتبة
t.me/t_pdf

- قصائد: جورج هاربرت.

- منزل رعاة البقر: جورج غيسنج.

كان هذا الذي حصل عليه حتى اللحظة، وبدأ يقول لنفسه: إن هذه إحدى فوائد الإعلانات (التي تكون أحيانًا عشيقة غيورة تأخذ جلّ وقته) واتخذ القرار الصائب بالتوقف، عندها اندفع مضيفه إلى الغرفة، في فورة حماسة جامحة.

صاح قائلًا: "هيا يا سيد أوبري جيلبرت! العشاء جاهز. هل تريد غسل يديك؟ أسرع إذن، بهذا الاتجاه: البيض ساخن وينتظر."

غرفة العشاء التي توجه لها الضيف تكشف عن لمسة أنثوية غير ظاهرة، وسط غبش دخان المحل وفي حجرة السيد أيضًا. وُضعت على النافذة ستائر مصنوعة من قماش قطني وأصيصات لزهرة إبرة الراعي الوردية، أمّا طاولة العشاء فكانت أسفل أنوار معلقة ذات ألوان متعددة تناغمت بشكل زاهٍ مع طقم الأواني الصيني ذي اللونين الأزرق والفضي. أدى انعكاس الضوء إلى لمعان الخمر البني المحمرّ في إناء الشرب. وأحس كاتب الإعلانات ذو الشخصية المتفردة والرصينة أنّ روحهُ تمرّ عبر توتر متصاعد لا تخطئه العين.

قال السيد ميفلين: "تفضل يا سيد جيلبرت". ورفع الغطاء عن طبقٍ كبير صائحًا: "هذا هو بيض صموئيل بتلر[1]، خلطتي المبتكرة، مجد آلهة البيض".

استقبل جيلبرت الاختراع بتهليل، يعتلي بيض صموئيل بتلر هرم قائمة الطبخ لدى ربات المنازل، يقدم مع التوست المحمّص، واللحم المقدد يتسيّد الوجبة. قدّم السيد ميفلين بيضًا مسلوقًا جيدًا، وفطر مشرح بشكل دائري،

---

(1) صموئيل بتلر روائي إنجليزي وصاحب مقولة "الدجاجة ماهي إلا طريقة البيض في صنع بيض آخر". (المترجمة).

وقطع من أنصاف الفلفل الأحمر العلوية، كان هذا المزيج عائمًا وسط صلصة وردية اللون يرفض الطاهي البوح بسرها. أضاف بائع الكتب والطاهي في الوقت ذاته البطاطا المقلية من طبقٍ آخر، وسكب لضيفه كأسًا من النبيذ.

قال بائع الكتب: "هذا النبيذ من كاليفورنيا، حيث العنب وشروق الشمس يقومان بالمهام بكل رخصٍ وسرور. فلنشرب نخب نمو مهارة وخفة الإعلانات هذه الأيام!"

كان السيد جيلبرت على دراية بهذا الأمر، سيكولوجيا مهارة الإعلان تعتمد على الحصافة والذكاء، إدراك غريزي للون واللهجة اللذين يتناغمان مع مزاج المستمع. وقد تسرب إليه إحساس بأن السيد ميفلين متباهٍ ومستمتع بوظيفته الغريبة كخبير في الطعام، أكثر ممّا هوعليه كبائع للكتب مقدسٍ لمهنته.

قال جيلبرت بفصاحة جونسانية[1]: "هل من المعقول يا سيدي، أنك استطعت تحضير طبق رئيسي لذيذ في بضع دقائق؟ هل قمت بخداعي؟ ألا يوجد ممرّ سري بين شارع غيسنغ ومطابخ فندق الريتز؟"

أجابه السيد ميفلين: "إذا كان هذا ما تظنه، فيجب عليك تذوق طعام السيدة ميفلين إذن. أنا مجرد هاوٍ بالنسبة إليها، أمارس شغفي في أثناء غيابها. هي في الحقيقة تزور قريبها في بوسطن. غدت ضجرة من دخان التبغ بالمحل مؤخرًا، والذي أراه أمرًا مبررًا للغاية. لذا تذهب مرة أو مرتين كل عام لتستنشق هواءً نقيًا وصافيًا من تلال بوسطن. استغل غيابها وأجد أنه من دواعي سروري أن أستقصي أمور المنزل وأقوم بتدبيرها، ويا له من مُسكّن بعد كل الجلبة والإثارة المستمرة بالمتجر".

---

(1) الجونسانية نسبة إلى الشاعر والكاتب الإنجليزي صمويل جونسون الذي اشتهر بفصاحته وإسهاماته في الأدب. (المترجمة).

قال جيلبرت: "لطالما ظننت أن الحياة بمتجر للكتب وادعة وعلى نحوٍ جاذب للغاية".

أجابه السيد ميفلين: "بل أبعد ما تكون عن ذلك، العيش بمتجرٍ للكتب أشبهُ بالعيش في مستودع للمتفجرات، الرفوف ترص بأشد المحروقات اضطرابًا؛ عقول البشر. باستطاعتي تزجية أمسية ممطرة وأنا أقرأ، وعقلي ما ينفك يشتغل بشغفٍ وقلق بمشاكل مهلكة تكاد تسلخ عني إنسانيتي. إنه لأمر مرهق للأعصاب بشدة؛ أن تُحاط بكارلايل، إيمرسون، ثورو، شيسترتون، شو، نيتشه، وجورج أدي، هل بعدها ستتساءل عما يربك عقلي؟ ماذا سيحصل لقطة اضطرت أن تعيش بحجرةٍ تزدان جدرانها برسومٍ نبات حشيشة الهر[1]؟ سيدفعها ذلك للجنون حتماً!"

قال الشاب: "لم يخطر لي في الحقيقة هذا الجانب من بيع الكتب. كيف للمكتبات رغم ذلك أن تكون ملجًا لهذا الهدوء الصارم؟ إذا ما كانت الكتب مستفزة كما تقترح، فإن المرء يتوقع من كل أمين مكتبة أن يصرخ ككهان بكل ما أوتي من قوة".

أجابه السيد: "يا عزيزي، لقد نسيت أمر بطاقات الفهرسة! اخترع أمناء المكتبات هذه الأداة المريحة لعلاج أرواحهم المحمومة، مثلما ألتجئ أنا إلى طقوسي في المطبخ. سيُصاب المكتبيون بالجنون، وخاصة ذوو التفكير العميق منهم إذا لم تتوفر لديهم بطاقات فهرسة منعشة وعلاجية! المزيد من البيض؟"

جيلبرت: "شكرًا سيدي، ولكن من يكون صموئيل بتلر هذا، الشخص الذي اقترن اسمه بطبقك الرئيسي؟"

صاح العجوز بانفعال: "ماذا؟ أولم تسمع بهذا الاسم من قبل؟!

---

(1) نبات حشيشة الهر أو القطرم، نبات عطري سمي بهذا الاسم نظيرًا لتأثيره الكبير على القطط حيث إنّ استنشاق رائحته يجعل القطط تشعر بنشوة وسعادة. (المترجمة).

صموئيل بتلر صاحب العمل الروائيّ "هكذا يمضي كل جسد"[1]؟ أيًا كان يا عزيزي، لقد سمح لنفسه بالموت قبل أن يرى عمله هذا النور، أوعمله الآخر "إيروون"[2]، لقد خسرِ فرصته بالفردوس عمدًا، من أجل فردوس أرضي غامض، لكنني متيقن من وجود جنة على الأرض حقًا، جنةٍ نبتدعها ونأوي إليها حين نقرأ كتابًا جيدًا. اسكب لنفسك كأس نبيذ آخر، واسمح لي".

(أخذ الحديث يتطور وبحماسة متقدة عن الفلسلفة الضارة لصموئيل بتلر، ومن جانبي أغفلته كرمى لقرائي. دوّن جيلبرت بعض الملاحظات بمفكرته أثناء حديث بائع الكتب المستفيض، ويسعدني القول: إنّ الحديث بينهما لامس جيلبرت، وأدى به إلى إدراك فداحة خطئه ببعده عن الأدب، حيث شُوهد في المكتبة العامة بعد بضعة أيام يبحث عن نسخة من رواية "هكذا يمضي كل جسد". وبعد مروره على أربع مكتبات وجدها أخيرًا، ولم يندم على شرائها قط).

تابع السيد ميفلين حديثه: "لكنني أخشى أنني أهمل واجباتي كمضيف، طبق الحلوى لهذا المساء يتضمن كعكعة الزنجبيل وصلصة التفاح، يُقدّم مع القهوة". وبحركة سريعة أزال الأطباق الفارغة من على المائدة وأحضر أطباق الجولة الثانية.

قال جيلبرت: "لقد لاحظت التحذير المعلّق على اللوحة الجانبية، أتسمح لي بمساعدتك هذه الليلة؟"

---

(1) هكذا يمضي كل جسد هي رواية وشبه سيرة ذاتية للكاتب صموئيل بتلر تهاجم النفاق في العصر الفيكتوري

(2) Erewhon رواية نشرت عام 1872 بعد وفاة الكاتب تصنف ضمن أدب الدستوبيا. (المترجمة).

وأشار إلى بطاقة عُلّقت بجانب باب المطبخ. كُتب عليها:

احرص دائمًا على غسل الأطباق فورالانتهاء منها، وذلك تجنبًا للمتاعب.

أجابهُ بائع الكتب: "أخشى أنني لا أتّبع هذه القاعدة دائمًا". سكب المزيد من القهوة وتابع: "تعلق زوجتي هذه البطاقة كلما ذهبت بعيدًا، وذلك لتذكيري. لكن، وكما يقول صديقنا صموئيل بتلر: "الغباء في التعاطي مع الأمور الصغيرة يستحيل غباء في التعاطي مع الأمور الكبيرة". لديَّ نظرية أخرى لغسل الأطباق، ويحلو لي الانغماس فيها. اعتدت أن أعدّ غسل الصحون مجرد عمل يومي وضيع، نوع من الانضباط البغيض الذي يجب أن يتم بحاجبين مقطبين وثباتٍ جسور. عندما ذهبت زوجتي بعيدًا لأول مرة، وضعت حامل كتب مصباحًا كهربائيًا فوق حوض المغسلة، واعتدت أن أقرأ بينما تذهب يداي تلقائيًا إلى لوح المصفاة. خلقتُ أرواحًا عظيمة من الأدب كشركاءٍ لحزني، وبينما أنا مخمورٌ ومتمرغ بين القدور والأواني حفظت عن ظهر قلب أبياتًا كثيرة من قصيدة "الفردوس الضائع" لوالت ماسون. واعتدت أيضًا أن أعزيَ نفسي بترديد سطرين لكيتس[1]:

"النجم يراقب من علٍ حركة المياه كحركة كاهن

تجرف لأعماقها من الشواطئ ما هو قذرٍ وآسن...".

وبينما أردد هذه الأبيات باغتني مفهوم جديد لهذه المسألة تمامًا. أجد أنه من غير المقبول أن يواصل الإنسان القيام بأي مهمة ككفّارة، تحت الإكراه. بغض النظرعن نوع العمل، يجب على المرء أن يضفي على مهامه طابعًا روحيًا. يحطّم أفكاره القديمة إلى أجزاء صغيرة، ومن ثم يعيد بناء الجديدة بالقرب من رغبات قلبه. كيف أفعل ذلك مع غسيل الأطباق؟ كسرت

(1) جون كيتس شاعر إنجليزي من أبرز أ شعراء الحركة الرومنتيكية

العديد من الأطباق الجيدة بينما أتأمّل هذه المسألة. ومن ثم تراءى لي أنّ هذا هو الاسترخاء الذي احتجته فعلًا! كنتُ قلِقًا من التوتر العقلي الذي أصابني جراء إحاطتي بعدد كبير من الكتب شديدة الجلبة، صارخةً بي طوال الوقت بمختلف آرائها المتعارضة عن أمجاد وآلام البشر. إذًا لماذا لا يكون غسل الأطباق هو مرهمي وضمادة جرحي؟

عندما ينظر المرء إلى حقيقة مستعصية من زاوية مختلفة عن سابقتها، يصاب بالدهشة، كيف يمكن لحوافها أن تتغير إلى هيئةٍ مختلفةٍ كليًا! أشعّت مباشرةً هالة فلسفية من حوض المغسلة! واستحال الماء الفاتر ذو الملمس الصابوني إلى علاجٍ ملكي يسحب الدم الحار من الرأس، العمل المنزلي المتمثل في غسل الأواني والأكواب ومن ثم تجفيفها، يعدُّ رمزًا للنظافة والنظام الذي يفرضهم الإنسان على العالم الجامح".

أزال حامل الكتب والمصباح الكهربائي من فوقِ المغسلة، ثم استرسل قائلًا: "عزيزي جيلبرت، قد يبدو لك هذا مضحكًا، لقد طورت فلسفة مطبخية خاصةً بي. كنتُ قد خلصتُ إلى أن المطبخ هو قبلة حضارتنا، محور كل ما هو جميلٌ في الحياة. الألق الأحمر للموقد ساحر كسحرِ غروب الشمس. إن إبريقًا أو ملعقة ملمعةٌ جيدًا تبدو منصفة ومكتملة وفاتنة كما تبدو السوناتا. تمثل الأطباق التي يتم شطفها وتجفيفها ومن ثم تعليقها خلف الباب الخلفي لتجف خطابًا مكتملًا في حد ذاته. لا تبدو النجوم لامعة في موضعٍ آخر كما تبدو من عند باب المطبخ بعد إفراغ صندوق الثلج والشربِ إلى حدِّ الانتفاخ، كما يقول السكوتش[1]".

قال جيلبرت: "فلسفة رائعة بحق، والآن بما أننا أنهينا وجبتنا فأنا مصرٌ على مساعدتك في تنظيف الأطباق، هلا سمحت لي؟ متلهف لتجربة وحدة

(1) مشروب كحولي أسكتلندي الصنع. (المترجمة).

وجود الأطباق[1] الخاصة بك!"

قال ميفلين وهو يربّت على ضيفه المندفع: "صديقي العزيز، إنها فلسفة سقيمة ولا تلتزم بالتجريد أحيانًا. لم أسألك قضاء الأمسية هنا كي تساعدني في غسل الأطباق". وقادني إلى غرفة الجلوس مجددًا.

قال ميفلين: "عندما رأيتك مقبلًا على المحل ظننتك صحفيًا يبحث عن مقابلة، جاءنا صحفي شاب مرةً من قبل ولم تجرِ الأمورعلى نحو جيد. كان قد نال رضى واستحسان السيدة ميفلين، إلا أنّ الأمر انتهى بوضعهِ كلينا في كتاب أطلق عليه اسم "المنزل المتنقل"، والذي كان بمثابة محاكمة لي، فقد كتب ملاحظات تتسم بالضحالة والزيف حول بيع الكتب، مما أساء إلى التجارة. رغم ذلك يسعدني القول أن كتابه لم يلقَ رواجًا البتة".

قال جيلبرت: "لا أذكر أنني قرأت هذا العنوان مسبقًا".

اقترح العجوز: "إذا كنت مهتمًا حقًا ببيع الكتب، فيتوجب عليك القدوم لاجتماعنا الشهري، اجتماع نادي الذرة حيث نقدم الذرة وشراب التفاح. ونناقش العديد من المسائل فيما يخص بيع الكتب، لدينا جميع حالات وضروب بيع الكتب، على سبيل المثال: هناك شخص مهووس بمتاجر الكتب، يعتقد أنه يجب تفجير المكتبات العامة. والآخر يظن أنّ المسرح والتلفاز سيدمران تجارة الكتب. أي بلاهة هذه؟! ما يثير عقول الناس ويجعلهم متيقظين ويدفعهم للتساؤل، حتمًا سيزيد من شهيتهم للكتب".

تابع بعد توقف بسيط: "أوتعلم حياة بائع الكتب محبطةٌ جدًا للفكر، فهو محاط بكمٍ هائل من الكتب لن يسعفه الوقت لقرائتها جميعًا. يقف أمام الرف حائرًا، ويلتقط ما تقع عليه عيناه. فيمتلئ عقله تدريجيًا بحطامٍ عائم

(1) إشارة إلى فلسفة وحدة الوجود (المترجمة).

من أنصاف المعلومات والآراء السطحية. يبدأ اللاوعي لديه بتقييم الأدب استنادًا لما يقرؤه العامة. ثم يبدأ بالتساؤل عمّا إذا كان رالف والدو ترين ليس في الحقيقة أعظم من رالف والدو إمرسون، وما إذا كان جيه إم تشابل محترمًا مثل جي إم باري. وهنا يكمن الانتحار الفكري، مع ذلك هناك شيء واحد ينبغي عليك أن تقرّ به لبائع الكتب، أنه طويل الأناة، متسامح مع جميع الآراء والنظريات، مغمورٌ بسيلٍ من كلمات الكتّاب، لديه الاستعداد التام لسماعها جميعًا دون استثناء، يبدي تساهلًا واضحًا حتى مع الناشر، لا مانع لديه من أن يُخدع في سبيل الإنسانية، ويأمل بولادة الكتب الجيدة على نحوٍ متواتر بلا انقطاع".

استطرد السيد ميفلين قائلًا: "عملي- كما ترى- مختلف عن سائر الأعمال الأخرى. أتعامل مع الكتب المستعملة في الحقيقة. أبتاع فقط الكتب التي أؤمن بأنّ هناك أسبابًا حقيقية تبرر وجودها. وبقدر ما يمكن لحكمي الإنسانيّ التمييز، أحاول جاهدًا إبقاء الكتب الرديئة بعيدًا عن رفوف مكتبتي، فالطبيب لا يتاجر بعلاجاتٍ مغشوشة، وأنا لا أتاجر بالكتب الزائفة. وقع أمرٌ طريفٌ هنا منذ بضعة أيام. هناك ثري يُدعى تشامبان، عُرف بتردده على المحل منذ فترةٍ طويلة".

أحس جيلبرت وكأن قدميه تلامسان أرضًا معروفة أخيرًا وقال: "أتساءل ما إذا كان هذا هو السيد تشابمان من شركة حلويات تشابمان؟"

أجابه ميفلين: "نعم، إنه نفس الشخص، هل تعرفه؟"

صرخ الشاب بنبرةٍ محترمة: "هناك من يستطيع إخبارك بفضائل الإعلان أخيرًا، إذا كان السيد تشامبان مهتمًا بالكتب فالإعلانات هي ما جعلته كذلك. نحن نهتم بجميع إعلاناته، كتبت العديد منها بنفسي، لقد جعلنا من الخوخ المجفف الخاص بالسيد تشابمان الغذاء الأساسي في حضارتنا

وثقافتنا. "الخوخ المجفف مصدر اعتزازنا". أنا من كتب هذا الشعار الذي تراه في جميع المجلات الشهيرة، خوخ السيد تشابمان معروف عالميًا. إمبراطور اليابان يأكله مرةً في الأسبوع، بابا الفاتيكان يأكله أيضًا. لقد سمعنا للتو بأن كمية من الخوخ سترافق رئيس الدولة في جولاته من أجل مؤتمر السلام، الجيوش التشيكية والسلوفاكية تتغذى بشكل أساسي على الخوخ، ونحن في مقر العمل هناك مقتنعون بأن حملتنا من أجل خوخ تشابمان كانت أحد أسباب الانتصار في الحرب".

قال السيد ميفلين: "قرأت إعلانًا قبل بضعة أيام، ربما تكون أنت من كتبه أيضًا؟ "ساعة أليجن[1] ربحت الحرب". على أي حال السيد تشابمان واحدٌ من أفضل زبائني وهو كذلك منذ عهد بعيد. لقد علِم باجتماعتنا في نادي الذرة، ورغم أنه ليس ببيائعٍ للكتب إلا انه أظهر رغبةً ملحة للحضور، وأسعدتنا بالطبع استضافته، حتى إنه شارك في نقاشاتنا بحماسةٍ ظاهرة. وألقى بعض التعليقات التي تدل على نفاذ البصيرة. وما لبث إعجابه يزداد شيئًا فشيئًا بنمط حياة بائع الكتب. أرسل إليَّ قبل عدة أيام رسالة عن ابنته (يتساءل فيها)، يقول: لقد التحقت ابنتي بمدرسة عصرية للبنات، وأخشى أنهم سمّموا عقلها بعدة مفاهيم سخيفة وغير لائقة. باتت لا تستشعر فائدة الحياة، ولا تستمتع بجمالها. وبدلًا من إرسالها للجامعة أراد مني أنا والسيدة ميفلين تعليمها بيع الكتب، وإيهامها بأنها هي من تكسب النقود، بينما يدفع لنا سرًا أجر إيوائها وتعليمها. هو يعتقد أن إبقاءها محاطة بالكتب سيولد لديها الإدراك الذي تحتاج. أنا متوترٌ للغاية بشأن التجربة، لكنها تعد بمثابة الإطراء للمحل، أليس كذلك؟"

---

(1) elgin watch ساعة جيب أمريكية الصنع شاع استخدامها في الحرب العالمية الثانية. (المترجمة).

صرخ جيلبرت: "يا للمفاجأة، أي إعلانٍ سيصنع هذا!"

بهذه الاثناء رنّ جرس المحل وهبّ ميفلين واقفًا وقال: "غالبًا ما يأتي الزبائن في هذا الوقت من المساء، أخشى أنه يتحتم عليَّ النزول للأسفل. فزبائني يتوقعون مني أن أكون في الأرجاء، أساعدهم ونثرثر حول الكتب".

قال جيلبرت: "استمتعت جدًا هذه الليلة، سأعود مرة أخرى حتمًا وأتفحص رفوف مكتبتك".

قال العجوز: "حسنًا، أرجو إبقاء أمر الفتاة سرًا، فأنا لا أريد من فتيان الإعلانات التسلل إلى هنا وتشويش ذهنها. إنّ وقعت الفتاة في حبّ أي شخص بهذا المتجر فلا بد أن يكون إما جوزيف كونراد أو جون كيتس!"

وبينما كان جيلبرت يهمّ بالعبور، رأى السيد ميفلين ينخرط في جدالٍ مع رجل ملتحٍ تبدو هيئته كهيئة أستاذ جامعي. كان يقول: "هل تبحث عن كتاب أوليفر كرومويل لتوماس كارلايل؟ نعم انه هنا، حسنًا، هذا غريب... لقد كان هنا!"

مكتبة
t.me/t_pdf

2

اجتماع نادي الذرة

يمكن للقراء ممن لا يعملون في مهنة بيع الكتب حذف الفصل الثاني من هذا الكتاب.

كم هو بهيج متجر الكتب هذا، ولا سيما في المساء، حيث الشموع تضيء زرقة المحل والهدوء به يبعث على الاطمئنان. العديد من المارة تتعثر خطواتهم بفضولٍ محض حين يعبرون شارع غيسنغ. أمّا الزاور المألوفون فيظهرون على عتبة المحل بمشاعر تشبه تلك التي يشعر بها المرء في مكانه الخاص. كانت من شيم السيد ميفلين الجلوس خلف المكتب، والكتاب بين يديه، والسيجار في فمه. رغم ذلك، حين يشرع زبونٌ بالحديث عن أمرٍ ما، فإن البائع ذا القامة القصيرة يثب بتوقٍ وحرص لإكمال المحادثة، فهو من الأشخاص الذين يسهل إشعال جذوة الحديث بداخلهم. من الأجدر أيضًا ملاحظة أن سائر محلات بيع الكتب التي تبقي أبوابها مشرعة في المساء بالتحديد، لا يوجد فيها تجاوبٌ مع المشتري في سويعات ما بعد العشاء. يا ترى ما مدى صحة القول الرائج إنّ محبي الكتب مخلوقات ليلية، هل اجتماع الظلام، وسكون الليل، مع بريق المصابيح هو من يجعل فعل القراءة لا يُقاوم بالنسبة إليهم؟

تلفُّ الليل هالةً من السحر الصوفي الجذّاب، أرى أنّه من الغريب أنّ الأدباء من الإسكيمو لم يؤلفوا كتبًا عظيمة. بالنسبة لمعظمنا، ليلة في القطب الشمالي تبدوغير محتملة حتمًا دون مؤلفات أوليفر هنري أو روبرت ستيفنسون.

تعجّل السيد ميفلين بإغلاق المحل في تمام الساعة العاشرة مساءً، وراح يتجول هو وبوك (الكلب بلون الخردل، سُميَ بوك على اسم جيوفاني بوكاتشيو الشاعر الإيطالي) حول المحل متفقدًا الأوضاع، يرى ما إذا كانت الأمور تجري على ما يرام. يفرّغ منفضة رماد السجائر ويغلق الباب الأمامي، ومن ثم يطفئ الأنوار، ويعود إلى حجرته على غرار ما درج عليه، حيث يجد السيدة ميفلين منهمكةً إمّا بالقراءة أو الحياكة. كانت دائمًا ما تعدُّ له الشوكلاتة الساخنة، ومن ثم يتحدثان أو يقرأان معًا لنصف ساعة أو نحوها، ثم يذهبان إلى الفراش. وفي بعض الأحيان كان العجوز يسير بخُطا قصيرة طوال شارع غيسنغ، تعصف بهِ ريحٌ ألوف، ومن ثم يقفل عائدًا أدراجه إلى المحل. فقضاء اليوم بأكمله محاطًا بالكتب يسبب الإجهاد لعقله، لذا كان يستمتع بالهواء النقي وهو يجوب شوارع بروكلين المظلمة، متأملًا بعض الأفكار التي انبثقت لديه أثناء القراءة، بينما يتململ بوك مثل أي كلب مسن في الليل.

عندما لا تكون السيدة ميفلين في الجوار، يختلف روتين العجوز تمامًا. فبعد الإغلاق يعود لمكتبه، وفي جوٍ يسوده الخجل والترقب، يسحب من الدرج الأسفل لخزانته مجلدًا يحوي مخططات وملاحظات مبعثرة. كان الأمر أشبه بهيكل عظمي مخبأ في خزانته، إنه سرّه المقدس. كانت مسودات لكتابه الذي كان يتذمر بشأنه طوال عقدٍ كامل، اختار له عدة عناوين مختلفة، مبدئيًا منها "ملاحظات في الأدب"، و"ركائز الفكر" و"أنا والكتب"، و"بائع الكتب الشاب الذي عليك معرفته". بدأ الأمر منذ زمنٍ بعيد خلال مغامرته الطويلة كبائع كتب ريفي، كتب خلالها: "الأدب بين المزارعين"، ومنذ ذلك الوقت استمر بالكتابة إلى أن أضحى إنتاجه غزيرًا وتفرّع كشجرةٍ ضخمة. ليس للمخطوطة في وضعها الحالي بداية أو نهاية، إنها تنمو فقط من المنتصف دون كلل، مئاتٌ من الصفحات مُلئت بنصهِ المستفيض. كان يأمل أن كتابه "مهارة بائع كتب مستعملة" أو "فن بيع الكتب" سيصنف ضمن

كلاسيكيات الأدب بين باعة الكتب الذين لم يُولدوا بعد. يجلس خلف مكتبه الفوضوي الذي تعلوه طبقة رقيقة من دخان التبغ، ينكب على النص، يشطب ويعدل ومن ثم يشير إلى بعض المجلدات الموجودة في مكتبته. عندها يغط بوك في نومٍ عميق، ويبدأ وعي السيد ميفلين بالتناقص، يغفو فجأةً على أوراقه، ويستيقظ بعد منتصف الليل متشنج الأطراف، حينئذ يذهب بانزعاج إلى السرير وحيدًا.

جميع ما أسلفنا كان فقط لنوضح كيف للسيد روجر ميفلين أن يغطُّ في نومٍ عميق، وهو جالس خلف مكتبه في وقتٍ متأخر، بعد أن أمضى المساء يتحدث مع أوبري جيلبرت هاتفيًا، ويكتب في مجلده السري. أيقظته ريح باردة، وكأنّها جبل جليدي تكسّر على صلعته. نظر من حوله فوجد الظلام الدامس في كل مكان، بوك الذي عادةً يلتزم بالنظام أكثرمن سيده، كان قد عاد إلى المطبخ، ونام على سريره الخاص الذي صُنع من صندوق نقلٍ خشبي، كان مخصصًا لنقل موسوعة بريتانيكا.

حدّث روجر نفسه: "هذا غريب، أقفلت الباب بنفسي؟" وذهب ليستطلع الأمر، الباب كان مواربًا بعض الشيء، ولكن كلّ شيء آخر بدا كالمعتاد. سمع بوك خطوات الرجل العجوز، وجاء إليه مسرعًا، كان يضرب الأرض الخشبية بمخالبه، وينظر إلى أعلى باستفسارٍ وصبر، فقد اعتاد على غرابة تصرفات صاحبه.

قال السيد ميفلين: "لا بد أن عقلي كان مغيبًا، فقد نسيت إغلاق الباب". تأكدَ أن الباب محكم الإقفال، وأطفأ المصابيح. لاحظ أن الكلب يحوم حول قسم التاريخ الذي كان بالقرب من مقدمة المحل على جهة اليسار. قال السيد ميفلين: "ما الأمر أيها الكلب المسن، هل تريد قراءة شيءٍ ما قبل النوم؟!" أضاء المصابيح بقسم التاريخ، ونظر من حوله بدت له الأمورعلى ما يرام. ثم

لاحظ أنّ أحد الكتب تراجع إلى الوراء بمقدار بوصة أو نحوها عن الباقي. كان من عادة السيد ميفلين إبقاء الكتب مرتبة في شكل صفٍ مستقيم على رفوف مكتبته، وفي كل مساء وقت إغلاقه المحل، يذهب للتأكد من أن جميع المجلدات في أماكنها الصحيحة من خلال تمرير راحة يده عليها. فمن الممكن أن قارئًا مهمِلًا قد أخلّ بالترتيب. وضع يده على الكتاب لإعادته إلى وضعه الطبيعي، ومن ثم توقف. "هذا غريب" قال لنفسه، "إنه كتاب توماس كارلايل، لقد بحثت عنه الليلة الماضية حين جاءني بروفيسور الجامعة، ولم أتمكن من إيجاده، ربما أنا منهك، ولا استطيع النظر جيدًا، سأذهب إلى السرير".

كان اليوم التالي موعدًا لبعض الأحداث المهمة، ليس فقط عيد الشكر، وموعد اجتماع نادي الذرة الشهري، بل لأنّ السيدة ميفلين كانت قد وعدت بعودتها من بوسطن قبل الاجتماع خصيصًا لصنع كعك الشوكلاته لبائعي الكتب. بعض الإشاعات تقول أن بعض بائعي الكتب ملتزمون بالحضور للاجتماع الشهري بسبب كعك السيدة ميفلين وشراب التفاح الذي يرسله أخوها أندرو ماكغيل كل فصل خريف من مزرعته في كونيتيكت، أكثر من إخلاصهم للمحادثات عن الكتب.

أمضى السيد ميفلين صباحه وهويقوم ببعض أعمال التنظيف المنزلية استعدادًا لعودة السيدة ميفلين. وقد كان مستاءً للغاية من تراكم فتات الأكل ورماد السجائرعلى سجادة غرفة العشاء. أعدّ لنفسه وجبة غداءٍ متواضعة مكونة من شرائح لحم الضأن وبطاطا مطبوخة، كان فرِحًا لتذكره قصيدة هزلية تتحدث عن الطعام. "ليس الطعام الذي تحلم به ما يهم، بل الطعام الذي يدخل لمعدتك ويصبح فردًا من العائلة". أحسّ أن الأبيات تحتاج إلى التهذيب وإعادة الصياغة، لكن كان هذا هو أصل النكتة. دائمًا ما تداهمه الأفكارفي أثناء وجباته الفردية. بعد إنهاء وجبته، راح ينظف الأطباق عند

حوض المغسلة، حينئذ تفاجأ بيدين قويتين تطوقانه، وتضعان مريلة وردية فوق رأسه. قالت زوجته: "ميفلين، أخبرتك مرارًا أن ترتدي مريلة في أثناء غسيل الأطباق". رحبا ببعضهما ترحيبًا حارًا وبسيطًا، بساطة أولئك الذين تزوجوا في منتصف العمر. كانت السيدة هيلين ممتلئة الجسم ومفعمة بالصحة، مما أكسبها جاذبية أخاذة، مترفة بالحس السليم وروح الفكاهة المثالية. كما أن عقلها وجسدها يحصلان على ما يحتاجانه من التغذية السليمة، قبَّلت روجر قبلة حنونة على رأسه وأحكمت ربط المئزر حول جسده المترهل، جلست على كرسي المطبخ تراقبه، وهو يغسل الأواني صينية الصنع. كانت وجنتاها منتعشتين ومضرجتين بالحمرة إثر استنشاق الهواء النقي من التلال، ومحياها مستنيرٌ برضا وسكينة أولئك الذين قضوا عطلة هنيئة في بوسطن.

قال روجر: "حسنًا عزيزتي، إن هذا يبدو كعيد شكرٍ حقيقي، فأنتِ ممتلئة ومفعمة بالصحة كمجلد كتبه بورتون اغبرت ستيفنسون".

قالت السيدة: "نعم، لقد قضيت وقتًا ساحرًا". مربِّتةً على ظهرِ بوك الذي كان يجلس على ركبتيه يستنشق عطر سيدته المألوف، فبهذه الطريقة تتعرف الكلاب على أصدقائها البشر. تابعت السيدة ميفلين حديثها: "مررت البارحة بمتجر الكتب في بوسطن لألقي التحية على جو جيلينغز. يقول: إن بائعي الكتب مجانين، ولكنك تفوقهم جنونًا، يريد أن يعرف ما إذا أعلنت إفلاسك".

أجفل روجر ولمعت عيناه الزرقاوان غضبًا، وضع الكوب من يده، وأشعل غليونه قبل أن يجيب: "وماذا قلتِ أنتِ؟"

قالت هيلين: "قلت إن متجرنا مسكون، ولا يفترض به أن يخضع للظروف المعتادة في التجارة".

"مرحى لك، وما قول جو في ذلك؟"

"قال لا يسكنهُ إلا المخبولون والمعاتيه!"

قال روجر: "حسنًا، عندما يفلس الأدب، فأنا مستعد للإفلاس معه، ليس حتى ذلك الحين. لكن، وبالمناسبة، ستطاردين بدوركِ قريبًا من قِبل آنسة جميلة، قريبًا جدًا. هل تتذكرين إخباري إياك أن السيد تشامبان يرغب بإرسال ابنته لتعمل في المتجر معنا؟ حسنًا، لقد تلقيت رسالة منه هذا الصباح".

فتّش في محفظته، وأخرج الرسالة وسلّمها للسيدة ميفلين لتقرأها:

"السيد والسيدة ميفلين العزيزين، أنا سعيدٌ للغاية وذلك لقبلوكم ابنتي كمتدربة لديكم، إن تيتانيا فتاةٌ ساحرةٌ حقًا، لو استطعنا فقط إخراج هراء المدرسة العصرية من رأسها ستغدو امرأة مدهشة. لقد ترعرت (وهذا خطئي وليس خطؤها) وكل رغباتها ونزواتها ملبَّاة. وبشعور نابع من الشفقة عليها وعلى زوجها في المستقبل - إن حظيت بواحد - فأنا أريدها أن تتعلم القليل عن كسب العيش. إنها تكاد تبلغ التاسعة عشرة تقريبًا، وقد أخبرتها إذا ما وافقت على التدرب في متجر الكتب لبعض الوقت سآخذها إلى أوربا لمدة عام بعد ذلك. كما أسلفت، أريدها أن تظن أنها هي من تجني المال، كما لا أريدها أن تُرهق بروتينٍ شاق. لكنني أود لو تختبر فكرة مواجهة الحياة بمفردها. إن كنت ستدفع لها عشر دولارات في الأسبوع، وتخصم تكلفة مبيتها من ذلك، سأدفع لك سرًا عشرين دولارًا في الأسبوع، وذلك لتحمّلكم أنت والسيدة ميفلين مسؤولية رعايتها والإشراف الودي عليها. سآتي غدًا في المساء لاجتماع نادي الذرة، ويمكننا مناقشة الترتيبات النهائية حينئذ. لحسن الحظ، تيتانيا لديها ولعٌ كبيراتجاه الكتب، وأعتقد حقًا بأنها تتطلع إلى هذه المغامرة بترقبٍ كبير. لقد سمعتها بالأمس مصادفة وهي تتحدث مع أحد أصدقائها، كانت تقول: إنها ستؤدي "عملًا أدبيًا" هذا الشتاء. هذا بالضبط

النوع من الهراء الذي أريده أن ينمو باستمرار لديها. عندما أسمعها تقول: إنها حصلت على عمل في متجرٍ للكتب، سأعلم حينها أنها شُفيت تمامًا.

تحياتي

محبكم جورج تشامبان".

قال العجوز: "حسنًا؟" لم تدلِ السيدة ميفلين بأي تعليق فتابع السيد ميفلين حديثه: "ألا تعتقدين أنه سيكون مثيرًا للاهتمام أن نحظى بشابة ساذجة ونرى تفاعلها مع تعايشنا السلمي؟"

صرخت الزوجة: "يا للهول! إنك تنضح بالبراءة، لن تكون الحياة هادئة كما كانت مع وجود فتاة في التاسعة عشرة من عمرها تحوم في الأرجاء. تستطيع خداع نفسك، لكنك لن تستطيع خداعي. فتاة في هذا العمر لا تتفاعل مع المشكلات، بل تنهار فحسب. تحدث التفاعلات في بوسطن وفي المعامل الكيميائية، أفترض أنك مدركٌ لما تفعله بجلبك قنبلة بشرية إلى مستودع أسلحة؟"

ارتاب العجوز بعض الشيء وقال: "أتذكر حين قرأت رواية "وير هيرمستون" لروبرت ستيفنسون، تحدث فيها عن فتاة تكون "كالمحرك القابل للانفجار" على حدِّ تعبيره، لكنني لا أعتقد بأن فتاة تشامبان ستمثل تهديدًا كبيرًا لنا. وأظن أيضًا أنّ كلينا محصنٌ ضد القذائف. أسوأ ما قد يحصل هو أن تعثر على نسختي الخاصة من كتاب "محادثات بجانب الموقد من عصر الملكة إليزابيث". ذكريني أن أبحث عنه، هلاّ فعلتِ؟"

كان هذا الكتاب بمثابة تحفة مارك توين السرية، ويعدُّ كنزًا لدى بائعي الكتب. لم يسمح لأحد بقراءته حتى السيدة ميفلين، لكنها حكمت وببراعة بأنه لم يكن ليناسب ذوقها في الكتب. رغم ذلك هي تعرف جيدًا أين يحتفظ به (مع بولصية التأمين على حياته، ووثائق الحرب، وأوتغراف من شارلي

شابلن، وصورة لها التقطت في شهر العسل)، لكنها لم تحاول الاقتراب منه قط.

قالت هيلين: "حسنًا، في حال قدِمت تيتانيا أم لم تفعل، أفترض أن رواد اجتماع نادي الذرة يريدون كعك الشوكلاته الليلة، من الأفضل أن أبدأ بتحضيره الآن. خذ حقائبي إلى الأعلى مثلما يفعل الزوج الحنون إذا سمحت".

اجتماع بائعي الكتب هذا يشبه اجتماع المجلس الأعلى للقضاء اليهودي، ستسرُّ لحضوره. لأعضاء هذه الحرفة القديمة سلوكيات تميزهم عن غيرهم كما تميز الحلل والملابس أصحاب التجارات الأخرى. مع حقيقة أنهم يرتدون ملابس تبدو كأغلفة الكتب القديمة (قليلًا، إن استطعنا القول)، لكن بما أنهم تخلوا عن الربح الدنيوي سعيًا وراء هدفٍ نبيل فستتم مكافأتهم وعلى نحوٍ جيد. يشعرون بالمرارة قليلًا لكن لا بأس، هذا هو السلوك المطلوب من البشرية للدخول إلى جنة السماء الغامضة. الخبرة الطويلة من تعاملهم مع مندوبي دور النشر جعلتهم يتشككون في جودة الكتب التي تقدم لهم في منتصف الوجبات الدسمة. عندما يصطحبك مندوب دار نشر إلى العشاء فليس من المستغرب أن يتحدث عن الأدب عندما تقدم البازلاء. لكن كما يقول جيري جلادفيست (يملك متجرًا للكتب يقع بالشارع الثامن والثلاثين): "مندوبو دور النشر يشبعون رغبات بائعي الكتب التي طال أمدها، فهم يصطحبونك للعشاء بين حينٍ وآخر، وهذا أمر ليس من المرجح أن يلتزم به بائع كتب اتجاه بائع كتب آخر".

قال العجوز بينما كان أعضاء النادي يتوافدون إلى حجرته الصغيرة: "حسنًا، إنها ليلة باردة، فلتقتربوا من الموقد. استمتعوا بشراب التفاح المجاني، كعك الشوكلاته هناك على الطاولة، السيدة هيلين عادت من

بوسطن خصيصًا من أجل إعداده".

قال السيد تشامبان وهو رجل ضئيل الجسم يتسم بفضيلة ألا وهي الإنصات لما يقال: "فلنشرب نخب السيدة هيلين! أتمنى ألّا تمانع مراقبة المحلّ بينما نحن هنا نحتفل؟"

أجابه روجر: "كلا البتة، هي تستمع بذلك أيما استمتاع".

شارك جلادفيست بالحديث قائلًا: "لقد رأيت فيلم "طرزان والقردة" في المكان المخصص لعرض الأفلام بشارعِ غيسنغ، هل رأيته؟ إنه رائعٌ للغاية".

رد السيد ميفلين بتهكم: "ليس وأنا بإمكاني قراءة كتاب الأدغال".

صاح جلادفيست: "أنك تصيبني بالإعياء بحديثك المستمرعن الأدب، الكتاب يبقى كتابًا حتى وإن كتبه هارولد بيل رايت[1]".

تدخلت ميريدث من متجر الكتب بالجادة الخامسة وقالت: "الكتاب يعد كتابًا حين تستمع به، كثير من القرّاء استمتعوا بأعمال هارولد بيل رايت، كما يستمتع الناس أيضًا بأكلهم كرشة الماشية، مع العلم أن فعل أيٍّ منهما قد يقتلني، لكن دعونا نتحلّ بالصبر".

عقّب جلادفيست على كلامها بزهوٍ وانفعالٍ استثنائي تحت تأثير شراب التفاح وقال: "جدالكِ مبني على سلسلة من المغالطات".

انضم بينسون المختصّ بالكتب النادرة والطبعات الأولى إلى المحادثة مقهقهًا: "تلك مناورةٌ جيدة".

قال جلادفيست: "كلا، ما عنيته هو أننا لسنا بنقّادٍ للأدب، ليس من شأننا الحكم على الكتب وتصنيف الجيّد منها والسيّء. مهمّتنا تقتضي توفير الكتب

(1) روائي أمريكي اشتهر بكتابته الأعمال الخيالية. (المترجمة).

للقرّاء وقتما يريدونها، أمّا فيما يتعلق باهتماماتهم واختياراتهم فهذا ليس من اختصاصنا".

قال روجر وارملي: "أنت من الذين يقولون: إنّ مهنة بائع الكتب هي أسوأ مهنة على الإطلاق، وأنت من يجعل منها كذلك أيضًا، أفترضُ أنك تؤيد ذلك، أليس من مهام بائع الكتب زيادة شهيّة الناس نحو الكتب؟"

قال جلادفيست: "شهيّة، يا لها من كلمةٍ مبالغ فيها، بقدرما يهتمّ العامة بالكتب فهم يأخذون منها المشروبات المنعشة فقط. أمّا الأطعمة الصلبة فلا تثير اهتمامهم. لندع العامة وشأنهم، وخاصةً فيما يتعلق بأموالهم التي حصلوا عليها بشق الأنفس".

قال مضيفهم السيد ميفلين: "حسنًا، لقد أوضحت الأمر، ليس هناك مسوّغات لإكمال هذا الحديث".

قاطعه جلادفيست قائلًا:"نعم، ليس هناك. لكنني أودّ المراهنة على أنّ تجارة بيع الكتب جنت أموالًا من بيع كتاب "الكومنولث الأمريكي" لجيمس برايس أكثر من مكتبات ولاية تينيسي مجتمعة".

انقطع الحديث بوصول زائرين آخرين، قام السيد ميفلين بتوزيع أكواب شراب التفاح عليهما، وأشار إلى الكعك وسلة المعجّنات. الوافدان الجديدان هما كوينسي وفروهلينج. الأول كان كاتبًا في قسم الكتب في محل للمنتجات المتنوعة، أمّا الثاني فكان صاحب مكتبة في الحيّ العبريّ في جراند ستريت -أحد أفضل متاجر بيع الكتب- مع محدودية شهرته لدى محبي الكتب في المدينة.

قال فروهلينج وقد تلألأت عيناه الداكنتان فوق عظام وجنتيه الناتئة ولحيتهُ الكثيفة: "حسنًا، ما الذي تتجادلون حوله هذه الليلة؟"

أجاب جلادفيست باستخفافٍ واضح: "كالمعتاد، ميفلين يخلط بين البضائع ونظريات المعرفة. ميفلين، أنا لا أقصد الإساءة مطلقًا، أنا أقول وببساطة إنه لأمرٌ جيد رغبتك في بيع الأفضل فقط".

قال ميفلين: "جلادفيست أخشى أنك أخطأت مرةً أخرى، ينبغي أن تختار من البضائع ما يلائم الزبائن القادمين لمتجرك، هكذا هو الحال. أسأل كوينسي، هل سيكون من المنطقي تعبئة رفوف مكتبته بمؤلفات موريس ماترلنيك وجورج برنارد شو، في حين أنّ إدارة المتجر تريد بيع أعمال إليانور بورتر وطرزان؟ أو هل يعقل أن يبيع البقّال القرويّ سيجارًا مشابهًا للسيجارالموجود في فندق فيفث أفنيو[1]؟ بالطبع لا، فالبقال يتاجر بالسجائر التي تتوافق مع مستوى زبائنه، والتي يفضلونها أيضًا، لذا لا بد لتجارة بيع الكتب الرضوخ لقواعد التجارة العامة".

رد جلادفيست قائلًا: "عزيزي ميفلين، سحقًا لقواعد التجارة! لقد أتيت إلى هنا هربًا من تلك القواعد. سينفجر عقلي إذا ما اضطررت إلى الالتزام بالاعتبارات الوضيعة للطلب والتوريد، وبحسب ما أعلم، التوريد هو من يخلق الطلبات".

السيد ميفلين: "جلادفيست، يا صاحبي العزيز، مع ذلك، عليك أن تنصاع لتلك الاعتبارات الوضيعة كما قلت وذلك لكسب لقمة العيش، إلا إن كنت قد حصلت على ثروة!"

أنهى بينسون الجدال بتغييره دفة الحديث قائلًا "كما تعلمون يا أصدقاء، طبيعة عملي تختلف عن طبيعة عملكم قليلًا. هناك فكرة ما تنفك تطرأ لي باستمرار، تتعلق ببيع الطبعات النادرة، قد تثير اهتمامكم. وهي باختصار:

---

(1) Fifth avenue فندق فاخر كان موجودا في مانهاتن - نيويورك من 1859 إلى 1908. (المترجمة).

عادةً ما يكون استعداد العميل لمشاركة أمواله انعكاس على الفائدة المستمرة التي يتوقعها من المشتريات".

أجابته ميريديث التي بدت وكأنها جون ستيورات ميل وهي تتحدث قائلةً: "قد يكون كلامك صحيحًا، الناس يدفعون أموالًا طائلة في سبيل التسلية بينما لايفعلون ذلك من أجل رفعتهم أو إعلاء شأنهم. انظر لما قد يدفعه الناس مقابل حضورعرضٍ مسرحي، أو ما قد يصرفه الرجل من الدولارات في الأسبوع الواحد على السجائر دون حتى التفكير بالأمر. رغم ذلك، فإنّ دولارين أو خمسة من أجل كتاب ما قد تسبب له كربًا حقيقيًا. أن الخطأ الذي ارتكبه الزملاء في تجارتهم هو محاولة إقناع المشتري بضرورة الكتاب. أخبرهم أن الكتب ما هي ألا ترفٌ محض، وسوف يسعون من أجلها ويحرصون على اقتناء الجديد منها! على الناس أن يعملوا بجدٍ في هذه الحياة لأنهم يخجلون من الضروريات. يستمر الرجل في ارتداء بدلته إلى أن تغدو رثة، لكنه لا يدخن سيجارًا قديمًا".

قال جلادفيست: "حسنًا، ليست بالفكرة السيئة، كما تعلمون، ميفلين يدعوني أحيانًا ساخرًا "المادي"، لكنني أقسم لكم، أظن بأنني واقعي أكثر منه. ولا أدّعي أنني أحاول ببسالة أن أقنع عملاء أبرياء لا يملكون المال بشراء ذلك النوع من الكتب التي أعتقد أنهم لابد أن يحصلوا عليها. عندما أرى العاجزين الذين لا حول لهم ولا قوة ينساقون إلى متجر الكتب بحثًا عن شيء دون أن يحددوا كنهه، ولا توجد لديهم أدنى فكرة عما يستحق القراءة، هذا يجعلني أستنكف عن استغلال سذاجتهم لزيادة ربحي الخاص. فهم يكونون تحت رحمة البائع تمامًا، ويقومون بشراء ما يرشحه لهم. رجلٌ شريف، حاد الذهن (وأنا أقصد نفسي هنا) سيمتنع عن وضع الأشياء البراقة أمامهم، ليعتقدوا أن عليهم شراءها. لندعهم يرتكبون الأخطاء الفادحة، لندع الانتقاء الطبيعي يعمل. برأيي إنه من الرائع مشاهدتهم يتخبطون

ويحاولون معاينة خياراتهم قبل الإقدام عليها، وأيضًا من الرائع دراسة السلوكيات الغريبة التي ينتهجونها في اختياراتهم، عادةً يقومون باختيار الكتاب إما لإعجابهم بغلافه أو لأنه يكلفهم دولارًا وربع بدلًا من دولارًا ونصف، أو لأنهم يقولون أنهم رأوا مراجعةً له. والمراجعة تتضح أنها إعلان في النهاية، ولا أظنُّ أن واحدًا من ألف مشترٍ للكتب يميز الفرق بينهما".

قال ميفلين: "مبدأك قاسٍ، وتافه، ومتكلف! ما رأيك في الأطباء الذين يرون مرضى يعانون من أمراض قابلة للشفاء، ولا يفعلون شيئًا لتخفيف معاناتهم؟"

أجاب جلادفيست: "معاناتهم- كما تسميها- سخيفة بالمقارنة مع معاناتي إذا ما علقت مع كمٍ هائل من الكتب، لن يقوم مثقف رفيع المستوى بشرائها. ما رأيك بالعامة الذين يعبرون متجري يومًا بعد يوم، ويتركون البائع صاحب المبادئ يتضوّر جوعًا؟"

قال ميفلين: "عزيزي جلادفيست، علتك ما هي إلا خيالك، إنك مجرد تاجر. ما أحاول إخبارك إياه هو أنك بمنزلة الموظف الحكومي الذي يتوجب على الدولة إحالته للتقاعد، ويتحتّم عليه التزامًا بشرف المهنة بذل كل ما في وسعه لمساعدة المشتري وتوجيهه نحو البضائع الجيدة".

أعترض كوينسي: "أعتقد أنك نسيت أن بائعي الكتب، وخاصةً من يتاجرون بالطبعات الأولى، هم تحت رحمة الناشر تمامًا. علينا أن نخزن بضاعتهم والتي معظمها كتبٌ خاوية المضمون. ولماذا هي خاوية المضمون؟! الربّ وحده يعلم! وبسبب سوء جودتها لا تُباع".

قال ميفلين: "يا له من لغز محير بالفعل! لكن بإمكاني إعطاؤك أسبابًا قد تبدو معقولة. أولًا: شح الكتب الجيدة ربما يكون سببًا رئيسًا. ثانيًا: جهل الناشرين الذين لا يميّزون كتابًا جيدًا حين يرونه، فهم يقومون باختيار

الكتب بإهمالٍ واستهتارٍ تام. إنّ مصنعًا كبيرًا للأدوية أو شركة أغذية تصنع المربى ينفقان مبالغ هائلة على الفحص الكيميائي وتحليل المكونات التي تدخل في منتجاتهم، يدّعي مدراء دور النشر أن قسم جمع المخطوطات وأخذ العينات منها هو أهم قسم لديهم. مع ذلك، فإنه لا يؤخذ بالاعتبار، حتى من قبل الأقسام الأقل أجرًا. كنت قد تعرفت إلى شاب ساذج عديم الخبرة، كان قد تخرج حديثًا من الجامعة، ولم يقرأ كتابًا واحدًا طوال سنيّ دراسته، رغم ذلك توظف على الفور في إحدى دور النشر. إذا كانت مصانع المربى تحرص على تعيين الخبراء، فلماذا لا تقتدي بها دور النشر إذًا؟ هناك الكثير منهم. انظر إلى مدير مجلة بسفيك مونثلي[1] على سبيل المثال! ربما يعلمك أمرًا أو اثنين.

قال تشابمان: "أعتقد أنك تبالغ في تقدير قيمة أولئك الخبراء. برأيي، معظمهم مليء بالهراء. عينت خبيرًا في مصنعي ذات مرة، وعندما كنت أخسر أموالًا جراء تردي أحوال العمل، قال لي إنّه يعتقد أن العمل في أحسن أوضاعه!"

قال ميفلين: "كنت قد لاحظت أن جني الأموال هو أسهل الأشياء في العالم، كلّ ما عليك فعله هو طرح منتج صالح غير مغشوش بالأسواق، على أن يكون العامة بحاجةٍ فعلية إليه. عندها تقوم بالتسويق الجيد له، والحرص على إخبار الناس أنّهم بحاجةٍ إليه أيضًا. حينها، ومن فرط حماستهم، سيسقطون بوابة متجرك للحصول عليه. لكن عندما تبيع لهم منتجات فاسدة أو كتبًا خاوية المضمون، فأنت عندئذ تسير إلى الهلاك".

قالت ميريديث: "أعتقد أنك محق، أنت تعرف أي نوع من المتاجر هو متجرنا، متجرٌ في الجادة الخامسة، واجهات زجاجية فخمة، وأعمدة إنارة

---

(1) The Pacific Monthly مجلة ذائعة الصيت تهتم بالسياسة والثقافة و الأدب نُشرت شهريًا من عام 1898 إلى 1911

رخامية تتوهج كشخب البتولا تحت ضوء القمر. نبيع كل يوم هراءً بمئات الدولارات، لأن هناك من يطلب ذلك. لكنني أقول لك وبأسف أنّنا نُرغم على فعل ذلك. الباعة في متجرنا يسخرون من العامة الذين يأتون لشراء الكتب. لكنهم أرواح مسكينة تبحث عن الكتب الجيدة، ولا يعرفون إليها سبيلًا. مع ذلك أعتقد أنّ جلادفيست لديه وجهة نظر معقولة في حديثه هذا. أشعر بالرضا عند بيع مؤلفات العالِم نيوتن، أكثر مما أشعر به عند بيع نسخًا من طرزان. لكن فرض ذوقك الخاص على الزبائن يعدُّ أمرًا بغيضًا وغير عملي أيضًا. كل ما تستطيع فعله هو إرشادهم بمهارة ولباقة إلى الكتب الجيدة، عندما تُتاح لك الفرصة لفعل ذلك".

قال كوينسي: "كلامكِ جعلني أستحضر موقفًا حصل معي في قسم الكتب بالمتجر قبل عدة أيام. دخلت إلى المحل امرأة شابة، وقالت: إنها لا تتذكر اسم الكتاب الذي تبحث عنه، لكنه كان عن طفل ترعرع في الدير بين الرهبان. أربكني الأمر حقيقةً، اقترحت رواية "الدير والموقد" لتشارلز ريد و"أجراس الدير" و"أساطير الرهبان" وهلمّ جرّا، لكنني لم أقترب حتى من العمل المنشود، فوجهها خلا من أي تعبير عند ذكري أسماء هذه الروايات. استمعت بائعة شابة صدفةً لحديثنا، وخمنت على الفور العمل المقصود، لقد كان: طرزان".

قال ميفلين: "أصدقائي الأعزاء، أودّ أن استشيركم في أمرٍ ما، لقد أتاني إلى المحل منذ أيام قليلة شابٌ يافع من وكالةٍ للإعلانات، واقترح عليَّ وضع بعض النسخ في الصحف لغرض الإعلان. هل تعتقدون أنّ الأمر جديرٌ بالمحاولة؟"

قال فروهلينج: "الأمر دائمًا يستحق المحاولة، لكن السؤال المطروح هنا هل سيعود الإعلان بأي منفعة تُذكر على المعلن؟"

قالت ميرديث: "ماذا تعني، هلّا شرحت لنا؟"

أجابها فروهلينج: "هل فكرتِ يومًا في مشكلة الإعلانات غير ذات الصلة؟ وأنا أعني بهذا النوع من الإعلانات التي قد يفرح بها منافسوك أكثر منك؟ لنأخذ على سبيل المثال المتجر الفاخر للحلويات بالجادة السادسة، مكلِف لكن فيه ما لذَّ وطاب من الحلويات. منظرها، وهي تدور في النافذة الزجاجية المضيئة للمحل، كفيلٌ بجعل لعابك يسيل. تقرر شراء شيءٍ لأكله، لكن هل تدخل إلى هذا المحل؟ كلا، ليس من المرجّح. بل ستذهب إلى آخر الشارع حيث محليّ "أوتومات" و"كريستال لانش". ينفق الرجل صاحب محل الحلويات مبالغ ضخمة على تلك الأطعمة الفاخرة المعروضة، والمستفيد هو صاحب المحل الآخر. الأمر نفسه يحدث معي، فأنا أعمل في مصنع المنطقة، حيث الناس يستطيعون الحصول على أفضل الكتب وبأرخص الأسعار. (ميرديث ستؤيدني فيما سأقول: برأيي، الأغنياء هم من يدفع تكاليف كتب الفقراء). فحين يقرأ العامل الفقير إعلانًا لكتاب بصحيفة أو مجلة، إعلانًا لمحل ميرديث والمحلات المشابهة له، عندها يقصد مصنعي للحصول على نسخة من تلك الكتب المعلن عنها. لذا أنا أؤمن بالإعلانات، لكنني أؤمن أيضًا بالسماح لشخص آخر بالدفع ثمنًا لها".

قال ميفلين: "أعتقد أنني استطيع تحمل تكلفة إعلان كإعلان محل ميرديث. في الواقع لم أفكر بذلك. أظن أن عليَّ وضع إعلانٍ صغير في الصحف يومًا من الأيام، قصاصة صغيرة مكتوب عليها:

بارنسوس في المنزل مكان للكتب الجديدة والمستعملة

هذا المتجر مسكون بالأشباح

سيكون من الممتع ترقب النتائج".

قال كوينسي: "قسم الكتب في المتاجر الكبرى لا يحصل على فرصة

للاستمتاع بالإعلانات الهامشية كما يسميها فروهلينج. عندما يقوم مصمم الديكور في المحل بوضع نسخ مزورة لمجلدات كيبلنغ على قماش زيتي أو قصص عن أمراض الركبة أو تزيين لوحة ملصقات لماذا تفرض على قسمي!"

صاح جلادفيست: "ها هو الدليل، أظل اخبركم أن بيع الكتب مهمة شاقة لرجلٌ يحب الأدب. متى قام بائع الكتب بتقديم أي إضافة حقيقية لسعادة هذا العالم؟"

قال ميفلين: "والد صموئيل جونسون كان بائع كتب".

قال جلادفيست: "نعم، ولم يستطِع تحمل تكاليف تعليم ابنه".

قال فروهلينج: "هناك نوع آخر من الإعلانات الهامشية يثير انتباهي. على سبيل المثال، لوحات كول فيليبس لبعض العلامات التجارية المتخصصة في الجوارب الحريرية. في اللوحة يتركز الضوء بمكر على الجورب الحريري للسيدة الجميلة. لكن هناك دائمًا شيء آخر في الصورة -عربة أو منزل ريفي، كرسي من تصميم وليام موريس، أو مظلةً كبيرة- مما يجعله إعلان فعال لهذه الأشياء أيضا. بين حينٍ وآخر يدس فيليبس كتابًا أو اثنين في إحدى لوحاته، وأتوقع أن متاجر الكتب في الجادة الخامسة يستفيدون من ذلك استفادة جمة".

قال ميفلين: "يا لكم من ماديين، ما أحاول إخباركم إياه هو أن الكتب رواسب الروح البشرية. والإرث الذي يدوم. ألم يقل شكسبير:

لا الرخام ولا النصب التذكارية المذهبة للأمراء

يمكن أن تُعَمَّرَ أكثر من هذا القصيد الرصين.

كان على حق، أقسم لكم بعظام هوهنزولرن[1]! انتظروا لحظة، طرأ لي

(1) هوهنزولرن أسرة ملكية ذائعة الصيت حكمت براندنبيرج وروسيا والإمبراطورية الألمانية. (المترجمة).

اقتباس كنت قد قرأته، من رواية توماس كروموبل".

ركض بحماسة خارج الغرفة، وتجمعوا أعضاء النادي حول بعضهم البعض. نفض جلادفيست رماد غليونه، وسكب المزيد من شراب التفاح. ثم قهقه وقال: "خرج ليمارس هوايته، كم أحبُّ إغاظته".

قال فروهلينج: "بمناسبة الحديث عن كتاب توماس كروموبل، قليلًا ما يسألني عنه الزبائن بمتجري، في الحقيقة يندر ذلك. لكن قبل بضعة أيام أتاني شاب يبحث عن نسخة، وتكدرت لأني لم أكن أملك واحدة. سأزدري نفسي لو احتفظت بنسخةٍ منه في متجري. لذا هاتفت متجر برينتانو وسألتهم إن كانت لديهم نسخة، فأخبروني أنهم باعوا للتو آخر نسخة لديهم. لا بد أن أحدهم يروج لكتابات توماس! ربما ذُكر له اقتباس في فيلم طرزان".

دخل السيد ميفلين إلى الغرفة بخطواتٍ ثقيلة، والانزعاج بادي على محياه، قال: "حصل أمر غريب، اللعنة، رأيت كتاب كروموبل ليلة الأمس. أنا متأكدٌ من هذا، لقد كان على الرف، والآن اختفى".

قال كوينسي: "هذا لا شيء بالمقارنة مع ما يحدث في متاجر الكتب، أنت تعلم أن الناس يأتون إلى متاجر الكتب المستعملة، ويرون كتابًا ويتخيلون شراءه لكن ليس في الحال، لذا يأخذونه ويحشرونه بين المجلدات ظنًا منهم أن لا أحد سيتمكن من إيجاده، ويعتزمون العودة من أجله عندما يتوفر لديهم المال لشراءه. ربما فعل أحدهم ذلك مع نسخة كروموبل الخاصة بك".

قال السيد ميفلين: "ربما، لكنني أشك في ذلك. أيقظتُ السيدة ميفلين لسؤالها عنه، قالت إنها لم تقم ببيعه هذا المساء. كانت تغفو فوق عدة الحياكة الخاصة بها على المكتب، لا بد إنها متعبةٌ من السفر".

قال بينسون: "أنا آسف لفقدانك نسخة كروموبل، هل تتذكر الاقتباس أو المغزى منه؟"

قال السيد ميفلين: "أعتقد أنني دونته في مكانٍ ما". واندفع قاصدًا أحد رفوف مكتبته وصاح فرحًا: "ها هو، لقد وجدته" وأخذ يقرأ بصوتٍ مرتفع: "حتى وإن دفنت أعمال الإنسان تحت جبالٍ من فضلات الطيور والبوم، لن تمحيها، لن تستطيع. حياة الإنسان استبسالٌ ونورٌ أبدي، وجود عظيم يُضاف إلى الأبدية ويبقى ما بقي الزمان".

تابع السيد ميفلين: "والآن يا أصدقائي، وبعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة. أرى أن بائع الكتب هو أحد المفاتيح في آلة الإدخال العالمية، لأنه يساهم في زيادة الإثراء المتبادل بين البشر والكتب. سعادته في أداء وظيفته لا تحتاج إلى التحفيز حتى من السيقان البراقة في لوحات كولز فيليبس".

قال جلادفيست: "عزيزي روجر، حماسك البرئ يذكرني بقصة توم دالي المفضلة عن القس الإيرلندي الذي كان يوبخ جماعته لحبهم الشديد للمشروبات الكحولية. كان يقول لهم: "الكحول هو هلاككم الحتمي، يسلب عقولكم. الكحول هو ما يجعلكم تطلقون النار على أصحاب الأراضي ولا توشكون حتى على إصابتهم!" وأنا أرى يا روجر أن حماستك تجعلك تطلق النار على الحقيقة، ولاتقترب منها حتى!"

قال ميفلين بغضب: "أنت يا جلادفيست كشجرة الأوباس[1]، حتى ظلك مسموم!"

قال السيد تشامبان: "حسنًا، أيها السادة، أنا واثق من أن السيدة ميفلين تريد أن تعفى من واجبها في مراقبة المحل. لذا أصوت لصالح تأجيل الجلسة. رغم استمتاعي بحواراتكم، إلا أنني لست متيقن من النتائج. ابنتي في طريقها لتصبح بائعة كتب، واتطلع لمعرفة وجهات نظرها حول المهنة".

---

(1) شجرة تتواجد في جنوب شرق آسيا، يُستخرج منها سم شديد الفعالية كان يستعمله السكان المحليون في تسميم سهامهم. (المترجمة).

عندما همّ الضيوف بالمغادرة، أخذ السيد تشامبان روجر جانبًا وبدأ بالحديث: "هل الوقت جيد الآن لإرسال تيتانيا؟"

قال الرجل العجوز: "بالطبع، متى ترغب بالقدوم؟"

قال السيد تشامبان: "هل الغد مناسب؟"

أجابه السيد ميفلين: "كلّما أبكرت بالقدوم كان أفضل، لدينا غرفة إضافية بالعلية بإمكانها البقاء بها. لديَّ بعض الأفكار من أجل الأثاث. لتكن هنا غدًا بعد الظهر".

3

وصول تيتانيا

لطقوس تدخين الغليون الأول بعد الإفطار أهمية قصوى لدى المدخنين المخضرمين. في الوقت الذي كان فيه روجر أسفل السلّم، وجّه شعلة قداحته نحو فوهة الغليون. وعندما وصل إلى أعلى درجات السلّم وجد أن غليونه أنطفأ. حينها فكّر بينه وبين نفسه "إن إنهماكي في إشعال غليوني وتدخينه ثم إشعاله مرةً أخرى، جعلني لا أصرف كثير وقتٍ لشؤون الحياة الجادة". ثم واصل التفكير بعمقٍ "بعد التفكير بالأمر أجد أن التدخين، والحديث مع الناس والإنصات لهم، وغسل الصحون بعد الأكل بها، يستهلك على أية حال القسط الأكبر من الحياة".

تفكيره بهذه النظرية أدخل السرور على نفسه، لذا هرع إلى الأسفل ليخبر السيدة ميفلين بما توصل له. قالت له "عُد إلى الأعلى وهيئ الغرفة كما يجب. ولا تحاول اقناعي بهذه الترهات في الصباح الباكر. فربات البيوت لاوقت لديهن لفلسفة مابعد الإفطار".

بدا روجر مستمتعًا للغاية بالمهمة الموكلة إليه، ألا وهي تحضير غرفة ضيفتهم المترقب وصولها. كانت حجرة صغيرة في نهاية الطابق الثاني. تطلُّ على ممر ضيق يتصل عبر بابٍ صغير برواق محل الكتب. نافذتان صغيرتان تطلان على الأسطح المتواضعة لمنازل أحياء بروكلين الفقيرة. هذه المنازل تحوي قلوبًا شجاعة، والكثير من عربات الأطفال، وأكواب قهوة سيئة المذاق، والكثير من كراتين خوخ تشابهان أيضًا.

صاح روجر من أعلى السلّم: "بالمناسبة، سيكون أمرًا لطيفًا لو قدمنا الخوخ على العشاء هذه الليلة، وذلك كتحية للآنسة تشابمان".

كتمت السيدة ميفلين ضحكتها في جوٍ تسوده الألفة. عندما كان بائع الكتب يلتقط الستائر القطنية المكوية حديثًا ليستبدلها بالستائر القديمة طرأت له فكرة ولمعت عيناه. قال بينه وبين نفسه: "سأضيف لمسةً شاعرية على هذا المنظر، فقط كي تدرك الفتاة اللامبالية أن جمال الوجود يكمن في التفاصيل".

بدت الحجرة في وضعٍ مثالي كما هو متوقع في منزل تشرف عليه السيدة هيلين، وذلك استعدادا لاستقبال مساعدتهم الشابة، لكن السيد ميفلين تطوع لإضفاء طابع نفسي معين والذي اعتقد إنه سينقل تأثيرًا إيجابيًا على الروح المضللة التي في طريقها لتصبح متدربته. أخذ السيد ميفلين مسؤولية إيواء وتدريب الفتاة مأخذًا جديًا للغاية، فقد كان مهووسًا بالكمال المرضي غير القابل للعلاج. كان هناك رف كتب ومصباح قراءة بجانب السرير. المعضلة التي واجهها السيد ميفلين هي نوعية الكتب والصور التي سيضعها وتكون بمنزلة الموعظة لتلك الفتاة. ولإرضاء السيدة ميفلين نزع صور الفارس جالاهاد[1] التي علقها من قبل هناك، لأنه وكما قال "لو كان جالاهاد حيًا اليوم لأصبح بائع كتب". كانوا قد تحدثوا على الإفطار عن الصور، قال للسيدة هيلين: "أنا لا أريد شغل مخيلة الفتاة بصور لفرسان جذابين، أود لها أن ترى لوحات تصور رجال حقيقيين كانوا محبوبين في الوقت الذي عاشوا فيه، لكنهم يفتقدون للجمال أو الجاذبية. وهذا كل ما ستراه الفتاة الشابة طوال مدة بقائها هنا حرصًا على مخيلتها. وبالتالي ستنفر من الجيل الحالي وستكون هناك فرصة حقيقية لها لتركز بتجارة الكتب وتتفرغ لها تمامًا".

---

(1) هو شخصية خيالية و فارس شجاع من اسطورة فرسان المائدة المستديرة. (المترجمة).

بناءًا على ذلك قضى بعض الوقت متأملًا صندوقه الخاص بالصور حيث يحتفظ بصور ولوحات لأدباء وناشرين معروفين. كان يحصل على هذه الصور باستمرار

ووفرة كونه بائع كتب. وبعد عدة دقائق من التأمل تجاهل صور هارولد بيل رايت وستيفن ليكوك، واختار صورا لشيللي وأنتوني ترولوب وروبرت لويس ستيفنسون وروبرت بيرنز. بعد مزيد من التأمل، قرر انه لا شيللي ولا بيرنز سيفعلان شيئًا في غرفة فتاة صغيرة، وضعهما جانبًا وقرر وضع لوحة لصموئيل بتلر. أضاف إلى الصور نصًا مؤطرًا أقتصه من صحيفة ما ولشدة إعجابه به كان يضعه كزينة على مكتبه. قرأ النص:

حال إعادة الكتاب المستعار سليمًا.

أتقدم بشكر متواضع وصادر من أعماق قلبي لعودة كتابي سليمًا، كتابي الذي تحمل مخاطر خزانة كتب صديقي، وخزانة كتب صديق صديقي، الآن عاد إليَّ وهو بحالة جيدة.

أتقدم بشكر متواضع وصادر من أعماق قلبي لصديقي الذي لم يعطِ كتابي لطفله ليلعب به، ولم يستخدمه كمنفضة سجائر.

عندما أعرت كتابي اعتبرته في عداد المفقودين وذقت مرارة الفراق لم يخطر لي أنني سأرى صفحاته أو ألمسها مرةً أخرى.

لكن الآن ها هو كتابي بين يدي، وأنا مفرطٌ ببهجتي وسروري!

سأعيد تغليف هذا المجلد وأضعه على رف الشرف: فكتابي كان مفقودًا واستعدته الآن.

ومن أجل ذلك، سأعيد بعض الكتب التي قمت باستعارتها أنا شخصيًا عما قريب.

صاح ميفلين: "نعم، هذا النص سيرشدها إلى المبدأ الأول في أخلاقيات الكتب".

بعد أن أنهى تزيين الجدران قال لنفسه: "والآن نأتي للمهمة الأصعب ألا وهي نوعية الكتب التي سأضعها على الرف. هذا السؤال يتطلب دقة قصوى في البحث. بعض أصحاب الكتب يرون أن أفضل كتب توضع بجانب السرير هي تلك الكتب التي لها تأثير مهدئ على الأعصاب وتقود قارئها لعالم الأحلام بخفةٍ وراحة. مثل ثروة الأمم لآدم سميث، أو مؤلفات وليام رالف انغ، أو مختارات من روايات هنري جيمس، أو رسائل الملكة فكتوريا (ثلاثة مجلدات). لكن هذه الكتب لا يمكن أن تُقرأ في وقتٍ متأخر في الليل لأكثر من بضع دقائق، لذا قارئها يحصل على أنصاف المعلومات المفيدة فقط. وهناك فريق يوصي بقراءة القصص القصيرة والحكايات الفصيحة ما قبل النوم، أشياء تبدو مشوقة وبراقة، تبقيك مستيقظًا لبعض الوقت لكنك ستغط في سباتٍ عميق بعد الإنتهاء منها. حتى قصص الأشباح وقصص الرعب بدت مناسبة للقراءة في السرير وفقًا لهولاء المثقفون. فقائمتهم القرائية تتضمن مؤلفات كلًا من أولفير هنري، وبريت هارت، وليونارد ميريك، وأمبروز بيرس، ووليام جاكوبس، وألفونس دوديه، و غي دو موباسان، وحتى المسرحيات الفاحشة كانت ضمن القائمة، وكما قال الكاتب توماس جاكسون عن هذه المسرحيات "سيستمر بيع هذه الكتب للأبد، ولألفي عام بعد ذلك". هناك أعمال أخرى لجاكسون، والتي انسلت عناوينها من ذاكرة الرجل العجوز. كان أشد ما يغضبه هو أن يأتي قارئ للمحل ويطلب نسخة من هذه الأعمال، يشعره ذلك بالحنق الشديد. مرةً من المرات وخلال أعياد الميلاد أهداه صهره أندرو ماكغيل (متعمدًا لأزعاجه) مسرحية لتوماس جاكسون. وكردٍ من السيد ميفلين أرسل له بيوم ميلاده مجلدين لوليام كوبر بران". نظرًا لأهمية الكتب الموضوعة على الرف لدى الرجل العجوز، كان قد كرّس

ساعات صباحه البهيج في بحث الموضوعات المناسبة. دعته السيدة هيلين عدة مرات للنزول للأسفل والأهتمام بالمحل، لكنه كان يجلس على الأرض بساقين مخدرتين غير مدرك لما يدور من حوله. منصبٌ اهتمامهُ على المجلدات التي بنظره أرتقت بما يكفي لتكون ضمن التصفيات الأخيرة. حدّث نفسه: "يا له من إمتياز، أن يكون لديّ عقل غر قليل الخبرة، واستطيع تغذيته بما أراه مناسبًا. زوجتي المخلوق اللطيف، التي كافئني حظي الجيد بها، عندما التقيتها كانت ناضجةٌ تمامًا ولم يتسنى لي الإشراف المناسب على قراءاتها أو توجيهها في هذا الجانب. لكن ابنة تشابمان ستكون أشبه بالعجينة اللينة وسأشكلها كما هو مطلوب. قال والدها انها ارتادت مدرسة فتيات مسايرة للموضة، وهذا بمثابة الضمان المؤكد أن خلايا عقلها لم يتم تحفيزها من قبل. سأختبرها (دون علمها بذلك) من خلال الكتب التي سأضعها على الرف. وأرى ما يقع اختيارها عليه، ومن هذا المنطلق استكمل اختباري. ربما يجدر بي أن أغلق المحل يومًا في الأسبوع لأحاديثها أحاديث قصيرة عن الأدب. هذا لطيف! سأفكر في الأمر، ربما أحاديث جدية عن تطور الرواية الأنجليزية. حسنًا، لطالما تقت لأصبح معلمًا، وهذه تبدو كفرصة حقيقية. ربما نخبر الجيران أننا نود استضافة أطفالهم مرةً في الأسبوع، ونبدأ مشروع مدرسة صغيرة. الأمر سيكون أشبه بدردشات الأثنين، مرحى! سأكون شارل أوغستان سانت ـ بوف[1] لمدينة بروكلين".

ومض خيالٌ كالبرق أمام الرجل العجوز لقصاصات صحف كُتب فيها: "هناك طالب أدب لافتٌ للنظر، اعتاد أن يخبئ عبقريته في متجرٍ للكتب المستعملة، أصبح الآن معروفًا باسم..". صاحت السيدة ميفلين مقاطعةً خياله الخصب: "روجر!" مناديةً إياه من أسفل السلالم: "هناك من يسأل

(1) شارل أوغستان سانت ـ بوف، كاتب وناقد فرنسي، أسس مجموعة كانت مهد الحركة الإبداعية الفرنسية. (المترجمة).

أن كنت تحتفظ بأرقامٍ للقصص المتسلسلة". بعد أن تخلص من المتطفل الذي دخل محله وقطعه عن خيالاته اللذيذة. عاد روجر إلى تأملاته، وحدّث نفسه: "هذه مجموعتي الأولية، ستكون بمنزلة الاختبارالأولي لها، لمعرفة النوع الذي يثيراهتمامها. في البداية اسمها تيتانيا يوحي لي بطبيعة الحال بشكسبير والعصرالإليزابيثي. تيتانيا تشابهان اسمٌ غريب للغاية؛ لا بد أنه ثمة ميزة عظمى لتجار الخوخ! لنبدأ بمجلد لكريستوفر مارلو. ثم جون كيتس، أعتقد أن جميع من قرأ قصيدة سانت أغنيس[1] في ليالي الشتاء الباردة، لا بد وأنه أحسَّ بالرجفة تسري في عظامه. ورواية قرية بيمرتون لإي. في. لوكاس، بالتأكيد لأنها تدور حول متجر كتب. والسيرة الذاتية ليوجين فيلد لأختبر حس الفكاهة لديها. وأخيرًا قصص دون ماركيز[2] الخيالية، سأذهب لأحضرها من الأسفل". تجدر الإشارة إلى أن روجر كان من أشد المعجبين بدون ماركيز، الفكاهي والكاتب في صحيفة نيويورك. كان قد عاش لفترة في بروكلين، وبائع الكتب ما أنفك يردد ذلك إنه أكثر كاتب تشريفًا لبروكلين بعد والت وايتمان. احتفظ السيد ميفلين بجميع قصاصات الصحف لآرتشي[3]، الصرصور الخيالي، والذي كان يستخدمه الدون ماركيز كعربة نقل لإضافة المزيد من المتعة على حكاياته. خرج الدب الضخم من مغارته، وعاد لمكتبه حيث يحتفظ بالكنز العظيم. سمعته السيدة ميفلين وهو يقهقه بصوتٍ مرتفع جدًا. قالت: "ما الذي يجري يا روجر؟"، قال: "لا شيء، وجدت قصاصات آرتشي" وبدأ يقرأ بصوتٍ مرتفع:

---

(1) هي قصيدة سردية رومانسية من 42 مقطعًا سبنسريًا في العصور الوسطى. كتبها جون كيتس في عام 1819 وتم نشرها في عام 1820. (المترجمة).

(2) دون ماركيز هو شاعر، ومؤلف، وكاتب سيناريو، وكاتب، وصحفي أمريكي، كان عضوًا في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب. (المترجمة).

(3) آرتشي هو أسم لشخصية خيالية لصرصور ابتدعها دون ماركيز في عام 1916. (المترجمة).

أسفل المدينة في سردابٍ للخمور
كهلان بثيابٍ رثة ومعاطف رديئة
منظرهما لا يبعث على السرور
يتدثران بلحاهم وشعورهم القميئة

في الشارع الراقي السيارات تمرُّ وتمرّ
تضجُّ بالعوائل المرحة والسعيدة
يتطلع الصيادون لليابسة بكل صبر
متشوقين إلى الأحتفال بالأعياد المجيدة

أرادت فتاة تقبيل جدها قبلة النوم
بينما جدّها مسرفٌ بشرب الخمر
قالت له هيا قبّل أميرتك الصغيرة
زجرها بغلظة شديدة وقلة صبر

قالت السيدة ميفلين بنفاد صبر: "يا إلهي، ما المضحك في هذا؟ الفتاة المسكينة، هذا فظيعٌ حقًا".

صاح الرجل العجوز قائلًا: "هناك المزيد". وهمّ بترديد المزيد من الأشعار لكن السيدة هيلين قاطعته.

قالت: "كفى، لا أريد الاستماع إلى المزيد من هذا، سأذهب إلى السوق.

إن رنّ جرس المحل سيتحتم عليك النزول إلى الأسفل".

أضاف روجر قصاصات آرتشي إلى مجموعة الكتب، التي وضعها على الرف بجانب سرير تيتانيا. وأخذ يراجع مجموعته مرةً أخرى. وقع بصره على رواية جوزيف كونراد "زنجي نارسيسوس" وحدّث نفسه: "حتى لو لم تقرأ العمل، ربما تقرأ المقدمة وستدرك انها رواية من أرض المعاناة تخلو من قصص الأمراء وقصورهم الفخمة. رواية تشارلز ديكنز "ترنيمة عيد الميلاد" ستكون بمثابة المقدمة لروايته الأخرى "السيدة ليربير"، صاحبة الأراضي والعقارات. أخبرني الناشرون أن شارع نورفلوك يشتهر بوجود مكتب أشهر عميل في الأدب، لكنني أتسائل كم منهم يعلم أن مسكن السيدة ليربير الدائم كان هناك؟ مذكرات صموئيل بتلر، فقط لأعطيها مقدمة فكرية عن السير. رواية "الصندوق الخاطئ" لأنها أفضل رواية هزلية ساخرة في اللغة. رواية "السفر مع الحمار"، فقط لأريها كيف تكون الكتابة الجيدة. و"فرسان رؤيا يوحنا الأربعة" من الكتاب المقدس، وذلك لتكتسب حسًا من الحنو والعطف الإنساني، بالرغم من انه كتاب رحراح ومضجر لفتاة يافعة. أظن أني سأضعه جانبًا وأتفحص باقي المجموعة. كتالوجات توماس بيرد موشر[1]، حسنًا! هذا سيريها ماهية ما يطلق عليه محبي الكتب السعادة الحقيقية. هناك المزيد من الكتب الجيدة حولي. ملف ضخم يزخر بنسخ بابليشرز ويكلي[2]، وذلك لإعطائها لمحة عن شؤون العمل. رواية لويزا ماي ألكوت "أطفال جو" لتساعدها على الأسترخاء. "أناشيد روما القديمة" وقصائد هنري أوستن دوبسون لأريها بعضًا من الشعر الجيد.

---

(1) أصدر موشر 31 كتالوجًا من 1923-1893 تحتوي على بعض من أفضل الأعمال وأكثرها جاذبية، سواء من المنظور الأدبي بنظر موشر، ومن زاوية التصميم الجرافيكي.

(2) بابليشرز ويكلي ؛ هي مجلة أسبوعية أمريكية، تصدر في نيويورك، وتستهدف الناشرين وأمناء المكتبات وبائعي الكتب والوكلاء الأدبيين.

أتسائل أن كانوا يدرسونهم أناشيد روما في المدارس هذه الأيام؟". نظر إلى الرف بفخر وقال: "ليس سيئًا. سأضيف عمل ليونارد ميريك "همسات نسائية" لتسليتها. أراهن على أن العنوان سيثير فضولها. هيلين تقول انه يتوجب علينا وضع الكتاب المقدس على الرف، لكني سأخفيه متعمدًا لأرى هل ستفتقده أم لا". وبالفضول الذكوري المعتاد سحب الأدراج السفلية للخزانة ليرى ترتيب زوجته لها، وأحسَّ بالسرور لأنه وجد كيس لافندر في كل درج من أدراج الخزانة والرائحة الزكية تفوح منها. قال باهتمام: "يا له من أمر لطيف، لطيف جدًا في الواقع! لكن المفقود هنا هو منفضة السجائر. لو كانت السيدة تيتانيا شخص عصري كبقية فتيات جيلها، فأن أول ما ستأسل عنه هو المنفضة. وقصائد عزرا ويستون لوميس باوند[1]. آمل انها ليست مزاجية أو مشحونة كما ترجّح هيلين".

توقفت سيارة أجرة صفراء عند الركن القصي لشارع غيسنغ في وقت مبكر بعد ظهر ذلك اليوم. ترجل سائق بزي أخضر، فتح باب المركبة وأخرج شنطة من الجلد البني الفاخر، وقدّم يده باحترام إلى السيدة التي خرجت من المقاعد ذات اللون الليلكي. قائلًا: "أين أضع هذه الحقائب يا سيدتي؟" أجابته تيتانيا: "هذا هو الجزء الساخر في الموضوع، أنا أود إبقاء عنواني سرًا. سيسعى أصدقائي خلفك ويخرجوه عنوةً منك، وأنا لا أريدهم أن يأتوا إلى هنا ويضايقوني. سأكون غارقةً في شؤون الأدب تمامًا. سأكمل طريقي لوحدي". أنحنى السائق بأحترام – فهو يقدس سيدته الشابة – وهم بالرجوع إلى مركبته. قالت له تيتانيا: "هناك أمر واحد أريده منك، أتصل بأبي

---

(1) عزرا ويستون لوميس باوند (بالإنكليزية: Ezra Weston Loomis Pound) شاعر و ناقد أمريكي مغترب، اعتبر أحد أهم شخصيات حركة شعر الحداثة في الأدب العالمي في أوائل وأواسط القرن العشرين.

واخبره أنني وصلت إلى وجهتي". قال السائق إدوارد: "أمرك يا سيدتي". كان ليصطدم بسيارة مملوكة للحكومة لو أمرته سيدته بذلك.

حقيبة لافتةٌ للنظر معلقةً على رسغ الشابة، يظهر منها قفازين وسلسلة لامعة. مظهرها الأخاذ دلّ على شخصية أنيقة تأخذ الاهتمام بهندامها على محمل الجد. تأكدت من مغادرة إدوارد للشارع. وغيرت مسارها نحو شارع غيسنغ بخطوات منتظمة وبعينٍ شديدة الملاحظة والانتباه. صاح طفلٌ صغير: "هل أحمل حقائبك سيدتي؟" كانت على وشك الموافقة لكن تذكرت انها ستحصل على عشرة دولارات فقط في الأسبوع ولا تريد تبديدها على أمورٍ تافهة. سيشعر القراء بامتعاضٍ مبرر لو لم نقم بوصف الفتاة اليافعة، ولهذا سنستغل مرورها بشارع غيسنغ لهذا الغرض. من يراقبها يرى أن فستانها مصمم بعناية من النسيج القطني الخشن: حذائها البني مرتفع ليغطي كاحل القدم، وكتفيها يحملان فروًا باهظ الثمن. بشرتها خمرية شاحبةٌ قليلًا، بنيتها الجسدية تبدو ضئيلة لكنها مفعمة بالحيوية. لعينيها نظرة زرقاء غنية مع وجه صغير حازم. الذقن والخدين ينتميان إلى الفئة العادية لا شيء مميز بهما. شعرها شديد اللمعان وكأن ضوء الشمس حُبس في جديلتها. تزيّن يدها ساعة معصم بلاتينية. شارع غيسنغ الآن أصبح على بعد خطوات فقط. أغذت الخطى نحو المتجر، دُهش روجر لرؤيتها هو الذي كان لديه تصور مسبق سيئ عن الفتاة.

قالت: "هل أنت السيد ميفلين؟"

أجابها وأخذ الحقائب منها، ونادى السيدة هيلين بصوتٍ مرتفع قائلًا: "هيلين، السيدة الجميلة تيتانيا وصلت".

تطلعت الفتاة من حولها بفضول وقالت: "اعتقد انه من الرائع أن تستقبلوني لديكم، أبي اخبرني الكثير عنك. هو يقول أيضًا أني صعبة المراس.

أفترض أن هذا هو الأدب الذي تحدث عنه، أريد أن أعرف كلّ شيء عنه. وها هو بوك! أبي يقول: إنه أعظم كلب في العالم، سُمِّي على اسم شاعر ما. أحضرت له هدية، إنها في حقيبتي، يا لك من كلب لطيف!" بوك كان يراقبها بصمت.

قالت السيدة ميفلين" عزيزتي كم تسرّنا رؤيتك، أرجو أن تستمعي بإقامتك معنا. رغم أنني أشك في ذلك فقد تجدين صعوبة في الانسجام مع روجر".

صاحت تيتانيا: "بالطبع، سأستمتع أيّما استمتاع، متأكدة من ذلك! وأرجوكم لا تأخذوا كلام أبي بشأني على محمل الجد. فأنا مغرمةٌ بالكتبِ تمامًا، ولا أعرف كيف لك أن تتحمل بيعها يا سيد ميفلين، أحضرت لكِ البنفسج يا سيدتي".

قالت السيدة ميفلين: "كم هو لطيفٌ منكِ، هيا، لنضعهم في الماء، وأريكِ غرفتك".

رآهما روجر يصعدان إلى غرفة تيتانيا. نظر من حوله، وفجأة خطر له أن المكان كئيبٌ جدًا لفتاة يافعة، وحدّث نفسه: "ليتني أقتنيت ماكينة صرافة، ستظن أنني بخيل وغير عملي الطابع بلا شك". وقطع تأملاته وصول السيدتين من الطابق العلوي قالت السيدة هيلين: "حسنًا، سأعدُّ بعض الحلوى، وهذا يعني أنني سأسلمك متدربتك الجديدة يا روجر. سيأخذك في جولة لاستطلاع المحلّ ويخبرك عن أماكن الكتب".

قالت تيتانيا: "قبل أن نبدأ، دعوني أعطي بوك هديته. كنت أتناول غدائي في مطعم شيري، وسألت النادل أن يخبأه من أجلي". وتحت طبقة من المناديل الورقية الكثيفة كان هناك عظمٌ كبير.

قالت السيدة هيلين: "هلمي إلى المطبخ وأعطيه لبوك، ستصبحين

صديقته المفضلة للأبد".

صاحت تيتانيا باندهاش عندما رأت مكان بوك: "يا له من وجارٍ رائع الذي يسكنه بوك!" لقد هندسه بائع الكتب ليشبه مكتبة كارينجي، مع لافتة فوق المنزل كُتب عليها "غرفة القراءة"، ورسم على الرفوف كتب وهمية على طول الجدار الداخلي.

قالت السيدة هيلين موجّهة الحديث لتيتانيا: "ستعتادين على روجر بمرور الوقت، لقد أمضى شتاءً كاملًا وهو يزيّن منزل الكلب. حتى ظننت إنّه سيقيم فيه بدلًا من بوك".

انحنت تيتانيا لتنظر داخل منزل الكلب، أحسّ بوك بالسعادة جراء الاهتمام الذي تغمره به الوافدة الجديدة. قالت تيتانيا: "مذهل! رسم على الرف رباعيات الخيام، يا له من أمرٍ عبقري".

قالت هيلين: "هناك المزيد من هذا، الربّ وحده يعلم، لو كان روجر يهتمّ بالمحل نصف اهتمامه بهذه الترهات لكنا أثرياء بحقّ، الآن اذهبي أنتِ واستطلعي المحل".

وجدت تيتانيا بائع الكتب خلف مكتبه وقالت: "ها أنا ذا سيد ميفلين، أحضرت معي قلم رصاص لأسجّل قسائم التنزيلات. لقد تدرّبت على فعل هذا عدة مرات، يمكنني أن أفعل ذلك بشكل جيد الآن. آمل أن يكون لديك قليل من الكتب الحمراء الكبيرة مع أوراق الكربون وكل شيء. لقد رأيت الفتيات في محل لورد اند تايلور يقمن بصنعها، وأعتقد أنهم رائعون للغاية. كما أودّ منك تعليمي كيفية استخدام الرافعة، فأنا شديدة الحرص على تعلم أستخدامها".

قال السيد ميفلين بدهشة وذهول: "يا إلهي، ستجدين الوضع هنا مختلفًا تمامًا عن محل لورد اند تايلور! لا تتوفّر لدينا هنا ماكينة صرافة أو رافعة ولا

حتى قسائم مبيعات. كما أننا لا نزعج الزبون بالذهاب إليه، وهو يتجول في المحل إلا إذا طلب منّا المساعدة نقوم بخدمته حينها. يأتي الزبائن إلى المتجر ويتصفحون الكتب كما يطيب لهم، وإذا ما راق لهم كتاب ما يأتون إلى مكتبي ويسألوني عنه. السعر مدونٌ على كلِّ كتاب باللون الأحمر، يقبع صندوق النقود على هذا الرفّ ومفتاحه معلق بهذا الكتاب الصغير.عندما تقومين ببيع كتاب ما ينبغي عليك حينها كتابة عنوان الكتاب والسعر في هذا الدفتر".

قالت تيتانيا: "وفي حال قدّم لي أحدهم شيكًا؟"

قال الرجل العجوز: "هنا الدفع نقدًا فقط، إذا قدم أحدهم لبيع الكتب ترشدينه إلى مكاني. ولا تستغربي إن مكث زبون يقرأ لساعات في المتجر، فمعظمهم ينظرون إليه كنادي أو تجمع من نوع ما. أرجو ألا تضايقك رائحة التبغ، فالزبائن هنا يدخنون بشراهة. وضعت منفضة للسجائرِ في كلِّ زاوية كما ترين".

قالت تيتانيا: "أحبُّ رائحة التبغ، تذكرني بمكتبة أبي في منزلنا. لكنها ليست قوية كما هو الحال هنا، أودّ أن أرى أولئك الذين يُطلق عليهم لقب دودة كتب، أبي يقول: إنهم يتوافدون إلى متجرك بكثرة".

قهقه روجر وقال: "حسنًا، سترينهم، يغدون هنا وهناك. غدًا سأريكِ كيف أرتب بضاعتي، الأمر معقد، سيأخذ وقتًا منك لتعتادي عليه. حتى ذلك الحين أريد منك التجول في أرجاء المحل والنظر إلى الكتب بعناية بالغة، إلى أن تحفظي أماكنها على الرفوف بدقة، حتى لتستطيعي إخراجها في الظلام لو طلبت منك ذلك. هذه لعبة اعتدت أنا وزجتي لعبها في السابق، نطفئ جميع الأضواء، وأختار عنوان كتاب عشوائيًا، وأرى إلى أيّ مدى تقترب من إيجاده. إذا كان أيٌّ منّا بعيد عن الكتاب بمقدار ست بوصات أو أكثر، يتعين

علينا دفع غرامة حينها. إنها لمتعةٌ عظيمة".

صرخت تيتانيا: "أيُّ متعة سأحظى بها! أعتقد أن هذا المكان مليئًا بالحيل والمكائد".

قال روجر: "هنا لوحة الملاحظات، حيث أعلق بطاقات ملاحظات حول الكتب التي تثير اهتمامي، هذه بطاقة كتبتها للتو".

قرأت تيتانيا:

الكتاب الذي كان عليه منع الحرب

بما أن الحرب انتهت الآن، أرى أنه وقتٌ جيد لقراءة مسرحية توماس هاردي "العائلات الحاكمة"[1]. إنها بمنزلة الكنز العظيم لديَّ، لذا لا أرغب ببيعها، لكن إذا ما تعهد أحدهم بقراءة المجلدات الثلاثة قراءة متأنية سأفكر بإعارتها إياه. لو قرأ الألمان هذا الكتاب قبل عام 1914 لما وقعت الحرب، ولو قرؤوه في كل جلسة من جلسات مؤتمر السلام لن تكون هنالك أية حروب قادمة.

روجر ميفلين

قالت تيتانيا: "يا إلهي، هل هذه المجلدات بالغة الأهمية كما وصفتها؟ ربما يجدر بي قراءتها".

جاوبها روجر: "نعم، إنها مهمة للحد الذي جعلني ألحُّ وبإصرار شديد على القبطان ويلسون ليقرأها خلال رحلاته إلى فرنسا. كم أتمنى لو يتسنى

---

(1) The Dynasts هي مسرحية باللغة الإنجليزية تحكي عن العائلات الحاكمة كتبها توماس هاردي. وصف هاردي هذا العمل بأنه "مسرحية ملحمية للحرب مع نابليون" في ثلاثة أجزاء ومئات المشاهد. (المترجمة).

لي وضع نسخة من المجلدات على متن سفينته. يا إلهي يتعذر وصف هذا الكتاب، يشعر المرء وهو يقرأ هذا العمل بالشفقة والفزع في الوقت ذاته. أستيقظ في أثناء الليل، وأنظر من النافذة ويخيّل إليَّ سماع قهقهات توماس هاردي. فأنا أخلط بينه وبين المعبود الذي أخشاه، لكني أظن أنّه كتاب قد يبدو لك غائم الملامح قليلًا".

أصيبت تيتانيا بالحيرة بعد تعليق روجر الأخير، ولم تعلّق. لكنّها كتبت ملاحظةً خيالية في عقلها مفادها: مؤلفات توماس هاردي، صعبة القراءة، وستشعرني بالمرض، سأجربها.

قال روجر: "هل أعجبتك مجموعة الكتب التي وضعتها بجانب سريركِ؟" كان يريد انتظارها حتى تدلي ببعض التعليقات من تلقاء نفسها دونما سؤال. لكنهُ لم يقوَ على كبح جماح نفسه.

قالت تيتانيا: "في غرفتي؟ آسفة لم ألحظ وجودها حتى!"

مكتبة
t.me/t_pdf

4

المجلد المفقود

قال روجر لزوجته بحماسة: "آن الأوان لنعرّف الآنسة الصغيرة على عادتنا المسائية، ألا وهي القراءة بصوتٍ مرتفع. ما قولك في ذلك؟"

السيدة ميفلين: "سيشعرها ذلك بالضجر حتمًا".

صرخت تيتانيا بسرور: "بل سأحب ذلك جدًا! لم يسبق لأحدهم القراءة لي، ليس منذ الطفولة كما أتذكر".

قالت هيلين لروجر لتغيظه فحسب: "سأصطحب تيتانيا لمشاهدة فيلم طرزان، بينما تمكث أنت هنا لتراقب المحل، ما رأيك بذلك؟"

بغض النظر عن الحماسة التي شعرت بها الفتاة. فقد أحست من خلال النظر لوجه روجر المتجهم، أنها لو فعلت فذلك من شأنه أن يكسر قلب الرجل العجوز. لذا قالت مشفقةً عليه: "رباه، تعنين فيلم جون بوروز وكلّ تلك الأشياء عن الطبيعة؟ يبدو مملًا للغاية. لندع السيد ميفلين يقرأ لنا، سأذهب وأحضر عدة الحياكة الخاصة بي".

قالت السيدة هيلين: "آمل ألّا تمانعي حين تتم مقاطعتك، يتعين على السيد ميفلين النزول إلى المتجر إذا رنَّ الجرس".

قالت تيتانيا: "أنا من عليه تولي ذلك، عليَّ أن أكسب قوتي كما تعلمون".

قالت السيدة هيلين: "حسنًا، لندع الآنسة تستقر وتقرأ كتابًا ما، بينما نتعاون في غسل أطباق العشاء".

لكنّ الحماسة كادت أن تقتل روجر ليبدأ بالقراءة بصوتٍ مرتفع: "لماذا لا نرجئ غسل الأطباق هنيهة، لنحتفل فحسب".

قالت تيتانيا بإصرار: "دعوني أساعدكم رجاءً، أظنُّ أنني سأستمتع بغسيل الأطباق".

صاحت السيدة هيلين: "لا، قطعًا لا، ليس في يومك الأول. سننتهي أنا والسيد ميفلين على وجه السرعة".

قام روجر بوضع الفحم في الموقد وأعاد ترتيب الكراسي. أعطى تيتانيا نسخة من "فلسفة الملابس" لتوماس كارلايل، ومن ثم ذهب إلى المطبخ ليساعد زوجته. سمعت تيتانيا أصوات الأطباق الفخارية وهي تلقى بحوض المغسلة، ومن ثم صوت الماء. تناهى إلى مسامعها حديث روجر وهو يقول: "الأمر الجيد في غسيل الأطباق هو تيقنك من نظافة يدك يقينًا لا يخالطهُ شك، إنه تأثير الأدب على بائع الكتب!"

أعادت تيتانيا نسخة "فلسفة الملابس" إلى الرف بعد أن قامت بما يطلق عليه "قراءة سريعة لمحتويات الكتاب"، قرأت بضع صفحات لا أكثر. لمحت على الطاولة أمامها صحيفة مورينج تايمز[1]، التقطتها بسرعة وراحت تقرأ قسم المفقودات باندفاع شديد، فقد أضاعت دبوسًا من اللؤلؤ صغير الحجم مؤخرًا. رأت التالي في قسم المفقودات:

- مرحاض.
- طقم أسنان.
- نسخة رواية "أوليفر كروميل" لتوماس كارلايل، فُقدت في شارع

---

(1) Morning Times the هي صحيفة صباحية تنشر من الاثنين إلى السبت في ساير، بنسلفانيا. تخدم الصحيفة، بنسلفانيا ونيويورك. (المترجمة).

غيسنغ - فندق أوكتاغون، على من يجدها إعادتها إلى مساعد الطاهي في الفندق.

صرخت تيتانيا عند قراءتها اسم الشارع: "يا إلهي، فقدت في شارعنا هذا!"عندها انضمّ إليها السيد والسيدة ميفلين، فقرأت الإعلان عليهما بحماسة شديدة.

قال السيد ميفلين وقد أثار اهتمامه هذا الإعلان للغاية: "يا له من أمر غريب! هنالك أمر مريب حول هذه الرواية. ألم أخبركِ عنه بعد؟ في الثلاثاء الماضي، أتذكر هذا اليوم جيدًا، حين زارني جيلبرت -فتى الإعلانات- أتاني رجل ذو لحية كثيفة، وطلب مني نسخةً من الرواية، ولم أتمكن من إيجادها وقتئذٍ. في الليلة التالية بقيت مستيقظًا لوقتٍ متأخر أكتب، ولا بد أنني غفوت على المكتب سهوًا. أيقظتني ريح باردة عصفت بالمكان. وجدت حينها باب المحل مواربًا بعض الشيء، والكتاب متزحزح عن مكانه بمقدار ست بوصات ممّا أثار استغرابي. وفي الليلة الماضية، عندما اجتمع أعضاء نادي الذرة هنا، ذهبت للمحل لآتي به، لكنه كان قد اختفى كرةً أخرى!"

قالت تيتانيا: "ربما سرقه مساعد الطاهي؟"

قال روجر: "لنفترض أن اتّهامك صحيح، أليس من البلاهة أن يخبرنا عن ذلك؟!"

قالت هيلين: "حسنًا، إذا كان هو من سرق الرواية، أرجو أن يستمتع بقراءتها. حاولت مسبقًا، فقد أسرف روجر في مدحها كثيرًا، لكنني وجدتها باعثةً على الضجر".

صرخ روجر: "إذا كان هو من قام بسرقتها، فأنا سعيدٌ للغاية. هذا يثبت أنّ مزاعمي حقيقية؛ الناس تهتم بالكتب الجيدة. إذا كان مساعد الطاهي مولع بالكتب الجيدة للحد الذي يدفعه لسرقتها، فالعالم إذن مقبل على

الدولة الديمقراطية. عادةً ما تسرق الكتب خاوية المضمون المملوءة بالهراء فقط، مثل "اجعل الحياة تستحق العيش" لدوغلاس فيربانكس، أو كتاب "نبوءة الأم شيبتون"[1]. لا أمانعُ سرقة الكتب إذا كانت كتبًا جيدةً تستحق السرقة!"

قالت هيلين لتيتانيا بسخرية: "أترين هذه المبادئ الرائعة التي تحكم العمل؟". بينما جلستا قرب الموقد، وهما ممسكتان إبر الحياكة تتبادلان الأحاديث، ذهب روجر ليرى إذا ما عاد الكتاب إلى رفوفه بطريقةٍ ما.

وعندما عاد إليهنّ قالت هيلين: "هل وجدته؟"

أجابها روجر: "كلا، لم أجده". والتقط الإعلان مرةً أخرى وتابع: "أتساءل لماذا يريد عودة الكتاب يوم الثلاثاء قبل منتصف الليل؟"

أجابته هيلين: " ليقرأهُ بالفراش كما أعتقد، ربما يعاني من الأرق".

قال روجر: "يا له من أمر مؤسف! فقدهُ قبل أن يتمكن من قراءتهِ. أودّ أن أعرف رأيه بالكتاب، أُفكّر مليًا بالذهاب إلى الفندق ومقابلته".

قالت هيلين: "قم بخصم الأرباح والخسائر وانسَ ذلك، ماذا عن القراءة بصوتٍ مرتفع؟"

تفحص روجر رفوف مكتبته الخاصة بحماسة بالغة، وأخرج منها مجلدًا باليًا. وقال: "الآن بما أن عيد الشكر قد انقضى، لا أستطيع التفكير إلا بأعياد الميلاد، وأعياد الميلاد تعني تشارلز ديكنز. عزيزتي، هل يضجرك إن قرأت لكِ قصص أعياد الميلاد العتيقة؟"

---

(1) mother shipton الاسم الحقيقي أورسلا سوزيل، ادعت النبوة، نُشرت لها كتب كثيرة وتعويذات سحرية وتنبؤات وسيرة ذاتية، توقعت أحداث كثيرة مثل حريق لندن و واقعة الوباء الكبير عام 1665 لذا اشتهرت وذاع صيتها بعد وفاتها بثمانين عامًا.

رفعت السيدة هيلين يديها بغضبٍ وسخرية، ووجهت حديثها لتيتانيا: "يقرأ لي قصص أعياد الميلاد ذاتها في هذا الوقت من كل سنة. مع ذلك أرى أنها تستحق وقتك، أنا أعرف السيدة ليريبير أكثر مما أعرف أصدقائي المقربين".

قالت تيتانيا: "هل تعنون ترنيمة عيد الميلاد؟ أُجبرنا على قرائتها في المدرسة".

قال روجر: "كلا، أعني القصص الأخرى. يقرأ الجميع ترنيمة عيد الميلاد حتى يتشربونها لكن لا أحد يقرأ بقية قصص ديكنز. أؤكد لك أن أعياد الميلاد لا تكون أعيادًا بالنسبة لي دون قراءة تلك القصص كلَّ عام. إنها تشعرنا بالحنين إلى الماضي والأيام الجميلة. عزيزتي عندما أقرأ لتشارلز ديكنز أحصل على رؤى نادرة، فلا أحد يجيد الوصف كما يفعل هو. عندما انتهى العصر الفيكتوري لم يعد العالم كما كان. سائقو عربات الخيل على سبيل المثال، كانوا شعلة من النشاط والحيوية! وماذا لدينا نحن لنقارنه بهم؟ سائقو الباصات أم سائقو سيارات الأجرة؟ لا يمكنك حتى الحصول على وصفٍ دقيقٍ لهم كما فعل ديكنز مع سائقي العربات فهم كثيرو الحركة والتنقل".

قاطعت هيلين حديثه ذا الشجون عن تشارلز ديكنز وقالت: "عزيزي روجر، هلّا بدأت بالقراءة لنا؟"

أشعل روجر غليونه وهيأ نفسه باستمتاع تام. وأخذ يقرأ عن الشخصية الشهيرة، الكاتب "كريستوفر مورلي" الساقي، والعزيز على قلب كل محب للحانات. بدأ بقوله: "كاتب هذه السطور المتواضعة كان يعمل في حانة للخمر". بدأت السيدات بالحياكة تزامنًا مع بداية روجر بالقراءة، حيث كان بإمكانك رؤية إبر الحياكة تصعد وتهبط بشكلٍ دؤوب. الكلب بغريزته علِم أنه حان وقت النوم، مدد عضلاته باسترخاءٍ جلي، وشعور من السعادة

يغمره كونه محاطًا بأصدقائه المفضلين. أمّا روجر فقد بدا مستغرقًا في القراءة، وسرّ جدًا بالضحكات الخافتة التي تناهت إلى مسامعه من السيدات. قاطعه رنين جرس المحل عندما همّ بقراءة فصله المفضّل، التقط غليونه والعبوس بادٍ على محياه. ودمدم قائلًا: "لطالما جرت الأمور على هذا النحو، لا بد من أن يقاطعني زبون ما عند هذا الفصل". وخرج من الغرفة غاضبًا، قاصدًا المحل. فوجئ العجوز عندما رأى أن الوافد للمتجر كان أوبري جيلبرت فتى الإعلانات. وحياه بسرور: "مرحبًا، لقد احتفظت لك بشيء، إنه اقتباس عن الإعلانات كتبهُ جوزيف كونراد".

جيلبرت: "حسنًا، هذا جيد. أحضرت لك بدوري هدية رمزية، كنت لطيفًا معي جدًا في ذلك المساء، لذا جلبت لك معي سجائر من نوعي المفضل كردٍ على حسن استقبالك لي في المرة الماضية".

قال روجر: "أحسنت صنعًا. وبما أنك أوتيت حسًا من الرهافة، ربما أعفيك من اقتباس جوزيف كونراد".

قال جيلبرت: "كلا، البتة، أفترض أنه نقد لاذع. هيا أرني ما لديك".

قاد بائع الكتب ضيفه في الطريق إلى مكتبه، حيث عشرات القصاصات المبعثرة. فتّش فيها، وأخيرًا وجد ضالته، قصاصة كُتب عليها:

"كوني شخص تحركه مشاعر المودة الصادقة اتجاه زملائه، فأنا أمقت وبشدة نظام الإعلانات الحديث هذا. أيًا كانت الأدلة الذي يقدمها على الجرأة والبراعة والإمكانيات لدى بعض الأفراد، فإنه يثبت برأيي الانتشار الواسع لما يسمى التدهور العقلي، وبمعنى آخر: السذاجة".

جوزيف كونراد

قال روجر: "ماذا تظن في ذلك؟ بإمكانك قراءة الاقتباس كاملًا في قصة

"الفوضوي" للكاتب ذاته".

أجابه جيلبرت: "لا أحسبُ إنها حقيقة يعترف بها، وكما قال صاحبك دون ماركيز قبل بضعة أيام: "لا ينبغي أن نلوم فكرة ما من أجل الناس الذين يؤمنون بها". إن قرأ جوزيف كونراد بعض الإعلانات المزيفة، فهذا لا ينبغي أن يشوه منظومة الإعلانات بأكملها. لكن ليس هذا ما أتيت من أجله، بل لأريك هذا، كان في صحيفة التايمز هذا الصباح". وأخرج من محفظته قصاصة صغيرة فيها الإعلان ذاته الذي عرضته تيتانيا على روجر، وحاز على انتباهه.

قال روجر: "رأيت هذا الإعلان بالفعل. لقد بحثت عن الكتاب، ولم أتمكن من إيجاده على الرفوف، وأظن أن شخصًا ما قام بسرقته".

قال جيلبرت: "حسنًا، أود اخبارك بشيءٍ ما، لقد تناولت العشاء اليوم مع السيد تشابمان في فندق أوكتاغون".

قال روجر: "هل هذا صحيح؟ أنت تعلم أن ابنته هنا الآن".

جيلبرت: "نعم، لقد أخبرني، كم هو مثير مآل الأمور، أليس كذلك؟ كما ترى، بعد أن أخبرتني بقدوم ابنة تشابمان للعمل لديك. عرفت أن اهتمام والدها سينحصر بشكل خاص ببروكلين، واستنادًا لهذا طرأت لي فكرة، نافذة عرض بها منتجات غذائية صغيرة لذيذة المذاق. كما تعلم، نحن نهتم بجميع حملات السيد تشابمان الإعلانية. وأنا لم أخبره بمعرفتي أن ابنته قادمة للعمل لديك، لقد أخبرني بذلك في معرض حديثنا. حسنًا، إليك ما أرمي إليه، لقد تناولنا العشاء بالمطعم التشيكوسلوفاكي في الطابق الرابع عشر بالفندق، ونحن في طريقنا للمصعد رأيت طاهيًا بيده كتاب. حاولت اختلاس النظر من فوق كتفه لأرى العنوان، ظننت بالطبع إنه كتاب طبخ، لكنني فوجئت عندما رأيت نسخةً من رواية أوليفر كروميل!"

روجر: "لقد وجده ثانيةً إذن؟ يجدر بي الذهاب، والتحدث مع ذلك الشاب. أود أن أتعرف عليه إذا كان من معجبين توماس كارلايل".

جيلبرت: "تمهل لحظة، نظرت لعمود إعلانات المفقودات صباح اليوم، دائمًا أفعل فقراءتي لهذا القسم تعطيني أفكارًا مثيرة للإعلان. إذا رأيت ما يتوق الناس لاستعادته، ستعرف حقًا ما هو رائج. وعندئذ وبمزيد من الشمولية تستطيع استخلاص ما تعلن عنه. وهذه المرة الأولى التي ألحظ بها إعلانًا عن روايةٍ مفقودة، قلت لنفسي: "يبدو أن تجارة الكتب تأخذ بالازدهار". قلت ممازحًا لمساعد الطاهي عندما رأيته ممسكًا بالرواية: "أرى أنك قد وجدتها ثانيةً". لمساعد الطاهي هذا ملامح أجنبية ولحية كثيفة، وهذا أمر غير معتاد من الطهاة لأنهم يخشون عادة سقوط الشعر في الطعام. تطلع إليَّ بنظرة مريبة، وكأنني أحمل سكينًا لأهدده بها، لقد أخافني حقًا بنظراته تلك. قال باقتضاب: "نعم، نعم". وخبأ الكتاب أسفل ملابسه بعيدًا عن الأنظار. بدا خائفًا وغاضبًا في الوقت ذاته، ظننت أنه كان ممنوعًا من استخدام مصعد الزبائن، وخشيَ أن يبلغ أحدهم مدير المطعم بذلك. في الوقت الذي اقتربنا فيه من الطابق الرابع عشر همست لهُ: "لا تقلق يا عزيزي لن أشي بك، هذا وعد". بدا خائفًا أكثر من ذي قبل، شحُب وجهه حتى استحال أبيض بلا تعابير. خرجت من المصعد عند الطابق الرابع عشر، وتبعني هو كذلك. حسبت أنه يريد الحديث معي، لكن السيد تشابمان كان هناك واقفًا في الردهة، ولم أحظَ بفرصة لتبادل الحديث معه. لكنني لاحظت أنه راقبني إلى أن وصل لوجهته، وكأنّي فرصتهُ الوحيدة في الخلاص".

قال روجر: "لا بد أن الروح البائسة كان مرعوبًا، ظنَّ أنك ستبلغ عنه الشرطة، لسرقة الرواية. لا عليك، لندعه يحتفظ بها".

قال جيلبرت: "هل هو من قام بسرقتها؟"

أجابه روجر: "ليس لديَّ أدنى فكرة، لا بد وأن أحدهم سرقها، فالرواية اختفت من المتجر".

قال جيلبرت: "عندما رأيت الإعلان لم أفكر بالأمر كثيرًا، لكن عندما رأيت الطاهي يحمل الرواية، ويا لها من مصادفة غريبة! لفت الأمر انتباهي. أجريت محادثةً طويلة مع السيد تشابمان، خضنا خلالها في عدة نقاشات حول الحملات الإعلانية للخوخ المجفف ورقائق البطاطا، وعرضت عليه بعض النسخ المقترحة التي حضّرتها. ومن ثم أخبرني بشأن قدوم ابنته كمتدربة لديك، ولمّحتُ عرضًا أنني على معرفة بك. غادرت الفندق في حدود الثامنة، وارتأيت أنه من الأفضل أن آتي إليك وأخبرك بأمر الإعلان ولأعطيك السجائر أيضًا. عندما ترجلت من المترو وأنا في طريقي إليك، رأيت مساعد الطاهي مرةً أخرى، بملابس مختلفة بالطبع. عندما رأيته بهيئته تلك تعرفت عليه على الفور، خمّن من تظنه؟"

روجر: "لا يمكنني التصور، من عساه يكون؟"

جيلبرت "الرجل ذو اللحية الكثيفة الذي بدت هيئته كهيئة بروفسورٍ جامعي، رأيته عندما كنت هنا".

قال روجر: "يا إلهي! إنه مهتم جدًا بكارلايل، لقد أصيب بخيبة أملٍ فظيعة ذلك المساء، سألني عن الرواية لكنني لم أتمكن من إيجادها رغم بحثي المحموم عنها. أتذكر إلحاحه الشديد، للحد الذي دفعني للبحث في كافة رفوف قسم التاريخ! فقط لأتأكد أن الرواية لم تكن قد ضلّت طريقها إلى هناك. قال: إن بعض أصدقائه رأوا النسخة مؤخرًا بالمتجر، وقد أتى مباشرةً بعد حديثهم لشرائها. قلت له: بإمكانك الحصول على نسخة من المكتبة العامة، وقال: إن هذا لن يحدث على الإطلاق".

جيلبرت: "حسنًا، أعتقد إنه معتوه، لأنني متأكدٌ تمامًا من لحاقه بي. عندما

خرجت من المترو توقفت عند متجرٍ لا يبعد عن متجرك الكثير، بغرض شراء أعواد ثقاب. وعندما خرجت فوجئت به يقف أسفل عمود الإنارة أمامي مباشرةً!"

روجر: "لو كان مؤلفًا معاصرًا بدلًا من كارلايل، لقلت: إنها حيلةٌ دعائية من الناشرين. فهم يلجؤون لكل الأساليب الممكنة، والمراوغات المريبة أيضًا بهدف التسويق للمؤلف. لكن حقوق التأليف والنشر لكارلايل انتهت منذ فترة طويلة، لذلك لا أرى ما هي الحيلة هنا".

قال جيلبرت مازحًا: "ربما روح كارلايل تتجول هنا لتتذوق بيض صموئيل بتلر، ولتسرق الوصفة أيضًا". وضحك كلاهما.

روجر: "هيا، رافقني إلى الأعلى. أودُّ تقديمك إلى زوجتي وابنة تشابمان".

كان جيلبرت مترددًا بعض الشيء، وتحجج بأعذارٍ واهية. لكن بائع الكتب أصرَّ وأخذه إلى حيث تجلس السيدتان. كانتا لا تزالان تجلسان قرب الموقد عندما دخل السيدان عليهما. قال روجر: "قابلوا صديقي السيد أوبري جيلبرت". وقفت السيدتان وحيتاه بكل تهذيب. سرعان ما أَلِف أوبري السيدتين، والكتب المتراكمة من حوله، والكلب بوك أيضًا. لكنها لا تعدُّ ميزةً تذكر بالنسبة إليه، فهو عبقري شديد اللحظ، وذو عزيمة جبارة بالإضافة إلى مهاراته الوظيفية المتعددة. لذا، التأقلم بسرعة مع الأجواء السائدة يعد غيضًا من فيض مقارنةً ببقية مؤهلاته. قارن بين جميع الفتيات من معارفه وزميلاته بالعمل مع السيدة تشابمان دون النظر إليها، وخلص إلى أنّ الفتاة قبالته لا تتميزعنهنّ فحسب، بل تفوقهن بالفضائل من كل النواحي. تولدت رغبةٌ عارمة عصفت بروح الفتى، أراد أن يترك انطباعًا أوليًا لا ينسى لدى الفتاة. كان يرتدي صدرية حريرية مع ذقنٍ حليق بصورة مثيرة للإعجاب، وله عينان زرقاوان بلون أمواج المحيط، ومن فوقهما شعر

بني سُرِّح بعناية. توجه بالحديث إلى السيدة ميفلين قائلًا: "إنه لكرم بالغٌ منكِ سيدتي استضافتي دونما إشعار مسبق، لقد أتيت إلى هنا منذ بضع ليالٍ خلت، وتناولت العشاء مع السيد ميفلين بعد أن أصرَّ على ذلك".

قالت السيدة هيلين: "لقد أخبرني روجر بذلك، ما رأيك ببيض صموئيل بتلر؟ ألم تتذوق براندي هارولد بيل رايت[1] بعد؟ سيطيب لك، متأكدةٌ من ذلك". وجدت الطمأنينة طريقها إلى نفس أوبري، وهذا اتضح من جلسته المسترخية على المقعد. رغم أن محاولاته اليائسة بعدم توجيه أنظاره إلى الفتاة (حيث تستقر) باءت بالفشل.

قال بائع الكتب: "لقد مرَّ السيد جيلبرت بتجربة غريبة للغاية، هلاّ أخبرتهم عنها؟".

سمح أوبري لنفسه وبتهور شديد من جانبه، بمضايقة صاحبة العينين المشعتين ببريق أزرق والتي تجلس قبالته تمامًا قائلًا: "كنت أتناول العشاء مع والدك في الفندق". أحسّ بسحابة من التوترعبرت بينهما ببطء وثقل. لم يجرؤ على المجازفة ثانيةً، ولتجنب اندفاعه غير المحسوب استدار نحو السيدة ميفلين فزعًا، ووجّه إليها الحديث: "أنا من كتب معظم إعلانات السيد تشابمان، وكان لدينا موعد للعشاء في فندق أوكتاجون، فنحن نخطط لحملة إعلانات كبيرة عن الخوخ".

قالت تيتانيا: "أبي يعمل بجهد كبير، ألا تعتقد ذلك؟"

رحّب أوبري بمبادرة تيتانيا، ورأى أنها ستقوده إلى نقاشات أوسع

---

(1) Harold Bell Wright مايو 1872 – 24 مايو 1944) كاتب أمريكي من أنجح كتاب القرن العشرين، كتب أعمال خيالية ومقالات وقصص وعدة مسرحيات، يشتهر بعمله "راعي التلال". (المترجمة).

وأعمق عن عائلة تشابمان. لكنّ روجر ألحَّ عليه ليخبرهم بما حدث مع مساعد الطاهي ونسخة رواية كروموبل. وبعد أن انتهى من إخبارهم بما حصل، صاحت تيتانيا بحماسة: "وتبعك إلى هنا! يا له من أمرٌ مشوق، لم يخطر لي أن تجارة الكتب ممتعةٌ لهذا الحد".

قالت السيدة ميفلين لزوجها: "تأكد من إحكامك لقفل الباب هذه الليلة، ربما سيعود ليسرق موسوعة بريتانيكا".

قال روجر: "لماذا يا عزيزتي؟ إنه لأمرٌ جيد أن نرى رجلًا متواضعًا حريصًا كل الحرص على اقتناء الكتب الجيدة. يا لسعادتي! سأكتب إلى مجلة الناشرين الإسبوعية عن ذلك".

قال جيلبرت: "حسنًا، يجب أن أمضي في سبيلي، وأدعكم تستأنفون حفلتكم الصغيرة".

قال روجر: "إنني أقرأ على السيدات بصوتٍ مرتفع هذا كل ما في الأمر. هل سبق لك قراءة قصص أعياد الميلاد لتشارلز ديكنز؟"

أجاب جيلبرت: "كلا، لم يسبق لي قراءتهم من قبل".

قال روجر: "إذن هذه فرصة لتتعرف على ديكنز، سأبدأ بالقراءة".

قالت تيتانيا لجيلبرت: "قبيل قدومك كان السيد ميفلين يقرأ لنا عن أفضل نادلٍ في لندن على الإطلاق، هلا أكملت حديثك يا سيدي؟"

كان جيلبرت يشعل غليونه، عندما التقط روجر الكتاب وقال: "حسنًا، قبل أن نبدأ بالقراءة، ربما يجدر بنا الحصول على بعض المرطبات، سيسهل فهم هذا الفصل مع القليل من نبيذ العنب الأبيض. ما قولك في ذلك ياعزيزتي هيلين؟"

قالت السيدة ميفلين: "من المحزن الاعتراف بالأمر، لكنها الحقيقة.

روجر لا يستطيع قراءة نصٍ لديكنز دونما شراب. أعتقد أن مبيعات ديكنز ستنخفض في حال منع الخمر".

قال روجر: "دعوني أخبركم شيئًا، كتبت ذات مساء قائمة بالخمور المستهلكة خلال قراءة أعمال ديكنز، وصعقتني النتيجة؛ سبعة براميل أو ما يقارب. اعذروني لحظات سأذهب إلى القبو، وآتي بزجاجة الشراب". غادر روجر الغرفة متجهًا نحو القبو، يتبعه الكلب بوك كعادته. تعدّ رائحة الأقبية علاجًا نادرًا للكلاب، وخاصةً أقبية بروكلين القديمة التي لديها رائحة مميزة تخصها. رنَّ جرس المحل، وثبت تيتانيا قائلةً: "دعوني أذهب لأهتم بالعميل رجاءً".

قال أوبري: "أستطيع الذهاب بدلًا منكِ".

تركت السيدة هيلين عدة الحياكة وقالت: "لا أحد منكم يعلم أبجديات التعامل مع الزبائن، لذا أجلسوا رجاءً واسترخوا، سأعود على الفور".

تبادل أوبري وتيتانيا النظرات بخجلٍ واضح، وكمحاولة لتخفيف التوتر السائد قال أوبري: "أرسل والدك أفضل التحيات ويتمنى لكِ إقامة ممتعة". لم ينوِ قول ذلك ولكن بطريقةٍ ما تسللت الحروف خارج فمّه. تابع قائلًا: "وقال إنه لا يتحتم عليكِ قراءة جميع الكتب دفعةً واحدة، كما تعلمين".

ضحكت تيتانيا دون تحفظ وقالت: "كم هو غريب، كان عليك مقابلة أبي قبيل مجيئك إلى هنا حيث أكون، إنه رجلٌ محبوب، أليس كذلك؟"

قال جيلبرت: "لا أعرف والدك جيدًا، نحن نتبادل الأحاديث فيما يخصّ العمل فقط. مع ذلك أراه شخصًا مذهلًا، كما إنه يؤمن بالإعلانات، وهذا سبب كافٍ للإعجاب به كما أعتقد".

تيتانيا: "كيف تقيم نفسك من ناحية القراءة؟ هل تسمي نفسك دودة

كتب؟"

جيلبرت: "كلا، البتة. لم أقضِ كثير وقتٍ بصحبة الكتب في حياتي، هذا سيدفعك للظن بأنني جاهلٌ بلا شك".

تيتانيا: "بل على العكس تمامًا، سعيدةٌ لوجود شخص لا يجرّم عدم قراءة هذا الكم الهائل من الكتب".

جيلبرت: "هذا المكان غريب، أليس كذلك؟"

تيتانيا: "نعم، إنه كذلك. تُرى لماذا سُميَ "متجر الكتب المسكون"، أتساءل عمّا يعنيه ذلك؟!".

جيلبرت "لقد أخبرني السيد ميفلين بما يعنيه ذلك، الاسم يشير إلى أن المتجر مسكون بربات الأدب العظيم، وكما يبدو أشباح توماس كارلايل نشطةٌ جدًا هذي الأيام!"

قالت تيتانيا "لا أخاف الأشباح".

حدّق أوبري في نار الموقد يفكر بعمق. كيف له أن يخبر الآنسة الجميلة قبالته وبأسلوبٍ مهذب، أنه سيبدأ مطاردةً تخصّه هو الآخر. قاطع بائع الكتب حبل أفكاره بعودته من القبو يحمل في يده زجاجة النبيذ، وعندما همّ بفتحها سمِعوا خطوات السيدة ميفلين قادمةً باتجاههم.

قالت هيلين لحظة دخولها: "روجر إن كنت حقًا مهتمًا بنسختك القديمة من رواية توماس كارلايل فيجب عليك إبقاءها هنا". ووضعتها على الطاولة.

صرخ روجر بانفعالٍ شديد "يا إلهي، من الذي أعادها؟"

قالت السيدة هيلين: "أعتقد أنه صديقك الطاهي، لحيته بدت كشجرة

عيد الميلاد، كان مهذبًا للغاية. قال: إنه كان يتجول في المتجر شارد الذهن منذ بضعة أيام، وأخذ الراوية ولم يدفع ثمنها سهوًا. لذا أراد التعويض عن المتاعب التي تسبب بها، كما أراد دفع ثمنها لكنني أصررت ألاّ يفعل".

قال روجر: "أشعرُ بخيبة أمل فظيعة، اعتقدت أنني توصلت لدودة كتبٍ حقيقي. لنحتسي نخبَ عودة رواية توماس كارلايل". بعد شربهم للنخب عادوا جميعًا إلى مقاعدهم الوثيرة.

قالت السيدة هيلين: "النخب التالي لموظفتنا الجديدة". رفع أوبري كأسه بحماسة بالغة، وفرّغه في جوفه مسرعًا. انتبهت ابنة تشابمان لهذه الحماسة بيقظتها الشديدة.

التقط روجر قصص ديكنز ليبدأ بها، لكنه سرعان ما أنزلها، والتقط محبوبته نسخة كروموبل، ووضعها بقرب المصباح قائلًا" هذا اللغز الغامض لم يحلّ بعد، تمت إعادة تغليف الكتاب، هذا ليس بغِلافه الأصلي".

قالت هيلين" هل أنت متأكد؟! يبدو لي أنه الغلاف نفسه".

قال روجر: "تمت إعادة تغليفه بذكاء، لكنهم لا يستطيعون خداعي. كان هناك حرف ممسوح في أعلى الغلاف، وبقعة حبرٍ صغيرة في الأسفل".

قال جيلبرت: "بقعة الحبر لا تزال موجودة، انظر، إنها هناك".

قال روجر: "نعم، لكن ليست بقعة الحبر نفسها. قضيت وقتًا كبيرًا بصحبة هذا الكتاب، أستطيع تمييز ذلك بمجرد اللمس. السؤال هو: ما الرسالة التي يود أن يوصلها لنا هذا الشيطان المجنون عبر إعادة تغليف الكتاب؟"

قالت هيلين: "رباه! دع الأمر وشأنه، هلاّ فعلت؟ أصبحت مهووسًا بأمر نسختك، عليك الحذر".

5

إصابة أوبري

مكتبة
t.me/t_pdf

غادر أوبري متجر الكتب المسكون قاصدًا منزله. كان مستغرقًا في لجة تأملاته وعبء ذلك الفيض من الإحاسيس الذي اجتاحه. أخذ نفسًا عميقًا ودون وعي منه، وبشعور غريزي بحت، سلكت قدماه طريق مانهاتن لتجنب الإزعاج في المترو. فقد أدرك كل الإدراك أن الضوضاء هناك ستعمل على تشتيته بعيدًا عن تأملاته، ولم يرغب بذلك. عندما كان في المتجر، كان عقله يسبح في تيار مغاير تمامًا، طوال قراءة بائع الكتب لقصص ديكنز، تيار من اللطف والجمال المطلق. وكما يقول جيمس هنري في إحدى قصصه: " بينما يبدو الشخص من الخارج كحجرة عازلة للصوت، يجيش في داخله غليان غير متوقع". القول إنه كان يفكر في الآنسة تشابمان ينطوي على مبالغة شديدة من جانبنا، فهناك أمور لا تُحصى تستأثر بتفكيره، إلا أن عجزه عن السباحة ضد التيار كان شديد الوضوح. لم يكن يفكر، إنما كان بحالة أشبه بالاستبصار، لم يكن بمقدوره مقاومة المد والجزر الذي رسمه القمر الغامض، المتجلي أمامه. توقف لحظات عند متجر الأدوية في الزاوية بين شارع غيسنغ وجادة ووردزوورث ليشتري السجائر، والتي يعدُّها كالعزاء في أوقات أزماته الفكرية. كان متجر الأدوية عتيق الطراز، كما هو شأن المتاجر في هذا الجزء من مدينة بروكلين. وفيه عدة رفوف للكتب المستعملة، لمحَ أوبري غلاف مجلد محشور بين مجلدين، بدا مهترئًا وبلا عنوان. دفعه الفضول لإلقاء نظرة عليه، دُهش عندما رأى الحروف المنقوشة على ظهر الغُلاف: " كارلايل، رسائل أوليفر كرومويل وخطاباته". واستجابة لدافع داخلي ألحَّ عليه، دسَّ

الغلاف في جيب معطفه. حينئذ دخل السيد وينتروب مالك المتجر، كان يخطو بخيلاء، ويبدو أنه كمن يحرص على إرضاء ذاته بهذه الطريقة. التقط أوبري نوعًا من السجائر يشعر نحوه بالولاء، فهو من صاغ الإعلان الذي يظهر على الملصق الخارجي له: (إنها خفيفة، لكنها تشعرك بالرضا التام) لذا أحسَّ أنه ملزم بالإخلاص لهذا النوع فحسب. عندما أعطى أوبري السجائر للبائع، لاحظ أن أصابعه ملطخة بصبغة الكركم النباتي.

قال السيد وينتروب بابتسامة لم تكن لتناسب ملامحهُ الجادة: "لم أكن لأدخن مثل هذا السيجار أبدًا، يجب أن تكون لديَّ أعصاب قوية لأدخنه".

قال أوبري: "التدخين عادة سيئة بالطبع، لكنني أدخن بشراهة". لم يستطع مقاومة إحساسه، شخص ما كان يسترق السمع لحديثهم من خلفه. نظر إلى الجزء الخلفي من المحل، وإذا به يرى الممر خاليًا وينتهي بمخرج آخر. قال للبائع: "حسنًا، طابت ليلتك". وخرج من الباب الخلفي، سار في جادة ووردزوورث. احتجبت السماء، وهطل المطر، حثّ الخطا نحو وجهته، وتحت دوي الرعد أحسَّ بالضياع، وأن ذهنه رهين التجربة التي مرَّ بها في متجر الكتب. تأجج استياؤه، وتصاعد كدر مزاجه. إذ سرعان ما عادت الآنسة تشابمان لتسيطر على فكره، أضحى يصارع عقله ليخرج من تلك الدوامة التي علِق بها حديثًا. ما انفكت تطفو على عقله خيالات لغرفة الجلوس، والكتب المتكدسة بها، والنار المتوهجة في الموقد، وصوت بائع الكتب يقرأ، وهناك كرسي هزاز موضوع في الزاوية كان قد اهترأ حتى خرج ما في داخله، وأخيرًا صورة الملاك البريء بعينيه الزرقاوين وحضوره المهيب. يتذكر تراقص لهيب النار على خط كاحلها، وقوله لنفسه وقتها: "يا لهذه المخلوقات التي وُجدت لتعذبنا ليس إلا! اللعنة، بأي حق تفعل ذلك؟ من سمح لها أن تبلغ هذا الحد من الجمال؟"

عندما وصل إلى جسر بروكلين نظر إلى السماء، وصرخ بتضرع: "يا الله، احمِ قلبي". واستمر بالمشي إلى أن تسلق تلة، ورأى المدى الواسع من فوقها، حينها استنشق هواءً عليلًا وقال لنفسه: "يجب أن أستغل هذه الطاقة المتفجرة لديَّ في الإعلانات". وفي الحال قرَّر تحرير نفسه من هذه التأملات ونسيان تفاصيل الآنسة تشابمان، أطراف فستانها القطني، وعطرها، ونظرتها القاتلة التي تصيبه بالهذيان. رآها مرةً واحدة وها هو يتجرع ويلات الحب. كان ذا شخصية قوية، وبارزًا في مجال كتابة الإعلانات. فكيف له أن ينهار أمام هذا المد الجارف بسهولة قصوى؟ أحسَّ أنه أعلى من شأن الفتاة بمخيلته للحد الذي جعله يتصور أنه لن يتمكن من الاقتراب منها مرةً أخرى. قال لنفسه: "لن أقترب منها تحت أي ذريعة، أقسم على ذلك". حسَم الأمر، وتناسى هذا المشهد. وأخذ عقله منعطفًا فلسفيًا بعيدًا كل البعد عن الكمال البريء الذي تركه في متجر الكتب.

زلقت ساقه بسبب سرعة خطواته على الثلج، واصطدم رأسه بحاجزٍ خشبي على جانب الطريق. همّ بالبكاء شفقةً على حاله، إلّا أنه رأى أنه لا جدوى من ذلك. هرع إليه أحد المشاة الودودين قائلًا: "هل أنت بخير؟"، أحسّ أوبري بداور شديد واستغرق بعض اللحظات ليجاوب عن السؤال. قال له: "أنا بخير، شكرًا لك". جثا الغريب على ركبتيه، ومحا بعض قطرات الدماء من على جبين أوبري بمنديله الخاص. شكره أوبري مرةً أخرى، وجلس للحظات على الأرض فقد أحسَّ بالغثيان. قال للرجل الودود: "ممنون لك، سأكون بخير بعد لحظات". قال الغريب: "هل تريد مني أن أبقى إلى جانبك؟" أجابه أوبري: "كلا، سأكون على ما يرام". لكن الغريب أبى إلا أن يساعد أوبري، لذا قام باستدعاء سيارة أجرة لإيصاله لمنزله، وساعد أوبري على ركوبها مع شاب آخر قدم للمساعدة، وأوصى السائق أن يساعده حين يصل لوجهته أيضًا.

قال السائق لأوبري مازحًا: "يجب عليك ارتداء قبعة من الصفيح إذا كنت ستتمشي في لونغ آيلاند ليلًا".

قال أوبري: "سأفعل في المرة القادمة".

قال له السائق: "هل تعرفت على الشبان الذين قاموا بمساعدتك؟"

أجابه أوبري قائلًا: "كلا، لم أتعرف عليهم".

قال السائق: "هل تريد مني الالتفاف والعودة إليهم؟"

قال أوبري: "كلا، لا داعي لذلك، أنا لديَّ حدس أنني قد أكون على معرفة بهم".

قال السائق: "هل تقول إنك تعرفهم؟ هل أنت مخبر؟"

التزم أوبري الصمت، ولم يكلف نفسه عناء الإجابة. حينئذ انعطف السائق نحو شارع بوويري المظلم في الجادة الرابعة، وتوقف أمام منزل أوبري. ترجل أوبري وشكر السائق اللطيف، الذي حاول مساعدته ليدخل منزله بعد أن رآه يخطئ عدة مرات في أثناء محاولته إدخال المفتاح في المزلاج، إلاّ أن أوبري رفض بأدب، راقبه سائق الأجرة إلى أن تمكن من الدخول. تعثّر كاتب الإعلانات المصاب في الظلمة، كان يتلمس الطريق محاولًا الاهتداء لحوض المغسلة. ويده على رأسه الذي ينبض من شدة الألم. بعد جهدٍ جهيد وصل إلى الحوض واغتسل، وربط منشفة حول رأسه، وكان هذا آخر ما يتذكر قبل أن يرقد على السرير ليغط في سباتٍ عميق.

6

تيتانيا تتقن العمل

درج روجر على البقاء مستيقظًا في سويعات ما بعد منتصف الليل، منكبًا على كتابه في خشوعٍ صوفي. إلا أنه كان يستقبل الصباح مهللًا، ويثبُ عن السرير بكل نشاطٍ وحيوية. فهو يظنُّ أن عادة البقاء لوقت متأخر في السرير تبعث الرضا في نفوس الشباب اليافعين فقط. فأولئك الذين يقتربون من عقدهم الخامس يدركون بحساسية مفرطة سلاسة حركة الحياة، لذا لا وقت لديهم ليبددوه بين أغطية الأسرة. كان الروتين الصباحي للرجل العجوز ثابتًا ومليئًا بالأنشطة المتنوعة. يستيقظ عادةً في السابعة والنصف صباحًا على رنين الجرس المعلق على السلّم. رنات الجرس هذه أيضًا تعلن عن وصول السيدة بيكي، المسؤولة عن تنظيف المتجر. فهي تأتي كلَّ صباح، لتقوم بعدة مهام: مسح ممرات المتجر، وتهويته من دخان التبغ، والتقاط زجاجات الحليب وأكياس الخبز الفارغة واستبدالها بالجديدة. استيقظ روجر باكرًا على غرار ما درج عليه، التقط زجاجة حليب، وذهب إلى المطبخ كي يلقي التحية الصباحية على بوك. خرج بوك من بيته الأدبي مسرعًا ليستقبل صاحبه، ربت روجر على ظهره، ومن ثم سمح له بالخروج إلى الفناء الخلفي ليلعب. حيث اعتاد على الوقوف ومراقبته مستنشقًا نسيم الصباح العذب. كانت سماء صباح السبت صافية وتتنفس بعذوبة. نظر روجر إلى ظهور المنازل في شارع ويتير، بدت له عشوائية وغير منتظمة كهوامش قصيدةً حرة، وهذا قدّم لروجر بانوراما إنسانية مقبولة. خيوط الدخان الرقيقة كانت ترتفع من المداخن، عربة الخباز المتأخرة تسير في الزقاق. جاش بصدره فيضًا من الأحاسيس

لبروكلين البلدة الرائعة، حيث البيوت المثيرة للإعجاب ووجبات الإفطار الشهية التي تعدُّ بحب. استنشق بوك جذور الأرض على طول الفناء الخلفي (كان يعرف كل بوصة مكعبة عن ظهر قلب بالفعل). راقبه روجر بالعاطفة التي يشعر بها المرء اتجاه كلب سعيد. مرت نسمة هواء باردة، وتسللت إلى أسفل ملابس العجوز، أحسَّ روجر أن البرد ينخر عظامه، لذا نادى بوك وهرعا إلى الداخل حيث الدفء. كان وجهه الصغير النابض بالحياة يتوهج من فرط سعادته في الصباح. توجه إلى المطبخ، ووضع الخشب في الفرن وأوقده. ومن ثم ذهب إلى الأعلى حيث غرفة نومه، وجد السيدة ميفلين لا تزال مستغرقةً في النوم، انحنى للأسفل، والتقط دبابيس الشعر من على الأرض، متسائلًا بينه وبين ذاته عن مدى صحة الاعتقاد السائد: النساء يفقن الرجال نظافةً وترتيبًا.

استيقظت تيتانيا باكرًا أيضًا، وابتسمت لصورة صموئيل بتلر الغامضة والمعلقة أمامها. نظرت نظرة سريعة إلى صف الكتب الموضوع على الرف بجانب سريرها. ارتدت ملابسها مسرعةً، وركضت على درجات السلم تدفعها حماسة أول يوم كبائعة كتب. رفضت السيدة ميفلين دخول تيتانيا للمطبخ ومساعدتها قطعيًا. لذا ذهبت إلى محل زهور في آخر الشارع كانت قد لمحته عندما كانت في طريقها إلى المتجر. وابتاعت زهور أقحوان وأصيصًا كبيرًا من الخنج الإسكتلندي، سعره أعلى من أجر الأسبوع الواحد التي ستتقاضاه. رآها روجر توزع الأزهار على أقسام المحل، وصرخ متعجبًا: "فليبارك الرب روحي! كيف ستعيشين على الأجر الذي سندفعه لكِ فحسب؟ لن أدفع يوم الجمعة القادم!"

قالت تيتانيا: "من أجل الاحتفال فحسب، فالزهور لها قدرة خيالية على نشر البهجة حتى بين المجلدات العتيقة!"

قال روجر: "يا إلهي، آمل أنها لا تتوقع قدوم ممثلين إلى هنا".

بعد الإفطار قاد روجر موظفته الجديدة إلى المتجر، وذلك لتباشر عملها كبائعة كتب وتألفه. عرّفها على أقسام المحل، وأراها الكم الهائل من المجلدات المستعملة وكيفية ترتيبها أيضًا. قال لها بائع الكتب بجدية بالغة: "جميع المعلومات المخزنة لديَّ ستنتقل إليك، تدريجيًا بالطبع. هنا بطاقات أسماء لتوضح لكِ الفرق بين فيليب غيبس وفيلو غيب[1]، وبين الكاتبة ويلسون وودرو والسيدة وودرو ويلسون[2]. وجميع الالتباسات من هذا النوع. رجاءً لا تشعري بالذعر من كل هذه الإعلانات لكتاب فريدريك آير "بيل والأجنحة"، سبب كثرتها هو عدم بيع أي نسخةً من الكتاب بعد. وهذا من الأسباب التي دفعتني إلى إخبار جيلبرت بأنني لا أؤمن بالإعلانات، قد يأتي أحدهم ويسألكِ عن كاتب تظنينه رائعًا وذا إنتاج غزير، عليكِ أن تعرفي ذلك؛ إن بائع الكتب ليس بالضرورة ناقدًا أدبيًا. كل ما عليكِ هو الاستمتاع بقراءة الكتب، وتوجيه الناس إلى الجيد منها أو ما تحسبينه كذلك. الناقد الأدبي هو النوع من الأشخاص الذي سيشرح لكِ قصيدة ووردزوورث "المقاتل الشجاع"، سيقول لكِ إنها مكونة من 85 سطرًا يشكلون مقطعين، إحداهما 59 سطرًا والآخر سطرًا26. ماذا يهمُّ إن كتب قصائد تتشابه في الطول مع قصائد والت ويتمان أو ويل هيز؟ المهم هو ما إذا كانت قصائده رائعة أم لا. سيأتي شخص ويطلب منك ديوانًا شعريًا عن الآلة الكاتبة، وستدركين حينها إنه يعني قصائد روبرت لويس ستيفنسون. لا تتجادلي مع العملاء، قومي فقط بتوجيههم نحو ما يبحثون عنه".

---

(1) تم إنشاء شخصية Philo Gubb من قبل الكاتب الخيالي غزير الإنتاج اليس باركر بتلر، وظهرت لأول مرة في عدد مايو 1913 من مجلة Redbook. (المترجمة).

(2) الزوجة الثانية لرئيس الولايات المتحدة الثامن والعشرين وودرو ويلسون، والسيدة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية من 1915 وحتى 1921. (المترجمة).

توجها إلى مقدمة المحل وخرجا من الباب، أشعل روجر غليونه، ونظر إلى الصناديق الفارغة والمتكدسة أمامه وقال: "أول شيء أفعله عادةً..." قاطعته هيلين من خلفه قائلةً: "أول شيء ستفعلانه هو الإصابة ببردٍ مميت. تيتانيا، أسرعي وأحضري الفرو الخاص بك، أمّا أنت يا روجر أذهب وارتدِ قبعتك، بهذا الرأس حليق الشعر يجدر بك أن تهتم أكثر!" انصاعا لأوامر السيدة ميفلين دونما اعتراض. عندما عادا إلى مقدمة المحل، تلألأت عينا تيتانيا الزرقاوان فوق الفرو ذي الملمس الناعم التي كانت تتدثر به.

قال روجر: "تمتلكين ذوقًا رفيعًا، يمكنني تخمين ذلك. إن للفرو الذي ترتدينه لون دخان التبغ". وزفر دخانًا كثيفًا من غليونه ليثبت التشابه. فجأة أحس إنه غدا ثرثارًا، كما هي عادة كبار السن أمام الفتيات الشابات اللواتي يبدين لطيفات ويتمتعن بحسن الإنصات.

تطلعت تيتانيا من حولها وقالت: "يا لهُ من مكان رائع! بإمكانك استغلال هذه المساحة الصغيرة أمام المحل، ما رأيك بطاولات للقراء؟ بإمكاننا تقديم الشاي والمرطبات في الصيف".

تجاهل بائع الكتب اقتراح تيتانيا، وتابع حديثه الذي قطعته عنه السيدة هيلين: "في الصباح أول ما أفعله عادةً هو تحديد ما سأضعه في هذه الكراتين، وفي الليل أقوم بتعبئتها. إذا كانت السماء تنذر بالمطر آخذ احتياطاتي، أغطيها بخيمة كبيرة، إنها تؤدي الغرض منها أحيانًا. من المؤكد أن أحدهم يلتجئ إلى الخيمة هربًا من الأمطار ويقوم ببحثٍ دقيق بين الكتب. أغيّر مخزون الرصيف الخاص بي أسبوعيًا، هذا الأسبوع وضعت أعمالًا خيالية.

قالت تيتانيا: "لا بد أنها مبتلة وتملؤها القذارة، أتمانع إن قمت بإبعادها عن واجهة المحل قليلًا؟"

قال روجر: "حسنًا، لم أفعل هذا من قبل. لكنني أعتقد إن من شأنه

تحسين واجهة المحل لتبدو أفضل".

هرعت تيتانيا إلى الداخل مسرعة لتحضر منفضة الغبار من هيلين. عادت وبدأت تزيح الصناديق عن واجهة المحل على الفور، في تلك الاثناء راح روجر يتبادل الحديث معها بمعنوياتٍ مرتفعة، وبوك من على عتبة الباب يهز ذيله فرِحًا بالتغييرات الجديدة بالمحل.

تساءل المارة عمن تكون مساعدة بائع الكتب الجذابة التي تقوم بالتنظيف. قال أحدهم: "أتمنى أن أجد مساعدة جميلة بهذا القدر لتساعدني في المحل". قالت سيدة من المارة: "لا بد لي أن أزورها في يوم من الأيام، وأن أسألها عن مقدار ما تجنيه في مكانٍ كهذا". أحضر روجر دزينة من الكتب يعلوها الغبار، وطلب من تيتانيا نفض الغبار عنها. وقال: "أحد الأسباب التي تجعلني سعيدًا بوجودك هنا هي مقدرتي على الخروج وترك المحل أكثر من السابق. كنت محاصرًا في المتجر، ولم تتح لي فرصة لاستكشاف المكان. لم أجد الوقت لاستكشاف قديم المكتبات وتقديم عروض أسعار على المجلدات المستعملة، ما أعنيه هو أنني لم أجد الوقت لممارسة حياتي خارج متجر الكتب. بالمحصلة أسهمي الآن منخفضة جدًا. إذا تقاعست وانتظرت ما يأتي به الزمن، فلن أحصل على ما أريد حقًا".

قالت تيتانيا بينما تلمع قصة "نول السيدة الراحلة" لفرانك آر ستوكتون: "كم هو رائع قراءتك هذا الكم الهائل من الكتب".

قال روجر: "لا أعدُّ نفسي قارئًا نهمًا، لكن أبي علمني تقدير الكتب الجيدة. كان يغضب جدًا عندما يأتي أصدقائي إلى منزلنا، ويسألهم عمّا يقرؤون من دون أن يحصل على إجابة. الكتاب الوحيد الذي عرفوه هو "دير ميبل"[1]. قهقه وتابع حديثه: "آمل أنكِ لا تظنين أنني رفيع الثقافة، أنا فقط

(1) كتاب من قبل إدوارد ستريتر، نشر عام 1918 مواضيعه الفكاهة والخيال. (المترجمة).

لا أطيق الأدب خاوي المضمون أو المدجج بالتوافه عن عمد. إلا أنّ هناك جانبًا غريبًا في الأمر يثير دهشتي في بعض الأحيان: عندما أقرأ قصص دكتور كرين سرعان ما أغفو وأذهب لعالم الأحلام، بينما مقالات فرانسيس بيكون تبقيني مستيقظًا طوال الليل!"

تيتانيا، لكونها غير مطّلِعة على أسماء الفلاسفة أو الشخصيات الخيالية، سلكت المسار الآمن الذي تتشبث به النساء حين يطرح عليهنّ سؤال يجهلن إجابته، قالت: "أرى أنّ هناك كتابًا قادمًا يشبه لكتاب "دير ميبل" والتوقعات تقول: إنه سيبيع ألف نسخة".

قال روجر: "حسنًا، أرى أن ذلك وارد الحدوث، فالناس متعطشون إلى التسلية، وأنا متأكد من أنني لن ألومهم، أخشى أنني لم أفعل ذلك في الواقع. قراءتي لـ"دير ميبل" كانت ممتعة حقًا، أنا سعيد لأنه وصل إلى العامة. مع الحفاظ على اعتقادي أنه ليس بالكتاب الجيد. لكن لا يهمّ، فالكتب المسلية لها مكانتها عند الناس. إذا أمعنت التفكير بالأمر يظهر لي أنّ التوق الإنساني لهذا النوع من الكتب لهو أمر مثير للشفقة. إنّها تظهر لنا كيف استحالت الحياة إلى إحباط ويأس محض، يهرب الناس منها إلى عالم الكتب. بالنسبة لي، العروض الصباحية الساحرة في يوم السبت هي إحدى أروع اللحظات التي أهرب من الواقع إليها، حيث الصمت والترقب المبهر لما قد يحدث على خشبة المسرح".

صرخت تيتانيا قائلةً: "يا لها من لحظة رائعة!"

قال روجر: "نعم بالفعل، الجمهور هناك متحمس للإثارة. المسرح أحد بدائل اليأس والحزن الذي نختبرهما طوال الوقت. يومًا بعد يوم أرى الناس يتدفقون إلى المسارح يبحثون عن لا شيء، فقط لإضاعة الوقت، ويشعرون بالرضا تمامًا لأجل ذلك".

تساءلت تيتانيا بينها وبين نفسها وهي مذعورة قليلًا ما إذا كانت من نفس نوع الأشخاص الذين تحدث عنهم روجر بشفقة، تذكرت مدى استمتاعها بفيلم الممثلة دوروثي إليزابيث غيش منذ بضع ليالٍ خلت. غامرت وقالت: "لكنك قلت: إنّ الناس يبحثون عن التسلية، الناس هناك يضحكون ويبدون في غاية السعادة، هذا يعني تسليتهم بالطبع أليس كذلك؟"

صرخ ميفلين: "إنهم يعتقدون ذلك! فهم لا يدركون معنى التسلية الحقيقية! الضحك والصلاة عادتا الإنسان الأكثر نبلًا، إنهما تخرجانه من وحشيته وهمجيته. الضحك على الدعابات الرخيصة أساس الصلاة الإلهية. لكن الضحك على روسكو آرباكل[1] هو استهزاء بالروح البشرية".

تيتانيا اعتقدت أنّ ما ستتفوه به يبدوعميقًا قالت:"النكتة التي تبدو لك رخيصة وغير مضحكة، قد تبدو مضحكة لغيرك من الناس". وانتعشت وتدفق الدم إلى وجنتيها جراء تلك الفكرة التي طرأت عليها.

قال روجر: "هنيئًا لكِ، فكرتك صحيحة تمامًا، لكنها بعيدة كل البعد عن ما عنيته. تبحث الإنسانية الآن عن الحقيقة أكثر من أي وقتٍ مضى. وتبحث أيضًا عن العزاء في الأشياء الجميلة. لقد مررنا بمحن أثقلت كاهل البشرية، وكل إنسان محترم يسأل نفسه كل يوم: ما الذي يمكننا القيام به لالتقاط شظايا البشرية وإعادة تشكيلها؟ إليك ما وجدته في مقدمة إحدى مسرحيات جون ماسيفيلد: "صدق الإنسان وفرحته من الأشياء المقدسة، لا يُزدرى بسهولة. الطيش، والجمال، والزهد في الحياة، في مواجهة مستمرة مع النهم، والكسل، والحماقة، منذ بداية التاريخ". أؤكد لكِ، فقد أمعنت التفكير في ذلك خلال السنوات الماضية. كتب والت وايتمان قصيدة قصيرة

---

(1) روسكو آرباكل هو ممثل كوميدي ومخرج وسيناريست أمريكي في زمن السينما الصامتة. (المترجمة).

خلال الحرب الأهلية، تلك السنة التي صعقتني وأبكتني لحد الرعشة:

أيجب عليَّ أن ألقّن الحشود المرتبكة والباردة لحن الهزيمة؟

جلست في متجري في أثناء الليل ونظرت إلى الرفوف من حولي، نظرت للكتب التي حوت آمال وأحلام وشجاعة النفس البشرية، تساءلت عمّا إذا كان الكتّابُ جميعهم مخطئين وموصومين بالخزي ومهزومين. تساءلت عمّا إذا كان العالم غابة تسكنها أرواح حقودة تسعى للانتقام. لطالما تساءلت إن كان بإمكاني تبرير وجودي المريح هنا بينما الرعب في كلِّ مكان. أتساءل إذا كنت محقًا في هربي واتخاذي هذه المكتبة ملجأ لي، في الوقت الذي يعاني الجنود فيه من ويلات الحرب. حاولت رغم ذلك الدخول إلى وحدة الإسعاف، لكنهم رفضوا بحجة أنني كبيرٌ في السن، ولا أمتلك خبرة كافية".

اعتلت وجه تيتانيا نظرة تفهّم وقالت بهدوء: "صدقني أعرف كيف تشعر، كيف تعتقد أنني شعرت وأنا مقيدة بملابسي الفاخرة ذات الأحزمة والصدريات الضيقة؟ لم أستطع تقديم مساعدة حقيقية للعالم إبان الحرب، ومثلي غيري من الفتيات".

قال روجر: "لقد كان وقتًا عصيبًا دون شك. عبثت الحرب بعقول الجميع، ناقضت ونفت العالم الذي اعتدت على العيش فيه. لا أستطيع شرح ما مررت به، قولي لي: كيف شعرتِ حيال ذلك؟. كنت مستعدًا لفعل أي شيء لإيقاف هذه الحرب الشعواء في عالم استحال الجميع فيه إلى قساة ومعاتيه يفتقدون إلى الحكمة.علّمت نفسي أن أفرم نصف ما قرأته في الصحف. رأيت العالم يتشبث بصنوف الغضب العمياء.

ما رأيت شجعانًا قادرين على مواجهة العبثية الوحشية، بل رأيت العاطل والمخادع يتمرغان في رغد العيش، في حين أن الشجعان يسيرون نحو أهوال الجحيم. تحوّل الشعر من كلام حب رقيق إلى أناشيد حماسية تشجع

على التضحية. ربما النصف فقط من قال الحقيقة في شعره. هل قرأت كتاب أندرياس لانزكو "الرجال في الحرب" الذي كان يشرح حقيقة الحرب ممّا أدّى بالحكومة لمنع نشره؟ لمعت عيناه بنوع من الجدية اليائسة، وأردف قائلًا: "لكنني أؤكد لك، العالم سيعرف حقيقة الحرب لا محالة. سنضع حدًا لهذا الجنون معًا. لن يكون الأمر سهلًا. سينتهي الدمار الألماني. السلام الآن يكمن في أيدي الأطفال. عندما يتم تعليمهم أنّ الحرب ما هي إلا آفة بغيضة قد تخضع لها البشرية مستقبلًا. كم هو غريب عزوف البشرعن مواجهة الحقيقة؟ أعتقد أنّ تزييف الحقائق يشعرهم بالفضيلة". توقّف روجر هنيهة عندما رأى ولدًا صغيرًا في طريقه إلى المدرسة مسرعًا. ومن ثمّ تابع حديثه قائلًا: "كلّ طفل قد يخون الإنسانية في المستقبل، الإنسانية التي لم تبذل جهدًا كافيًا لتشوه فكرة الحرب في رأسه منذ الصغر".

قالت تيتانيا: "بالتأكيد، لا أحد ينكر ذلك، لكنني أظنُّ أن هناك جانبًا إيجابيًا للحرب كما أنّ هناك جانبًا سلبيًا بالطبع. تجلت شجاعة الجنود بذهابهم لأرض المعركة وهم مدركين للخطر الذي ينتظرهم. لكنهم رغم ذلك ذهبوا وبكل سرور إيمانًا منهم بمحاربتهم من أجل قضيتهم العادلة".

قال روجر بحدّة واضحة: "القضية العادلة ليست بحاجة إلى التضحية بملايين الأرواح البريئة. لا تتصوري أنني لا أرى النبل الكريه الذي يتشدقون به. لا ينبغي على الإنسانية أن تدفع ثمن هذا النبل البغيض. هذا أشدُّ ما يثير الاستياء في المأساة بأكملها. ألا تعتقدين أن الألمان ظنوا أن قضيتهم عادلة أيضًا، عندما أجبروا العالم على المرور بهذا البؤس والشقاء؟ جيل بأكمله تعرض للتنويم المغناطيسي. الفخر، والروح الوطنية، وسذاجة الرجال، وسهولة استغلال غريزتهم، جعلتهم يقدسون الحرب أكثر من أي شيءٍ آخر. ذهلت بدوري وصرخت بكل حماس عندما رأيت الأعلام والمسيرات الوطنية. عدت إلى المنزل حينها وأقسمت ألّا أضلل ثانيةً. دعونا

نحب العالم، نحب الإنسانية، وليس فقط بلدنا! لهذا أنا حريصٌ جدًا على الدور الذي سنلعبه في مؤتمر السلام".

جادلت تيتانيا بشجاعة ولم تشعر بالفزع أو القلق طوال محادثتها مع الرجل العجوز. أخبرها حدسها أنّ الرجل العجوز يريد أن يفرّغ ما في جعبته. وبطريقة غامضة تعلّمت أعظم وأندر مواهب الروح خلال محادثته ألا وهو التسامح. قالت: "حبّك لبلدك أمر مفروغ منه".

قال روجر: "هيا، لنعود إلى الداخل. أريد أن أريكِ بعض كتب الحروب". وأضاف: "بالطبع أحبُّ بلدي، وأودُّ أن أراها تأخذ زمام المبادرة في إحلال حقبة جديدة على هذا العالم".

قالت تيتانيا: "لا أعرف لماذا تصف الحرب بالعبثية، كان علينا هزيمة ألمانيا. وإلا لما صرنا مقرًا لحضارة هذا العالم".

t.me/t_pdf

قال روجر: "نعم، كان علينا هزيمة ألمانيا. لكنّ العبث يكمن في حقيقة أننا اضطررنا إلى هزيمة أنفسنا أيضًا. عندما يبدأ مؤتمر السلام سيتعين علينا مساعدة ألمانيا للوقوف على قدميها مرةً أخرى، وإطعام شعبها الجائع، ومحاولة إنعاش اقتصادها، كي تتمكن من دفع التعويضات. وعلينا أيضًا مراقبة المدن كي لا تثور وتحرق البلاد. ما الذي نتج عن كل هذا؟ رجال خاضوا الحرب الأكثر بشاعة في التاريخ، وتحملوا أهوال المجهول. إذ لم يكن هذا عبثًا فماذا يكون؟ هذا ما يحدث عندما تغضب دولة عظمى مثل ألمانيا.

نحن في خضم مشاكل معقدة على نحوٍ رهيب. عزائي الوحيد هو إيماني بمقدرة بائع الكتب على لعب دور في إعادة بعض العقلانية والمنطق لهذا العالم. اعتدت على ترديد سطرين عندما أشعر بالقلق إزاء ما يمكنني المساهمة به إنهم لشاعري المفضل العزيز جورج هربرت:

مقدار ضئيل من المجد المختلط بالتواضع

مكتبة

كفيل بشفاء الحمى واللامبالاة...

من المؤكد أن إدارة متجر للكتب المستعملة أمر متواضع، لكنني خلطت معها ذرةً من المجد. تحوي الكتب كما تعلمين على أفكار وأحلام البشر، آمالهم ووجودهم، إنها الجزء الخالد منهم. نتعلم مدى روعة المرور بهذه الحياة من الكتب. لم أدرك أبدًا عظمة الروح الإنسانية، إرادة الإنسان الفذة التي لا تقهر، إلى أن قرأت آريوباجيتيكا[1]. هذا الكتاب فجّر فورة كبيرة من الغضب بداخلي، لأننا ننتمي لنفس النوع الذي ينتمي له كاتب هذا العمل جون ميلتون. الكتب ما هي إلا ضمان وجودنا الإنساني، ولعلها أكثر ما يستحق أن نعتز به في قلوبنا. لطالما أعلت الكتب من شأن الإنسان وساهمت في نشر الجمال والاهتمام بالحياة. الكاتب هو الرسول المبعوث ليوضح الحقائق دونما تلميع. وبائع الكتب بمنزلة الساعي عن الحقيقة". أشار إلى القسم الذي وصل له وتابع قائلًا: "هنا أروع ما أنتجت الإنسانية عن الحروب. أخشى أنه لا سبيل لإنكار تفوق البارود على الحبر في الأعوام الماضية، ولعل التعليل المربك الوحيد على ذلك هو سهولة تفجير إنسان في جزءٍ من الثانية، لكن قد يستغرق منك الأمر عشرين عامًا لتصل بالكتاب إلى عقل أحدهم. هناك مسرحية لتوماس هاردي، "العائلات"، هذا النوع من الكتب قد يفجّر عقلكِ ويتركك لاهثةً ومريضةً، وعلاوةً على ذلك يصيبك شعور بالغثيان. هناك بارود من نوع آخر في هذا الكتاب من شأنه تفجير الكرة الأرضية بأكملها!" واسترسل قائلًا: "أمّا فيما يتعلق بالحرب، تخيلي ما أنجزته الكتب وقتها. ما أول شيءٍ بدأت بفعله الحكومات إبان الحرب؟ نشرت الكتب! أدركوا أن البنادق ستكون بلا جدوى إن لم تكن هناك كتب

(1) آريوباجيتيكا: خطبة السيد جون ملتون في حرية الطباعة غير المرخصة، إلى برلمان إنجلترا عبارة عن سجال نثري كتبه الشاعر والدارس والمؤلف المجادل الأنجليزي جون ملتون عام 1644 معارضًا الترخيص والرقابة على المطبوعات.

بجانبها لتؤازر الجنود وتشحذ همتهم. كانت الكتب فعالة بقدر الرصاص والقنابل في إغواء الولايات المتحدة لدخول الحرب. بعض الكتب الألمانية ساهمت بإزاحة القيصر عن عرشه، أنا اتّهمهم بذلك علانيةً، ورائعة الألماني فيلهلم مولون "خراب أوربا"[1] تشهد على ذلك، ومذكرة كارل ماكس[2] الديبلوماسية السرية التي صعقت ألمانيا ومؤسساتها لأنها فضحت الحقيقة تشهد على ذلك أيضًا. ها هو كتاب "الرجال في الحرب" كتبه كما أعتقد ضابط مجري بتفانٍ نبيل. وهنا تجدين بعض الكتب الفرنسية، التي كان لها من العمق والوضوح ما يكفي لتتفوق على كل كتب الحرب في أوربا بكلِّ سخريتها اللاذعة والمشتعلة كما اللهب آنذاك. رومان رولان[3] نشر عمله "السمو على المعركة" من المنفى في سويسرا، هنري باربوس[4] وروايته "الجحيم"، جورج دوهاميل وكتاب "الحضارة"، وبول جورجية بروايته "معنى الموت" التي تتميز بغرابة آسرة. وهناك العديد أيضًا من كتب الحرب الإنجليزية المحترمة منها: "طالب في العسكرية" لدونالد هانكي، و"لماذا يقاتل الرجال"[5]

---

(1) The Vandal of Europe كتاب كتبه الديبلوماسي الألماني فليهلم مولون عام 1918 يعرض الأعمال الداخلية لسياسة ألمانيا للسيطرة على العالم، وتبعاتها الوحشية. (المترجمة).

(2) ديبلوماسي ألماني عمل سفيرًا لدى المملكة المتحدة وفي منتصف عام 1914 استنكر سياسة ألمانيا وقال: إنها هي من تسببت بإندلاع الحرب العالمية الأولى. (المترجمة).

(3) (29 يناير 1866 – 30 ديسمبر 1944) أديب فرنسي، من قادة فكر المدافعين عن السلام. حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1915. (المترجمة).

(4) هنري باربوس (17 مايو 1873 – 30 أغسطس 1935) كان روائيًا فرنسيًا وعضوًا في الحزب الشيوعي الفرنسي اشتهر بروايته "الجحيم". (المترجمة).

(5) "لماذا يتقاتل الرجال: طريقة لإلغاء الحروب الدولية" هو كتاب كتبه عالم الرياضيات والفيلسوف برتراند رسل عام 1916 ونشر أيضا تحت عنوان "أساسيات إعادة البناء الاجتماعي"، وكتبه ردًا على الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الأولى، يعرض الكتاب أفكار برتراند رسل عن

لبرتراند راسل، كنت آمل لو كتب كتابًا آخر بعنوان "لماذا يسجن الرجال"، هل تعلمين أنه سُجن بسبب وجهات نظره و نشاطه الداعي للسلام خلال الحرب العالمية الأولى؟! وإليك هذا الكتاب، المحرك للمشاعر والأكثر إثارةً للعواطف الجياشة من بين كتب الحرب، "رسائل آرثر جورج هيث" شاب لطيف وحساس، معلم في أوكسفورد قُتل وهو يحارب في الجبهة الغربية. لا بد أن تقرأي هذا الكتاب. فهو يظهر لكِ حقيقة أننا لم نضمر الكراهية للألمان. آرثر وأصدقاؤه كانوا يستمعون إلى أغانٍ ألمانية في الليلة التي سبقت مقتلهم. أحبوا الموسيقى الألمانية واستمعوا إليها كوداع لحياتهم الوادعة. نعم هذا ما تفعله الحروب؛ تحصد أرواحًا كروحِ آرثر. أرجوك اقرأي الكتاب. سيتعين عليكِ بعدها قراءة قصائد فيليب غيبس، و لويس ديكنسون وقصائد جميع الشعراء اليافعين. بالطبع قرأتِ لديكنسون، فالجميع فعل".

قالت تيتانيا: "ماذا عن كتّابنا؟ ألا يوجد عندهم ما يستحق القراءة؟"

أجابها وهو يعيد إشعال غليونه: "بلى، هناك كتاب ينضح بالفلسفة العميقة، وكثير من الأفكار البراقة أيضًا". وسحب نسخة من رواية "جاري البروفيسور لاتمير" لسيمون سترونسكي[1] وقال: "هناك اقتباس، ماذا كان؟ دعيني أرى، ها هو، سأقرؤهُ عليكِ: "إذا أجريت استطلاعًا لرؤساء تحرير الصحف ستجد معظمهم يقرُّ بأن الحرب ما هي إلا شرٌ محض، لكن إذا كنت ستجري تعدادًا لرعاة الكنائس الحديثة والعصرية، ستصيب كبد الحقيقة! إذ قدمت الكنسية لنفسها أكثر ممّا فعل المفكرون إبان الحروب". هناك فقرةٌ أخرى تشير إلى القيمة الفلسفية لغسل أطباق الطعام. هناك عدة أفكار في الرواية حقيقةً تتوافق مع فلسفتي الخاصة ونظرتي للأمور. كم أودُّ

الحرب، والسلام، والمنطق، والدافع، والحرية الشخصية. (المترجمة).

(1) كاتب أمريكي يهودي روسي المولد. من الأفضل تذكره ككاتب تحرير بارز في صحيفة نيويورك تايمز لأكثر من عقدين. (المترجمة).

مقابلة مؤلف هذا العمل، كنت آمل لو كتِب هذه الرواية هنا".

لم تعرف تيتانيا كم كان ليستمر مونولوج بائع الكتب هذا. إلاّ أنه -ولحسن الحظ- قاطعته السيدة هيلين صائحةً من المطبخ: "يا إلهي، روجر! لقد سمعتك تثرثر لمدةٍ طويلة. يا لتيتانيا المسكينة، ماذا فعلت؟ حاصرتها وألقيت عليها محاضرة من محاضرات تشاتاكوا[1]؟ لا بد أنك أرعبتها بما يكفي لتكره تجارة الكتب".

أحسَّ روجر بالخجل قليلًا وقال: "عزيزتي، كنت فقط أشرح بعض المبادئ الأساسية في تجارة بيع الكتب".

استدركت تيتانيا الموقف ببراعة وقالت: "لقد كنت مستمتعة جدًا، إنها الحقيقة".

السيدة ميفلين بمئزرها الأزرق الفاخر، ويديها الناعمتين كالدقيق والممتلئتين إلى المرفق، غمزت بعينيها لتيتانيا وقالت: "عندما يتسلل شعور الضجر إلى روجر من تجارة الكتب وعالمها، يلجأ إلى عواطفه المثالية ويسهب بحديثٍ ذي شجون عن فضائل الكتب وما إلى ذلك، فقط كي يخدع ذاته".

احتجّت تيتانيا قائلةً: "لقد حظيت بوقتٍ ممتع للغاية. تعلمت الكثير وكنت أخشى كل دقيقة أن يأتي أحدهم ويقاطع السيد ميفلين".

قالت السيدة هيلين وهي عائدة إلى المطبخ: "لا تقلقي، الزبائن لا يأتون إلى المتجر في الصباح الباكر".

---

(1) Chautauqua كانت حركة لتعليم الكبار في الولايات المتحدة، وقد حظيت بشعبية كبيرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. توسعت جمعيات Chautauqua وانتشرت في جميع أنحاء أمريكا الريفية حتى منتصف 1920 عادةً ما تتم المحاضرات في مكان خارجي تحت الخيام حيث يمكن للجمهور حضور محاضرة أو عرض. (المترجمة).

استأنف روجر حديثه قائلًا: "حسنًا يا تيتانيا، أنتِ تدركين ما أرمي إليه. أريد أن أعطي الناس تصورًا جديدًا كليًا عن متاجر الكتب. أريدهم أن يأتوا إلى المكان بغية الشعور بطاقة إيجابية، أريد لهم أن يروا الكتب تشعُّ جمالًا وحقيقة. بعض الأصدقاء في اجتماع نادي الذرة أخبروني أن الكتب ما هي إلا بضائع مكدسة. حسنًا، ماذا عن كتب فريدريش فون بيرناردي؟![1] هراء".

قالت تيتانيا: "لم أقرأ أعماله من قبل".

قال روجر: "هل لاحظتِ يومًا كيف تتبعك الكتب وتطاردك؟ إنها تطاردك كما تطارد قصيدة فرانسيس طومسون "ملاحقة السماء"[2] باقي قصائده. إنهم يعلمون أنكِ طريدة! انظري لكتاب "تعليم هنري آدمز"، وكيف يطارد عقول الناس هذا الشتاء! وفرسان رؤيا يوحنا الأربعة تستطيعين رؤيتهم يجرون في عروق القراء! إنه أمرٌ غريب وخارق للطبيعة، أرى أنّ الكتاب لا ينفك يطاردك إلى أن تجلسي في زاويةٍ ما وتبدئي بقرائته! هناك كتاب قديم غريب يطاردني لسنوات: "حياة جون بونكل وآراؤه" لتوماس أموري[3] حاولت الفرار منه لكنه يستمر في مطاردتي بين الحين

---

(1) Friedrich von Bernhardi (نوفمبر 1849 – 11 ديسمبر 1930) مؤرخ عام وعسكري بروسي. كان كاتبًا قبل الحرب العالمية الأولى. ولعله اشتهر بكتابه العنيف "ألمانيا والحرب الثانية"، الذي طُبع في عام 1911. وأيد سياسة العدوان الوحشي والتجاهل التام للمعاهدات واعتبر الحرب "عملًا إلهيًا". (المترجمة).

(2) the hound of heaven هي قصيدة من 182 سطرًا كتبها الشاعر الإنجليزي فرانسيس طومسون. أصبحت القصيدة مشهورة وطغت شهرتها على كل قصائده الأخرى. (المترجمة).

(3) توماس أموري هو كاتب أيرلندي (1691 – 1788). نشر مذكرات تحتوي على حياة العديد من سيدات بريطانيا العظمى، وتاريخ الآثار، وملاحظات حول المسيحية. (المترجمة).

والآخر. سيقبض عليَّ يومًا ما، وسأكون عندها مضطرًا لقراءته. عشرات الكتب فعلت ذلك، فلديها طرق ماكرة جدًا في الوصول إلى القارئ. ستعتقدين أنك تخطيت تلك الكتب وقمتِ بنفضهم من رأسك، حينئذ يأتي زبون بريء المظهر، ويبدأ فجأةً بالثرثرة عن ذات الكتب عندئذ تتسلل خلسةٍ وبخفة متناهية إلى اللاوعي لديكِ".

وتابع: "هناك قبطان كهل يأتي إلى هنا بين الفينة والأخرى، هو من كتب قصص الكابتن ماريوت. عندما يظهر هنا أصبح تحت تأثير سحره وكأنه يلقي عليَّ تعويذة ما. أعلم في قرارة نفسي أن عليَّ قراءة رواية "بيتر سمبلي" لفريدريك ماريات قبل أن أموت، وذلك لأن أصحابي قرؤوها وأحبوها. لذا أدعو هذا المكان "متجر الأشباح". مسكون بأشباح الكتب التي لم أقرأها بعد. أرواح قلقة ومضطربة، تدور وتدور من حولي. هناك طريقة واحدة فقط لإراحة هذه الأشباح وهي قراءة كتب أصحابها، هذا ما يجعلها تستكين وتستقر".

قالت تيتانيا: "حسنًا فهمت ما تقول، لم أقرأ الكثير، لكنني أعرف الآن أنه يتحتم عليَّ ذلك. وبمناسبة الحديث عن الأشباح ومطارداتها، لماذا كل هذا الاهتمام بمؤلفات أوليفر كروموبل؟"

قال روجر: "نسيت إعادة الرواية إلى الرف، شكرًا لتذكيري". وفي تلك اللحظة رنّ جرس الباب معلنًا عن وصول عميل.

7

أوبري يغير مسكنه

أنا متيقن من أن السيد أوبري جيلبرت ليس مثاليًا البتة، ولا يرقى ليصبح محور الرواية. ما زال يحتاج بعض الوقت لينضج. عندما "رفضه الجيش رفضًا تامًا" على حد تعبيره، لجأ إلى خدمة لجنة الإعلام، وقام بأنشطة غامضة لخدمتهم لمدة عام أو نحوه، إلى أن تم توقيع الهدنة. أضحى الآن منسيًا تمامًا من وزارة الإعلام بسبب خطأ في الحكم من جانبه بعد انتهاء الحرب وانتعاش الاقتصاد. عيّن في وكالة غري ماتر للإعلانات، أعجب مدراؤه بنشاطه المتقد، وروحه المفعمة بالحيوية، ومرحه الدائم. وفي مرحلة ما بعد الحرب وللتسويق لأعماله التجارية أوصله القدر إلى متجر الكتب المسكون. ربما كان من الواجب تقديم هذه التفسيرات في وقتٍ سابق. على كل حال استيقظ أوبري في الوقت الذي كانت فيه تيتانيا تنفض الغبار عن الصناديق الموضوعة عند مدخل متجر الكتب. وبما أنه يوم سبت أي "نصف إجازة" لم يشعر بتأنيب الضمير لبعده عن المكتب. أرسلت له صاحبة النزل قدح قهوة وبيضًا مخفوقًا، وأصرّت على استدعاء الطبيب ليكشف على إصابة أوبري رغم اعتراضه. أتى الطبيب وقام بفحصه وقال: إنه بحاجة لبعض الغرز. وبعد معالجه الطبيب له، عاد إلى النوم واستيقظ في منتصف النهار، شعر أنه أفضل حالًا، على الرغم من الألم المزعج الذي ينبض في رأسه. ارتدى ملابسه وجلس في غرفته المتواضعة. التي لم تكن تحوي إلا حوض غسيل، ومنفضة سجائر، ومجموعة من روايات أوليفر هنري. التقط أحد قصصه المفضلة وبدأ يقرأ لتعزية ذاته، فهو لم يعتد البقاء حبيس الفراش. كنّا قد ألمحنا

إلى أن السيد جيلبرت لم يكن بالشخص الذي نطلق عليه "مهتم بالقراءة والأدب"، فقراءاته تنحصر بين الصحف والمجلات الرخيصة الذي يقوم بشرائها من كشك الصحف. كانت أعظم تسلية له هي تناول وجبة الغداء في نادي الإعلانات وقراءة الكتيبات الإعلانية والملصقات، ومنشورات مثل "أخبرنا بقصتك". مع ذلك يجب أن نغفر لهذا الشاب حبه لروايات أوليفر هنري. فقد أسعدت أرواح كثيرة. أوليفر هنري كاتب ذو موهبة استثنائية، يمكنك قراءة أعماله في جميع الأوقات. لا يهم كم كنت محزونًا، محبطًا، أو مزاجك متكدر، عندما تقرأ قصته "ليلة في جزيرة عربية"[1] ستجد المتعة حتمًا. حدث جيلبرت نفسه متذكرًا مغامرته في بروكلين: "لن أفكر بتشارلز ديكنز وقصص عيد الميلاد. أراهن أن قصة "هدية المجوس" لأوليفر تهزم كل ما خطّه ديكنز يومًا. يا للأسف، مات أوليفر قبل أن يتسنى له إنهاء قصة عيد الميلاد "الصخرة المتدحرجة"! أتمنى من بعض الكتاب الرائدين في مجال القصة القصيرة – مثل إيرفين كوب أو إدنا فيربر – العمل على وضع خاتمة لهذه القصة. لو أنني كنت محررًا كنت سأعين أحدهم ليقوم بهذه المهمة. يا له من عار، قصة أوليفر هنري مرميةٌ يعلوها الغبار ونصف مكتملة".

كان يجلس وسط سحابة ناعمة من دخان التبغ مستغرقًا في أفكاره. عندما دخلت صاحبة النزل تحمل بيدها نسخة من صحيفة الصباح، قالت له: "صباح الخير سيد جيلبرت، جلبت لك صحيفة التايمز الصباحية. الرئيس سيبحر يوم الأربعاء". شكرها أوبري وقرأ العناوين بسرعة وبعين خبيرة تعرف أين تنظر، من ثم وبحكم العادة قام بمسح دقيق لصفحات الإعلانات. قرأ ملاحظة في أعمدة المساعدة المطلوبة استحوذت على اهتمامه بالكامل: "مطلوب بفندق أوكتاغون (وظيفة مؤقتة) خمسة طهاة، وثلاثة

(1) قصة قصيرة كتبها أوليفر هنري في عام 1921 والمقصود بالجزيرة مدينة بغداد (المترجمة)

مساعدين للطهاة، وعشرون نادلًا. التقديم بمكتب الشيف الحادية عشرة مساءً يوم الثلاثاء". همهم وقال لنفسه: "يبدو أنهم سيحلون محل الطهاة الذين سيبحرون بدورهم لإعداد طعام الرئيس. يا له من إعلان لفندق أوكتاغون فقد تم اختيار طهاة الفندق لرحلة الرئيس". تذكر فجأةً أحداث الليلة السابقة، وذهب حيث ألقى معطفه، التقطه وأخرج من جيبهِ غلاف رواية "أوليفر كروموبل" الذي أخذه من الصيدلية، نظر إليه بعناية. وتساءل بينه وبين نفسه: "ما سر النحس المرافق لهذا الكتاب؟ كم هو غريب الأمر، لاحقني مساعد الطاهي بسبب رواية، وعندما دخلت لمتجر الأدوية وجدت غلافها محشور بين المجلدات، ومن ثم انتهى الأمر بوقوعي واصطدام رأسي بسياج خشبي. أتساءل ما إذا كان ذلك الحي آمنًا كفاية لابنة تشابمان". وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا ونسي ألم رأسه.

"ربما يجب عليَّ أن أطلع الشرطة على هذا العمل، رغم أنه لا يبدو من شيمي، لكن موقفي سيكون رائعًا أمام السيد تشابمان أن قمت بإنقاذ ابنته من عملية خطف محتملة. لقد سمعت بوجود عصابة من المختطفين هناك". تردد هنيهة، ثم قال لنفسه: "لا، لا، لا يبدو هذا صائبًا. بائع الكتب نصف معتوه على أية حال. فهو لا يعتقد بالإعلانات ! فكرة أن تشابمان أمّن على ابنته هناك فيها من الحماقة ما يكفي". مخاوفه لم تنبع من كونه كاتب إعلانات، بل من كونه فارسًا ذا حسٍ رومانسي. قال لنفسه: "حسنًا، هذا يكفي. سأذهب إلى بروكلين اليوم. يجب أن أجد غرفةً في شارع غيسنغ لأقيم فيها، وأراقب المتجر عن بعد. وأعرف من يترصد ابنة تشابمان. وسآخذ معي مسدسي للاحتياط فقط. وسأحاول اكتشاف المزيد عن متجر الأدوية". فرح عندما بدأ بإعداد حقيبته الصغيرة وانفرجت أساريره. (ملابس للنوم، فرشاة شعر، فرشاة أسنان، ومعجون أسنان، ولم ينسَ أخذ مسدسه رغم أنه لم يستخدم واحدةً من قبل. قصص أوليفر هنري، وسادة نوم، وماكينة

حلاقة وملحقاتها). قام بإغلاق حقيبته، وارتدى ملابسه ونزل إلى الأسفل ليتناول الغداء. استلقى على فراشه بعد ذلك ليستريح قليلًا، إلا أن طيف تيتانيا وعينيها البريئتين حال بينه وبين النوم. نظر إلى الساعة ولعن تأخر الغسق. في الرابعة والنصف تمامًا انطلق في المترو. حين وصل إلى بروكلين كان الشفق ضاربًا إلى الحمرة، والسماء مستعدة لارتداء حلة المساء. نظر إلى المباني بين شارع غيسنغ وهازليت، بدا له منظرها غريبًا، فمن جانب تبدو عتيقة حيث المنازل الحجرية القديمة، وعلى الجانب الآخر متاجر صغيرة ذات طابع مشرق وحيوي. محلات الأطعمة المعلبة مع مزيج شهي من اللحوم المطبوخة والمخلل والفاكهة المجففة والجبن والمربى ذات الألوان البراقة. خياط الملابس النسائية، غرف غداء مع قوائم للطعام ملتصقة على الواجهات، بائعو الزهور ووكلاء الفاكهة ومتجر حلويات يوناني مع نافورة مياه غازية طويلة مشعة برخام الأونيكس متعدد الألوان ومصابيح زجاجية ملونة وخزانات نيكل من الشوكولاتة الساخنة. متجر قرطاسية تتكدس فيه بطاقات عيد الميلاد، والألعاب، والتقويمات، وكتب أوسكار وايلد، وعمر الخيام التي تظهر كل عام في الأعياد. مثل هذه السلع المتواضعة والمبهجة تجعل الرصيف الغربي لشارع غيسينغ مكانًا ساحرًا عندما تضيء الأضواء. وكأن المتاجر تم تصميمها لعيد الميلاد. هذا القسم من بروكلين له بهجته وأجواؤه الخاصة، كأنه شارع فرنسي في بعض أجزائه: يمكن للمرء أن يتخيل نفسه في شارع باريسي راقٍ يتردد عليه بعض البرجوازيين الصغار. في منتصف هذا الجانب المثير لشارع غيسنغ ينتصب متجر الكتب المسكون، كان بوسع أوبري أن يرى مصابيحه مشتعلة، والكتب مرتبة على الرفوف شعر بإغواءٍ شديد يدفعه نحو الباب، لكن الخجل سيطر عليه، إضافة إلى رغبته في التخفي والمراقبة عن بعد. غمرته البهجة وتحمّس لبداية مهمته الجديدة في مراقبة المتجر. اختار مكانًا للمراقبة من الجانب الآخر في الشارع،

الذي رأى عند نهايته لافتة قرب بهو منزل بها إعلان عن غرف شاغرة، مقابل المتجر تقريبًا. صعد درجات النزل ورنَّ الجرس. ظهرت من خلف الباب فتاة ذات بشرة صفراء قمحية، وسألته عما يريد.

قال لها: "هل يمكنني الحصول على غرفة هنا؟"

قالت له: "لا أعرف، من الأفضل مقابلة السيدة شيلر".

ودلالة على كونها خادمةً غير مدربة لم تدعه إلى الداخل، لكنها لم تقفل الباب وهذا يدلّ على حسن نية. دفع أوبري الباب، ودلف إلى الردهة، وأغلق الباب من خلفه. مرآة ضخمة توسطت الجدار انعكس فيها تراقص شعلة صفراء شاحبة. لاحظ تمثالًا لكلب من نوع لاندسيير معلقًا قبالة الجدار ومصممًا على شكل مستطيلات كبيرة من الحجر الرمادي. ودفتر عناوين الهاتف المعتاد، والموجود في جميع المنازل مدسوس في إطار النافذة. رأى السلم مغطى بالسجاد، مع درابزين خشبي متهالك من خشب الماهوجني. أوبري، الذي كان على دراية تامة بالغرف المؤجرة، عرف غريزيًا أن بعض العتبات ستصدر صريرًا. عبير الرائحة الناعمة داعب دفء الهواء الخدِر ولطّف الأجواء. خمن جيلبرت أن أحدهم قام بتحميص حلوى الخطمي. كان على دراية تامة أيضًا بوجود حوض استحمام في أحد طوابق النزل، مع لافتة كُتب عليها "يرجى تنظيف الحوض بعد الاستخدام وإعادته كما كان". لو كان روجر ميفلين هو من دخل إلى هذا المكان وقام بتفحصه، لقال: "لا بد أن أحدهم يقرأ قصائد روبندرونات طاغور"، لكن جيلبرت لم يكن تهكميًا أو ذا حس سخرية لاذع.

نزلت السيدة شيلر من الطابق العلوي، يتبعها كلب صغير. كانت رقيقة، ممتلئة بعض الشيء، ذراعاها سميكتان. وودودة للغاية. قفز الكلب فوق كاحلي أوبري بمرح شديد، نهرته سيدته قائلة: "توقف عن ذلك، تريجور!"

قال لها أوبري بتهذيب جم: "هل يمكنني الحصول على غرفةً هنا؟"

أجابته: "لدي غرفة واحدة فقط في الطابق الثالث. أنت لا تدخن في السرير، أليس كذلك؟ فآخر شاب استأجر الغرفة حرق ملاءات السرير".

طمأنها أوبري قائلًا: "كلا، قطعيًا".

قالت: "لا نقدم الوجبات هنا. أجرة الغرفة خمسة دولارات في الأسبوع".

قال أوبري: "هذا يناسبني. هل بإمكاني رؤيتها؟"

أشعلت السيدة شيلر غليونها وقادته إلى السلم، تبعها الكلب وجيلبرت. أصدرت العتبة الرابعة صريرًا، وصرخ جيلبرت صرخة الواثق بحدوث أمر كهذا. عند الطابق الثاني تناهى إلى مسامع جيلبرت صوت ماء يتدفق من إحدى دورات المياه، وقال لنفسه: "هذا الشخص خبير بالغرف المستأجرة، فقد اختار أفضل وقت للاستحمام، الخامسة والنصف مساءً، قبيل العشاء، واستنزاف الماء الساخن من المستأجرين الآخرين". صعدوا طابقًا آخر قبل أن يصلوا إلى الحجرة. كانت صغيرة، وتحتل نصف واجهة الطابق الثالث. فيها نافذة كبيرة مفتوحة على الشارع، توفر رؤية واضحة للمكتبة وغيرها من المتاجر عبر الشارع. وهناك تسريحة صغيرة منتصبة وسط خزانة ضخمة. أعلى رف الموقد كانت هناك لوحة من اللوحات المعتادة لسيدة راقية يلمع حذاءها صبيٌّ صغير تبدو عليه أمارات العوز والفاقة.

قال أوبري: "حسنًا، تبدو الأمور جيدة". وأخرج من محفظته خمسة دولارات وقام بإعطائها للسيدة قائلًا: "هذه أجرة الأسبوع".

شعرت السيدة شيلر بالإحباط قليلًا، كانت تأمل تنظيم حفلة استقبال صغيرة للترحيب بضيفها الجديد. أو المزيد من الدردشة الودية والأحاديث القصيرة -عن الطقس مثلًا- أو صعوبة الحصول على نزل جيد للإقامة به،

أو الحصول على خادمة مدربة جيدًا. وجميع زوائد الثرثرة التي تبدو مضيعةً للوقت ليس إلا، لكن هناك غرض حقيقي منها في نظر السيدة، ألا وهو تمكين مديرة النزل المسالمة من معرفة الضيف الغريب الذي رمته الأقدار عند عتبة النزل الذي تديره بكفاءة وحرص. بالكاد تفحّصت الرجل الغريب الذي لم تعرف اسمه حتى، ومع ذلك دفع أجرة الأسبوع الأول واستقرّ في غرفته! أوبري لمح تردّدها وعرف لماذا، لذا قام بإعطائها بطاقة أعماله.

قالت السيدة شيلر: "حسنًا، سأرسل الخادمة مع بعض المناشف ومفتاح لقفل الباب".

جلس أوبري على كرسي هزاز بجوار النافذة، وأزاح الستار المصنوع من الموسلين. تأمل شارع غيسنغ المشرق مع شعور من الفرح يعصف بداخله نابع من تغييره لمسكنه وقربه من الآنسة تيتانيا. لكن سرعان ما خالط شعوره بالرضا شعورٌ مزعج بالسخف والتفاهة، الذي يخشاه الشاب اليافع أكثر من المرض والموت. كان بإمكانه رؤية النوافذ والمصابيح المشتعلة لمتجر الكتب، لكنه وبعد تفكير مطول لم يتمكن من إيجاد عذر كاف للذهاب إلى هناك. وأدرك أن قربه من تيتانيا لم يكن بالعزاء الكافي لروحه المتلهفة. فرغبته في رؤيتها تستعر بداخله كالنار في الهشيم. أشعل غليونه وفتح النافذة، وتركزت نظراته على باب المتجر. رأى الطاولة أمام المتجر، وزبونين يتعذر وصفهما يتحركان أمام الرفوف، يلتقطان كتابًا ويتركان الآخر. فجأةً رأى خيالًا جعل قلبه يخفق بشدة حتى كاد يخرج من مكانه، كانت تيتانيا تبحث عن كتاب على الرفوف. ترتدي قميصًا أبيض بياقة مرتفعة وتنورة بنية. رفع نظره وإذا به يرى ذلك المحيا الوديع، الخد والذقن الناعمين. قال لنفسه: "فكرة أن فتاة بارعة الجمال تعمل في متجر للكتب المستعملة تدفعني للجنون". صرخ بصوتٍ مرتفع: "إنه يدنس شيئًا مقدسًا، لا بد أن ذلك الكهل مجنون". أخرج منامته وألقى بها على السرير، وضع فرشاة أسنانه وماكينة الحلاقة على حوض

الغسيل، ووضع فرشاة الشعر ومؤلفات أوليفر هنري على المكتب. نظر إلى ساعته، ووجد أنها تشير إلى السادسة، شعر بتردد فقد تحير بين البقاء في غرفته أو النزول للشارع ومراقبة المتجر عن كثب. طغى شعور الإثارة الذي أحسَّ به على ألم الجرح المخيط في رأسه. عند مغادرته لماديسون أفنيو كان قد حاول إيهام ذاته أنّ هناك أغراضًا متعددة لهذه الرحلة، وليس فقط مراقبة المتجر لضمان سلامة ابنة تشابمان. ظن أنّ نهاية أسبوع وادعة في بروكلين ستوحي له ببعض الأفكار من أجل إعلاناته، التي يعتزم تقديمها لمديره في مطلع الأسبوع. إلا أنه عند وصوله أحسّ باستحالة نجاحه في هذه المهمة. كيف له أن يتفرغ وبدمٍ بارد لكتابة إعلان جذاب لرقائق بطاطا السيد تشابمان، بينما الحلوى اللذيذة تبعد عنه أمتارًا قليلة فقط؟ لأول مرة تتضح له قدرة الفتيات الشابات على التدخل في تجارة العالم! إلا أنه استسلم أخيرًا، وأخرج ورقةً من محفظته وخط عليها:

مكتبة
t.me/t_pdf

رقائق بطاطس تشابمان

هذه الرقائق الهشة، ممزوجة بمكونات سرية

ذات نكهة فريدة من نوعها، وفوائدٌ سحرية

لكن الوجه الملائكي حال بين عقله ويده. ما فائدة إغراق المحلات برقائق بطاطس تشابمان، في حين أن ابنته عرضة لخطر محتمل؟ تصاعد طرق خافت على باب حجرته وظهرت السيدة شيلر.

قالت: "اتصال هاتفي من أجلك يا سيد جيلبرت".

قال جيلبرت بذهول: "من أجلي أنا؟ كيف يمكن أن يتصل بي أحدهم؟ وأنا لم أخبر روحًا عن وجهتي فضلًا عن مكان إقامتي؟"

قالت السيدة شيلر: "طلب الرجل على الهاتف التحدث مع النزيل الذي

حضر منذ نصف ساعة، وأعتقد أنه يعنيك أنت".

قال جيلبرت: "وهل أفصح عن هويته؟"

أجابت السيدة بالنفي، وللحظة فكر أوبري برفض المكالمة، إلا أنه خشي مغبة إثارة شكوك السيدة شيلر. تبع السيدة والتقط الهاتف، الذي كان أسفل السلم في القاعة الأمامية.

قال أوبري: "مرحبًا".

قال الطرف الآخر بصوتٍ أجش: "هل أنت الرجل الذي دخل النزل قبل نصف ساعة؟"

قال أوبري: "نعم، أنا، من يتحدث؟"

قال الطرف الآخر: "أنا صديق، أتمنى لك الخير".

قال أوبري بلطف: "كيف حالك أيها الصديق؟".

قال الطرف الآخر: "أريد أن أحذرك من شارع غيسنغ، فهو ليس آمنًا كفايةً لك".

صاح أوبري بحدة قائلًا: "من أنت؟"

قال المتصل: "أنا صديقك. هير فرويند. كنت من الأشخاص الذين ساعدوك حين ارتطم رأسك في السياج الخشبي. راقب خطواتك".

حصل انقطاع لثوانٍ معدودة ومن ثم عاد الصوت.

قال المتصل مرةً أخرى: "راقب خطواتك. شارع غيسنغ خطر عليك الآن". وأغلق الهاتف.

عاد أوبري لحجرته مشوش الذهن، وفي حيرة من أمره. جلس في الظلام بجانب النافذة، يفكر بعمق ويدخن غليونه، وعيناه مصوبة نحو

متجر الكتب. لم يعد هناك أي شك في ذهنه أنّ هناك شيئًا شريرًا يُخطط له. واستعرض في ذاكرته أحداث الأيام القليلة الماضية. يوم الاثنين، أخبره صديق يبيع الكتب لأول مرة عن متجر الكتب المسكون بشارع غيسنغ. مساء يوم الثلاثاء ذهب في جولة ليستطلع المكان، وبقيَ لتناول العشاء مع السيد ميفلين. في يومي الأربعاء والخميس كان مشغولًا في المكتب. يوم الجمعة تناول العشاء مع السيد تشابمان، وواجه سلسلة غريبة من الصدف. قام بجدولة المهم منها:

(1) الإعلان عن الرواية المفقودة في التايمز صباح يوم الجمعة.

(2) رئيس الطهاة في المصعد يحمل الكتاب المفقود، نفس الرجل الذي رآه أوبري في المكتبة مساء يوم الثلاثاء.

(3) رؤية الشيف مرة أخرى في شارع غيسنغ.

(4) عودة الكتاب إلى المكتبة.

(5) قال ميفلين: إن الكتاب سُرق منه. ثم لماذا الإعلان عن فقدانه؟

(6) العثور على الغلاف الأصلي للرواية في متجر أدوية وينتروب.

(7) الرسالة الهاتفية من "صديق".

لقد تذكر الوجه الغاضب لرئيس الطهاة عندما تحدث إليه في المصعد. حتى هذا غريب. الحادثة التي حصلت له كانت غريبة أيضًا. تساءل إن كانت مدبرة؟ وهل غلاف الرواية في متجر الأدوية متصل بها بأي شكل من الأشكال؟ ذهب إلى معطفه وأخرج غلاف الرواية، وأخذ ينظر إليه بتمعن، كان من الورق الأزرق العادي، ختم العنوان بالذهبي على ظهره، وفي الجزء السفلي نقشت حروف: تشابمان وهول. كان واضحًا أن الكتاب كان سمينًا.

داخل الغلاف الأمامي، كان الرقم 60 مكتوبًا بقلم رصاص، هذه علامة

سعر روجر ميفلين. داخل الغطاء الخلفي وجد الرموز التالية:

المجلد. 166-3، 174، 210، 329، 349 329 وما يليها. راجع w w

كُتبت هذه المراجع بالحبر الأسود، بالأسفل وبخط مختلف تمامًا و بحبر بنفسجي باهت، كُتب:

153 (3) 1، 2

قال لنفسه: "أعتقد أن هذه أرقام صفحات، أظنّ أنه من الأفضل إلقاء نظرة على هذا الكتاب".

وضع الغلاف في جيبه وخرج ليتناول وجبة العشاء. قال لنفسه: "إنه لغز له ثلاثة جوانب؛ المتجر المسكون، ومتجر الأدوية، والحادثة".

8

أوبري يذهب إلى السينما،
ويتمنى لو أنه يتحدث الألمانية

كان مطعم الغداء الصغير الذي سُمِّي باسم مدينة ميلووكي العظيمة، على بعد بضع خطوات من متجر الكتب، واحدٌ من تلك المطاعم الممتعة، حيث يمكنك تناول طعامك جالسًا على كرسي مسطح، ومراقبة المشاة من الواجهة الزجاجية. تناول أوبري الحساء ولحم البقر وكعك النخالة، كان يمشط الرصيف بعينه طوال جلوسه هناك. رأى بائع الكتب يخرج إلى الرصيف، ويبدأ في إزالة الكتب من الصناديق. بعد الانتهاء من وجبة العشاء، أشعل أوبري سجائره (لم تكن من النوع القوي، لكنها مرضية بالنسبة له) وجلس في الدفء المريح قرب الموقد، تمدّدت قطة سوداء على الكرسي بجانبه باسترخاء تام. كان هناك قرقعة خفيفة لصحون الفخار، وزبائن عرضيون يلتقطون طعامهم على عجالة. هذا الصخب اللطيف أعطى أوبري شعورًا من الاسترخاء أحسَّ به يسري في عروقه. بدا له شارع غيسنغ نشطًا للغاية في ليالي السبت. تخيّل أحداثًا درامية تحدث في متجر للكتب المستعملة كان بالتأكيد أمرًا غريبًا بالنسبة إليه. لم يكن مرتاحًا مع المسدس الذي ربطه على وركه أسفل ملابسه. يا للغرابة! كيف لوجبة عشاء ساخنة تجعلك تنظر للأمور من زاوية مختفلة كليًا؟! لا بد أن أعتى المجرمين خططوا لجرائمهم قبل تناول العشاء، ولا بد أن أفصح الشعراء كتبوا أجمل قصائدهم قبل العشاء أيضًا. شعر بالتلهف للحصول على التسلية بعد الخدر الذي أحس به فور إنهائه لطعامه. تساءل ما إذا كانت شكوكه السيئة مبالغًا فيها. اعتقد

أنه سيكون لطفًا منه أن يذهب إلى متجر الكتب ويسأل تيتانيا أن ترافقه إلى دارعرض الأفلام. يا لها من فكرةٍ ساحرة! كانت الفكرة ما تزال تتوهج في عقله عندما رأى تيتانيا والسيدة ميفلين يخرجان من المتجر. مرّا بخفة من أمام المطعم وهما منهمكتان في حديثٍ مرح، تعالت أصوات ضحكاتهما، وبدا محيا تيتانيا ساطعًا ونابضًا بحيوية الشباب. تأمّل في أسارير وجهها، كان جيد التقسيم ملائكي الطلة. قال لنفسه: إن هذا الجمال جمالٌ فرنسي قديم، ولا بد أنها ورثت ملامح العجوز تشابهان فهو بهيّ الطلعة أيضًا. ابتسم لفكرة ماكرة طرأت عليه، والتقط قبعته والمعطف وخرج مسرعًا. كانت السيدة ميفلين وتيتانيا على بعد بضعة ياردات منه في الشارع، توقفتا لتنظرا إلى بعض الأغطية الصغيرة المعروضة في نافذة أحد المحلات. أسرع أوبري خطواته عابرًا الشارع، وركض حتى الزاوية التالية، والتفّ، ومشى أسفل الرصيف الشرقي. بهذه الطريقة كان سيقابلهم كما لو كان قادمًا من المترو. لقد شعر بحماسة أكثر من عودة الملك ألبرت إلى بروكسل. رأى السيدتين مقبلتين نحوه، والسيدة ميفلين تبدو أصغر سنًا بصحبة رفيقتها، تتهمسان وتضحكان. ظهر جيلبرت أمامهما وحيّاهما بحرارة عميقة متظاهرًا بالمفاجأة لرؤيتهما.

قالت السيدة ميفلين: "يا للمفاجأة!، لم نتوقع رؤيتك". وأضافت وهي مستمتعة بورطة الشاب الذي يقف أمامها مرتبكًا: "هل أتيت لرؤية روجر؟"

صافح يد تيتانيا بحرارة وود. أراد أن يجد كلمات توحي بأسلوب قارئ عتيق الطراز، لكن تبخّرت الحروف على نحو غامض. لم يرَ عبوسًا أو امتعاضًا على محيا تيتانيا لرؤيته مرة أخرى خلال فترة قصيرة، وهذه إشارة جيدة في نظره. وقال بنبرة حزينة يملؤها الرجاء: "لماذا، كنت آتيًا لرؤيتكم جميعًا". وأضاف متلعثمًا: "كنت أود أن أرى آداء تيتانيا في العمل كبائعة كتب، فقد كنت أتساءل عن مدى انسجامها معكم وفي المتجر".

قالت السيدة ميفلين مشفقةً عليه: "لقد تركنا السيد ميفلين ليتهم بالمحل. إنّه مشغول ببعض زبائنه القدامى. لماذا لا تأتي معنا إلى دار عرض الأفلام؟"

قالت تيتانيا: "نعم، فلتأتي رجاءً. سيعرض فيلم من بطولة السيد والسيدة سيدني درو[1]".

وافق أوبري على عرض السيدتين بسرعة البرق. بل إنه فاض سرورًا، أحسَّ بالجذل يغمره ليس فقط كونه ذاهبًا برفقة السيدتين للسينما، وإنما لقربه من تيتاينا وتمكنه من حمايتها.

سأل تيتانيا: "كيف وجدتِ بيع الكتب؟"

أجابت: "إنها متعةٌ عظيمة! لكن الأمر سيأخذ مني وقتًا طويلًا للتعرف على جميع الكتب. يأتي الزبائن ويسألون كل أنواع الأسئلة الغريبة".

قالت السيدة ميفلين: "ستعتادين على ذلك. انتظراني من فضلكما، سأقصد متجر الأدوية لدقائق معدودة".

وقف جيلبرت بالقرب من بوابة المتجر، لاحظ أن البائع يحدق فيه على نحوٍ مريب. استطاع رؤية البائع وهو يخط بقلم حبر بنفسجي باهت على صندوق مشتريات السيدة ميفلين، وقرر في قرارة نفسه مقارنته مع الخط على الغلاف. أمام دار عرض الأفلام أصرَّ جيلبرت على شراء التذاكر.

قالت تيتانيا: "خرجنا بعد العشاء مباشرةً كي نتجنب الازدحام، مع ذلك ليس من السهل الوصول قبل معجبي الأفلام من سكان بروكلين". اضطروا إلى الوقوف في ردهة مكتظة بمحبي الأفلام. كان أمامهم شاب يراقب حشد الانتظار. ارتعش أوبري من فرط بهجته، وبدا متلهفًا لحماية تيتانيا من الزبائن المتدافعين، مدَّ ذراعه وراءها مثل قضيب حديدي. تمكنوا

(1) السيد والسيدة سيدني درو، فريق كوميدي أمريكي اشتهر على المسرح والشاشة. (المترجمة).

في النهاية من الوصول إلى الداخل بعد طول انتظار، رأى أوبري ثلاثة مقاعد شاغرة، وتوجه نحوها على الفور، رغم أنّ الرؤية سيئة من مكانه إلا أنه قبِل الأمر، فقد كان المهم بالنسبة إليه الجلوس بجانب تيتانيا فحسب.

قالت تيتانيا: "من حسن الحظ أنني تمكنت من الوصول إلى المتجر في هذا الوقت. تلقى السيد روجر مكالمة هاتفية من فيلادلفيا هذا الصباح، تتطلب حضوره هناك لمعاينة مكتبة سيتمّ بيعها. سأعتني بمتجر الكتب حتى عودته".

قال جيلبرت: "هل هذا صحيح؟ سأتواجد الاثنين في بروكلين لأمور العمل، ربما تسمح لي السيدة ميفلين بالمرور على المتجر وشراء الكتب منكِ".

قالت السيدة ميفلين: "نرحب دائمًا بالزبائن".

قال جيلبرت: "لقد شغلني أمر رواية كروموبل، كم السعر الذي سيعرضه السيد ميفلين من أجلها بظنكم؟"

قالت تيتانيا: "لا بد وأنّ السيد ميفلين يرى أنّ لهذه الرواية قيمة كبيرة، فقد أتانا عميل بعد ظهر اليوم وأراد شراءها إلا أن السيد ميفلين رفض بيعها تمامًا".

أطفئت الأضواء، وبدأ عرض الفيلم. لم يتمكن جيلبرت من مقاومة سحر اللحظة واسترق نظرة خاطفة لتيتانيا وهي تنظر لشاشة العرض، رأى انعكاس الضوء يتراقص وسط حدقتي عينيها. كيف لها ألّا تلاحظ نظراته لها، كيف لها ألا تلاحظ النار المستعرة في داخله. هذا ما كان يدور بخلده طوال عرض الفيلم.

قالت السيدة هيلين بنبرة غاضبة: "لا يمكنني الفهم أبدًا، لماذا لا يقتبسون

من بعض الكتب الجيدة حقًا ويقومون بتصويرها؟ كتب فرانك ستوكتون[1] على سبيل المثال".

قالت تيتاينا: "مرحى، إنها المرة الأولى منذ أن أتيت إلى متجر الكتب، يقوم أحدهم بذكر كاتب كنت قد قرأت بعض أعماله مسبقًا. هل تعلمين أنّ السيد والسيدة درو يذكراني بكِ وبالسيد روجر، خاصةً حين ذهبا إلى شهر العسل".

قهقه أوبري والسيدة ميفلين على سذاجة أفكار تيتانيا وعلى الربط البريء بين العلاقات الذي قامت به. عندها بدأ الجهاز بعرض جزء: "كم أكره الاستيقاظ في الصباح" ظهر السيد والسيدة درو الفاتنين وهم يؤديان عرضًا منزليًا. محبو الأفلام وصلوا إلى العصر الذي فيه الممثل والممثلة يسخرون كل مواهبهم وطاقاتهم في خدمة آلات التصوير ليلًا ونهارًا فقط كي يبهروا معجبيهم. شعر أوبري بسرور هادئ وحميم لمشاهدته هذا الجزء وهو يجلس بجانب تيتانيا. أثار مشهد مائدة الإفطار لواعج الهوى بصدره، وتمنى أن يتلاعب بالقدر بطريقةٍ ما ويحظى بهذه الفتاة إلى الأبد. لا بد أن لهذا الفتى مخيلة جامحة، رغم أنه من الأمور المسلم بها أن تراوده مثل هذه الخيالات. فتواجد شاب يافع وأعزب حول آنسة جميلة لا بد وأن يدفعه للتفكير بالزواج منها. الشاب سيتخيل ألف زواجٍ في حياته قبل أن يذهب إلى مبنى المدينة ويستخرج ترخيصًا حقيقيًا للزواج. حينئذ تذكّر أوبري مناظير الأوبرا[2] التي يحملها في جيبه وأخرجها فورًا. استمتع الثلاثة برؤية وجه السيدة درو

---

(1) Frank R. Stockton كاتب خيال علمي وكاتب وصحفي وكاتب للأطفال أمريكي، ولد في 5 أبريل 1834 في فيلادلفيا في الولايات المتحدة، وتوفي في 20 أبريل 1902. (المترجمة).

(2) تعدّ نظارات الأوبرا، التي تُعرف أيضًا باسم مناظير المسرح أو مناظير التكبير، أجهزة تكبير بصري مدمجة، تستخدم عادةً في المسارح. (المترجمة).

عن قرب. رغم ذلك خاب أملهم قليلًا، وذلك لأن أنف السيدة درو وهو ما يميز ملامحها بدا أكبر وأبشع عن قرب.

قالت تيتانيا بحزن: "أنف السيدة درو يبدو عن قرب كخريطة فلوريدا".

قالت السيدة ميفلين موجهة الحديث لجيلبرت: "قل لي كيف لك بحق الله أن تحمل هذه المناظير معك!"

في جزء من الثانية أحسَّ أوبري أنه حوصر، وازدادت نبضاته وتعرّق جبينه. لكنه رجل إعلانات، وهذا يعني أنه واسع الحيلة ويستطيع المرواغة بدهاء ثعلب. لذا تفادى الإحراج بكل براعة وقال: "أحملهم معي لأدرس لوحات الإعلانات المعلقة عاليًا في الليل، فأنا ضعيف النظر بعض الشيء". خرجوا من دار عرض الأفلام، وتوجهت السيدتان نحو المتجر.

سألت هيلين جيلبرت: "هل تود الدخول وشرب الشوكلاته الساخنة معنا؟"

شعر أوبري بالإطراء لكنه خشيَ من المبالغة في التودد لتيتانيا في ليلة واحدة، لذا اعتذر بتهذيبٍ جم قائلًا: "أنا آسف، لا يمكنني، لديَّ بعض الأعمال الليلية كلفني بها مديري في العمل. ربما يوم الاثنين سأفعل. وربما حينها سأقوم بوضع الفحم في الموقد، والقيام بجميع أنواع المهام المنزلية الشاقة لأعوض بها غياب السيد ميفلين".

قهقهت السيدة ميفلين وقالت: "بالطبع! مرحّبٌ بك في أي وقت".

رأى أوبري السيدة ميفلين تحكم إغلاق باب المتجر، ووقع أسيرًا لحزن سوداوي عميق، فقد حُرم من تأمل بريق عيني تيتانيا السماوي. بدا له شارع غيسنغ باهتًا وممتدًا بلا نهاية. الوقت لا يزال مبكرًا -يقارب العاشرة مساءً- لذا خطر له أن يقوم بجولات يتفقد بها أوضاع الحي وما جاوره، قال لنفسه:

"هذا من شأنه مساعدتي على تصفية ذهني، فمنذ رؤيتي لذاك المحيا الملائكي تشوشت أفكاري وبدت عائمة ومتداخلة في بعضها البعض". قادته قدماه لشارع هازلت قرب المكتبة، والذي اتضح أنه شارع هادئ فيه الكثير من المنازل المتواضعة، ينتهي بزقاق ضيق مرصوف بالحصى يفضي إلى جادة ووردزورث. كان مظلمًا تمامًا، إلا أن أوبري تمكن من تحديد المدخل الخلفي للمتجر بعد حساب عدد المنازل. ذهب إليه بخطوات حذرة، وحاول فتح باب الفناء ولدهشته تمكن من ذلك دون جهد يذكر. لمح أنوار المطبخ وإبريق الشوكلاته الساخنة على الموقد. رفع رأسه إلى النافذة العلوية وإذا به يرى خيال ملاكه الفاتن، شعر بسعادة غامره تملأ كيانه. لكن سرعان ما اختفى هذا الشعور. إذ اقتربت تيتانيا من النوافذ، وأسدلت الستائرعليها، ومن ثم أطفأت المصابيح. وقف أوبري للحظات مشدوهًا يفكر بعطف مبالغ فيه، قال لنفسه: "لو أن معي بعض الأغطية فقط لكنت أخيّم في فناء روجر الخلفي طوال الليل". وذلك من أجل ضمانِ سلامة من شغفت قلبه حبًا وخوفًا. لن يستطيع أحدهم بالطبع الاقتراب من الفتاة وهو مقيم تحت نافذتها! هذا ما كان يفكّر به عندما تناهى لمسامعهِ صوت خطوات أقدام قادمة بسرعة في الزقاق، قال لنفسه: "لا بد وأنها شرطيان يقومان بجولة اعتيادية، فمن الغريب أن يتسلل أحدهم من الباب الخلفي في هذا الوقت المبكر من الليل". انسل خارجًا بهدوء، وأغلق الباب برفق من وراءه، خشية أن يصدر المزلاج صوتًا. سمع صوت خطوات تتعثر على الحصى المبعثر في الظلام وتقترب منه شيئًا فشيئًا. كان يقف بالقرب من باب الفناء عندما أذهله وقوف رجلين عند باب الفناء. قال أحدهما: "لا فائدة، البوابة مغلقة، علينا إيجاد طريقة أخرى للدخول يا صديقي". استطاع أوبري تمييز الصوت الذي سمعه كان المتصل على الفندق بلا شك. قال الآخر شيئًا بالألمانية، كان أوبري قد أخذ بعض الفصول باللغة الألمانية لكنه لم يستطِع تمييز ما قاله، تمكن فقط من

التقاط كلمتي باب ومفتاح. قال المتصل: "هذا جيد، ستكون الأمور على ما يرام. لكن يجب إنهاء الشيء المطلوب الليلة، فغدًا علينا الرحيل. تذكر أنّ غباءك أيها الأبله هو ما قادنا إلى هنا". تبعت هذا الكلام همهمات بالألمانية. حاولا فتح مزلاج البوابة مرةً أخرى. أوبري وبحركة تلقائية، وضع يده على مسدسه إلا أنّهما قرّرا الانسحاب بيأس بعد فشلهما في فتح البوابة. وقف أوبري في رعب صامتًا ومصدومًا ومتحيرًا. أحسَّ بثقل نبضات قلبه وكأنها قرع طبول، وأن قدميه ثقيلتان جدًا وأكبر من حجمهما. قال لنفسه: "اللعنة ما الذي حصل؟" واستعرت موجة من الغضب في داخله. هل العجوز بائع الكتب الثرثار هو من دبّر مكيدةً لاختطاف ابنة تشابمان وابتزاز والدها؟ وتعاون مع الألمان أيضًا. يا له من وغد! كيف للأحمق تشابمان إرسال ابنته دون حماية لضواحي بروكلين هذه. وقع في حيرة شديدة؛ ماذا يفعل؟ هل يبقى بمكانه ويحرس الفناء طوال الليل؟ كلا لقد سمع المتصل وصديقه يتحدثون عن طرق أخرى، علاوة على ذلك تذكر الكلب الذي ينام في المطبخ من المؤكد أنه لن يسمح لمتسللٍ بالدخول. ربما أفضل طريقة هي مراقبة مدخل المتجر. وفي تردّد يائس وقف لعدة دقائق أمام باب الفناء الخلفيّ منتظرًا حتى يبتعد الألمان بما فيه الكفاية. ثم قام بفكّ مسامير البوابة، وتسلل خلسة على رؤوس أصابعه إلى ممشى الحديقة، وقام بالدوران ووصل إلى المقدمة. حيث لاحظ أنّ الظلام والهدوء يسودان المكان. كما هي باقي بيوت شارع غيسنغ. الليل ينتصف والبرد يشتدّ، والسائرون في الشوارع يحثون خطاهم متعجلين للعودة إلى بيوتهم. أطرق برأسه وأخذ يفكر بعمق. توصّل إلى حلّ وحيد بإمكانه من خلاله الاطمئنان على ابنة تشابمان. وهو العودة إلى غرفته في نزل السيدة شيلر، ومراقبة مقدمة المحل طوال الليل. سيستخدم المنظار للرؤية بشكل أوضح إذا ما اضطر لذلك.

غذّ الخطا عائدًا إلى النزل ليشرع في أداء مهمته، لاحظ أنّ هناك مصابيح

مضاءة في الطابق الرابع للنزل، وما عداه غارق في الظلام. نظر إلى نافذة غرفته الخاصة لم يكن قد أسدل الستار قبل خروجه، لاحظ نقطة ضوء صغيرة تتوهج ثم تختفي ثانيةً. علم حينها أنّ هناك شخصًا يدخّن في غرفته. فمن عساه يكون؟ واصل أوبري المشي بخطا سريعة وكأنه لم يرَ شيئًا، بينما عقله يمطره بآلاف الأسئلة. عندما اقترب من النزل نظر ثانيةً بحذر ليؤكد لنفسه ما رآه. افترض أنّ المدخن في غرفته قد يكون المتصل، أو الألماني الآخر من الزقاق، لم يكن متأكدًا. إلا إنّه عزم على التصدي للرجل الذي يدخّن في غرفته أيًا كانت هويته، فمن المؤكّد أنّه لا يضمر الخير لعميل الإعلانات. وإلا ما كان ليتسلل إلى غرفته على هذا النحو. شعر أوبري أن الحظ حليفه عندما لمس جيبه ووجد غلاف الرواية لا يزال هناك. يبدو أن أحدهم يتوق وبشدة للحصول عليه. وهو يقترب من النزل رأى محلًا للزهور يوشك على الإغلاق وطرأت له فكرة، دخل إلى المحل وسأل البائع عن زهور قرنفل بيضاء وبعض الخيوط. قام البائع بإخراج بكرة خيوط سميكة تستخدم أحيانًا لربط براعم الورود غالية الثمن لمنعها من الازدهار بسرعة. وسأل جيلبرت عن الكم الذي يحتاجه. أجابه جيلبرت قائلًا: "أحتاج إلى ثمانية أقدام تقريبًا، متاجر الخرداوات مغلقة، وأنا بحاجة إلى الخيوط الليلة". وخرج بعد ذلك متوجهًا إلى الفندق. اختار طريقه بعناية، وسار بالقرب من البيوت كي لا يتمكن المدخّن من رؤيته من النوافذ العلوية. وصل إلى النزل، وجلس في الردهة منتظرًا ضيفه الغريب، ومتسائلًا عن الوقت الذي سيستغرقه قبل أن يُصاب باليأس ويخرج من الغرفة. لم يستطع مقاومة ضحكاته الساخرة بينما كان يعدّ العدة للضيف المتسلل. متذكرًا مناسبة مشابهة لهذه من أيام دراسته الجامعية، رغم أنها أقل جدية وخطرًا من الموقف الذي يمرّ فيه الآن. خلع حذاءيه ووضعهما بعناية بجانب بعضهما، وتأكد من إطفاء جميع المصابيح، ومن ثم اتجه نحو السلم وربط أحد طرفي الخيط به، وأخرج الطرف الآخر

عبر درابزين السلم في الجهة المقابلة، وجلس على بعد ستة أقدام ممسكًا بالخيط، ومنتظرًا ضيفه الغريب. شعر بالتوترٍ بعد مضي بعض الوقت خشية أن يأتي الكلب ويكشف مكانه. وبعد انتظارٍ عصيب سمع صرير باب قادم من أعلى، ثم رأى خيال شخص ينزل ببطء وحذر شديدين على عتبات السلم. في اللحظة المناسبة ابتسم أوبري لنفسه وسحب الخيط بكل ما أوتي من قوة. سقط الرجل وارتطم وجهه بالأرض ارتطامًا مريرًا حتى خيّل لجيلبرت أن النزل قد اهتز. تلوى الغريب وسقط على عقبيه، أنَّ من الألم وأخذ يردد سيلًا من اللعنات. بالكاد استطاع أوبري إمساك ضحكته. انحنى واقترب من وجه الغريب، أشعل عود ثقاب ويا للمفاجأة!، لقد كان مساعد الطاهي من الفندق! بدا فاقدًا للوعي جزئيًا. اقترب أوبري بعود الثقاب من لحيته التي بدت كشجيرة صغيرة كثيفة وقال محدثًا نفسه: "لا بد وأن لحيتك الطويلة هي من دفعتك لهذا العمل المتهور". تناهى إلى مسمعه صوت جلبة قادمة من الطابق العلوي، التقط حذاءه والخيط وهرع مسرعًا لغرفته. دخلها بحذر وبطء شديدين خوفًا من كمين محتمل. بدت الغرفة كما كانت عليه باستثناء سحابة الدخان الرقيقة التي خلّفها ذو اللحية الطويلة. سمع السيدة شيلر تصرخ بصوت مذعور عبر الردهة تسأل عن هوية الشخص الملقى على الأرض، يساعدها الكلب بنباحه على خلق مزيدًا من الضوضاء. فُتحت أبواب الغرف في الطوابق العلوية، وانطلقت عشرات الأسئلة. ومن ثم تمكن من سماع مساعد الطاهي يتمتم متذمرًا عن سقوطه، إلا أن نباح الكلب الغاضب طغى على جميع الأصوات. تساءلت السيدة شيلر عن رائحة الشعر المحروق، وابتسم أوبري وقال لنفسه: "لا بد وأنني اقتربت كثيرًا من لحية مساعد الطاهي". وجلس بقرب النافذة، وأخرج منظار الأوبرا.

9

السرد الروائي عاجز مرةً أخرى

قضى بائع الكتب أمسية هادئة في المتجر على كما جرت العادة. جالسًا في مكتبه تحت غبش دخان التبغ. كان قد عقد العزم على كتابة الفصل الثاني عشر من كتابه العظيم الذي يتحدث عن بيع الكتب. كان سيتحدث في الفصل عن خطاب بائع كتب مُنح درجة فخرية في الآداب من جامعة رائدة (للأسف كان فصلًا خياليًا، فلم يتلقَ بائع الكتب أي درجة فخرية من أي جامعة) رغم ذلك لطالما جال هذا الخيال اللذيذ في زوايا عقله، لذا أراد أن ينقل عذوبة هذا الإحساس وحلاوته في كتابه. كان ينغمس في هذا الخيال حتى تتراءى له القاعة والحضور وممرّ الجائزة، وفي الخلفية سيدات يلوحن ويتهامسن. كان بوسعه أيضًا رؤية المراقب والعميد يستعدان لتكريمه، وكان يتساءل لماذا يخيّل إليه وجود كثير من التماثيل للجنرالات والأدميرالات، والأطباء ورجال الدولة، والعلماء والفنانين والمؤلفين، ولكن لا تماثيل لبائعي الكتب؟ تأمل هذا المشهد الذي يتلألأ دائمًا في مخيلته، ويسبح به بعيدًا خارج حدود الزمان والمكان. منذ أن سافر في الطرق الريفية قبل بضع سنوات ليبيع الكتب بين المزارعين وهذا الخيال لا ينفك يزوره بين حينٍ وآخر. في مخيلته ينتهي الأمر دائمًا بالاعتراف بمهنة بائع الكتب كمهنة عظيمة. وتنبسط حينها أسارير وجه الرجل العجوز، ويغدو ذا روحٍ مرحة، وخلقٍ رضي. جميع هذه التفاصيل تظهر في كلِّ مرةٍ يأتيه هذا الخيال، وتصنع منه مشهدًا أوسكاريًا بامتياز. أيضًا كان يأمل إثارة اهتمام السيد تشابمان بمخططه الرائع بشأن بيع الكتب. لقد تصوّر اليوم الذي تدرّ فيه أسهم المتجر أرباحًا كبيرة للحد الذي

يلفت نظر كبار المستثمرين. أخذت أفكاره منعطفًا آخر مجددًا، واتجه بفكره نحو صهره أندرو ماكغيل، الكاتب الذي نشرت له عدة مؤلفات ساحرة يصف فيها حياة الريف، حيث يقيم بمزرعة للتفاح في كونيتيكت.

فجأةً ألحَّ عليه خاطر، أزاح مسودات كتابه عن الطاولة، والتقط قلمًا وشرع يخطّ التالي:

عزيزي أندرو.

إنه لأمرٌ مشين من قبلنا ألاّ نشكرك على مشروب التفاح الذي ترسله في فصل الخريف من كل عام. كان لذيذًا حقًا هذا العام، إذ منحنا متعةً استثنائية. شُغلت جدًا هذا الخريف حتى عن أفكاري الخاصة، لذا نسيت وبكل أسف كتابة رسالة لأشكرك فيها على المشروب. أفكّر باستمرار في السلام الذي حل علينا جميعًا. وإنني لعلى ثقة برجالات الدولة في فعل ما يخدم الإنسانية جمعاء. أتمنى لو كان هناك مؤتمر دولي للسلام يشرف عليه باعة كتب من حول العالم. أنا مقتنع أن سعادة البشرية ستعتمد في المستقبل على المكتبة والعاملين فيها. أتساءل أحيانًا كيف يبدو بائع الكتب الألماني. كنت أقرأ كتاب السيرة الذاتية "التعليم" لهنري آدمز، وكنت أرجو لو أطال الله في أمده بضعة سنوات فقط ليحكي لنا منظوره عن الحرب وتنبؤاته المستقبلية. أخشى أن هذا كان كافيًا ليصعقه وينفي عنه صفة "العالم الحساس ذي الطبيعة الرقيقة". ماذا كان ليقول عن الأربع سنين الدموية التي شهدناها بقلوبنا المريضة؟ تذكرت قصيدة جورج هربرت الشاعر الأعزُّ على قلبي:

لا ريب أن الوحدة شافيةٌ أحيانًا

حيي ذاتك ورحّب بها

انظر لروحك وبماذا تدثرها

تجرأ وانظر لصدرك واستمع لاعترافاته

قلّب ما تجده هناك بعقلك، وامنح نفسك وقتًا لتدركه.

حسنًا، كنت بدوري أيضًا أقلب فكرة ما على أوجهها المختلفة. ما الكآبة والمزاج القاتم إلا نتيجة التفكير العميق، روحي تتدثر بمعطفٍ قلق هذه الأيام! يبدو أنّ التحول الدراماتيكي والمفاجئ في الشؤون الإنسانية، الذي يتجاوز أي تحول في التاريخ، قد تمّ أخذه بالفعل على أنه أمر طبيعي. خوفي الكبير هو أنّ الإنسانية سوف تنسى معاناة الحرب الشنيعة. أنا أصلي وأتضرع بالدعاء أنّ أشخاصًا كفيليب غيبس[1] يروون لنا حقيقة ما شهدوه في أرض المعركة. لن تتفق معي في ما سأقوله، وذلك لأنك جمهوري عنيد. لكنني أشكر الحظ على ذهاب وودرو ويلسون[2] لمؤتمر السلام. لقد كنت أفكر في أحد كتبي المفضلة "رسائل وخطب كروموبل"، إنه أمامي الآن في الحقيقة، كتبه توماس كارالايل مع التفسير (رغم أن كارالايل لا يجيد تفسير أي شيء!) هناك شائعات تقول: إنه كتاب ويلسون المفضل، وبالفعل أرى أن شخصيته تتشابه مع شخصية كروموبل في عدة جوانب. كنت أفكر فيما سيقوله في مؤتمر السلام. إنني أنتظر يوم تقاعده وعودته إلى حياته الخاصة، كي أكتب سيرته وعندما أنتهي منها أقضي ما تبقى من عمري في الترويج لها وبيعها. لا أطمح لما هو أفضل من ذلك! وبالمناسبة، لا تحتاج إلى السخرية مني لكوني مخلصًا للغاية لجورج هربرت. هل تعلم أن أكثر اقتباسين شائعين في لغتنا جاءا من وحي قلمه؟ أرجو أن تغفر لي فأفكاري مبعثرة كأوراق

---

(1) صحفي إنجليزي ومؤلف غزير الإنتاج، عمل مراسلاً من بين خمسة مراسلين رسميين بريطانيين خلال الحرب العالمية الأولى. (المترجمة).

(2) توماس وودرو ويلسون هو سياسي وأكاديمي أميركي شغل منصب الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة من عام 1913 إلى 1921. (المترجمة).

الخريف. تندلق مني الأفكار فكرةً تلو أخرى. لديَّ هذا التطلع الفضولي والهوس أيضًا نحو القادم من الكتب، يتملكني شعور جيد حول محتواها. كتب تتحدث عن المحنة الإنسانية التي مررنا بها عن الهموم و الآمال. دائمًا أشكر الله في سرّي وذلك كوني بائع كتب، أتاجر بالأحلام والجمال وفضول الإنسانية بدلًا من كوني مجرد بائع جوال. كم نشعر بالعجز عندما نحاول شرح ما يدور في دواخلنا! لبودلير قصيدة مؤثرة عن طائر القطرس، ربما ستروق لك. يشبه فيها روح الشاعر المترفة بطائر القطرس حين يهبط من الفضاء اللازوردي، عاجزًا ومهانًا و قبيحًا وأخرق، يعذبه البحارة بسجائرهم، إلى آخره من هذه التشبيهات. لن تتصور ما عانيته وحدي بين هذه الرفوف في ليالي الحرب، والآن هذه الليالي الطويلة تبدو مريحة! رغم عذوبة السهر والتأمل في مجريات الحياة، والتفكر كما يشاء لي الهوى دونما لجاجة، إلا أنني آوي إلى الفراش مبكرًا بعد كوب من الشوكلاته الساخنة برفقة هيلين. ترى ما مدى تدفق ووضوح الأفكار في تلك الساعات المتأخرة من الليل، بعد تبخر جميع الرواسب والعوالق العائمة خلال اليوم! في بعض الأحيان يخيل لي وكأنني على الساحل أتمتع بجمال شاطئ، وأستمع لصوت الأمواج وهي تتكسر على الصخور بغضب. لكن سرعان ما تلبث رياح الضجر والتحامل أن تحملني وتلقي بي بعيدًا. هل سبق لك قراءة كتاب ليونيد أندرييف "اعترافات رجل صغير إبان أيام الحرب"؟ إنه من أعمق كتب الحرب.

أنهى الرجل الصغير اعترافه بهذه الكلمات: "رحل الغضب لكن الحزن عاودني، مرةً أخرى، الدموع تفرُّ من عيني. من ألعن وأشتم؟ من أحكم عليه؟ عندما تتساوى خيباتنا، عندما نرى آمالنا تتحطم، وأحلامنا تسحق معًا. معاناتنا عالمية وأيدينا ممدودة لبعضنا البعض، وعندما تتلامس سنجد

الحلول العظيمة. أنا أمد يدي وأبكي، تعالوا، دعونا نتكاتف فقلبي يشع، وأنا أبكي، أحبكم أحبكم!". هل سبق وتبادر إلى ذهنك فكرة أن الكتب هي من تحكم العالم؟ على سبيل المثال، تحدد مسار بلدنا في الحرب إلى حد كبير من خلال الكتب التي قرأها ويلسون منذ أن بدأ يفكر مليًا! تخيل كم سيكون مثيرًا للاهتمام إذا ما استطعنا الحصول على قائمة بأهم الكتب التي قرأها منذ بداية الحرب. إليك ما نسخته للتو على لوح الإعلانات في المتجر كي يتفكر به الزبائن. كتبه تشارلز سورلي، شاب إنجليزي قتل في فرنسا عام 1915. كان عمره عشرين عامًا فقط.

إلى ألمانيا:

إنك مصابةٌ بالعمى، لم يعتزم أحدٌ ضربك، ولم يدعُ أحدٌ لغزو أراضيك.

خططتِ لمستقبلك تخطيطًا لامعًا ومُحْبِكًا، لذا تحتم دهسُنا إرضاءً لمعاليك.

كيف نعاقبكِ عقابًا يوازي جريمتك، نصلي ونبتهل كي تسامح البشرية ولا تؤذيك.

ما الذي نجده في كل شكل من أشكال الحياة؟ رغبة من نوعٍ ما، قوة دافعة لا نستطيع لها تعليلًا، تدفع حتى أصغر الحشرات. عندما نأتي إلى الإنسان فإن فوضى الجوع والغرائز تقحمه في دائرة مهامٍ وحشية. في قلب كل إنسان هناك ألم، وحزن، وإحباط. كثيرًا ما أفكر بقصةٍ باتريك لافكاديو هيرن "الطاهي الياباني" كان هيرن يتحدث عن العادة اليابانية بعدم إظهار مشاعرهم على وجوههم. حدث أن رأى صدفة ملامح الطاهي من خلال ثقب حائط، لم يكن وجهه هو نفس الوجه. رأى ملامح رقيقة ومرهقة تكتسي بالتعبِ والمعاناة. قال هيرن لنفسه: "سيبدو هكذا حين توافيه المنية". ذهب إلى المطبخ كي يحادثه وإذا بملامح الطاهي تتبدل في الحال ويستحيل

شابًا سعيدًا بملامح تشعُّ فرحًا وسكينة. ألا تعتقد أننا جميعًا نفعل ذات الشيء؟ فخلف كلّ قناع باسم هناك كآبة خفية ووجع متأجج. هل سبق لك أن قابلت شخصًا ما وتساءلت عن الكم الهائل من الآلام التي يخفيها خلف قناعه المشرق؟ الكاتب هنري آدمز وصف الأمر باقتضاب. يقول: إن العقل البشري ضحية لسوء التكيف. المرض، والتقدم بالعمر، والغرائز البشرية، وفوضى الأحاسيس كلها تؤدي به إلى لجة الكآبة والآلام. يجب أن تكتب لي عما يدور في عقلك أحيانًا. بالنسبة لي أعتقد أننا نقترب من أشياء مذهلة. منذ زمن طويل عدت إلى الكتب، إنها عزاء البشرية الثابت مع مرور الزمن. والإنجاز البشري الوحيد الذي لا يصدأ ولا يرقى إليه الشك. ما يحزنني حقًا هو موتي وتركي لآلاف الكتب دون قراءة. سأقول لك سرًا أنا لم أقرأ "الملك لير" بعد، وقد امتنعت عن ذلك قاصدًا. إذا مرضت وشعرت بدنو أجلي، سأقول لنفسي حينها: "لا يمكنك الموت، فلم أقرأ "الملك لير" بعد".

وهذا سيبقيني على قيد الحياة، أنا متأكد من ذلك. كما ترى فالكتب هي الإجابة عن جميع ما يثير حيرتنا وشكوكنا خلال وجودنا المتعب. هنري آدمز أحسَّ باليأس عندما عجز عن فهم العقل أو العالم الذي يعيش فيه. لكن تصوره الواضح عن العقل البشري وكيف يصارع بلا هوادة المعضلات، ومحاولاتنا اليائسة لإيجاد تفسيرات حتى وإن بدت غير منطقية، لطيف للحد الذي يجعلنا ننسى عبث الوجودية للحظات. بعد قراءة تصوره يصبح شعارك فالحياة: "سأستمتع بالوجود رغم أنه يقتلني ببطء!" كما يقول والتر دي لا ماري: "كيف لملاك السماء أن يجهل وجود رجل مسكين يقضي الليل مستغرقًا في قراءة كتاب منكبًا عليه بحبٍ وشغف؟" أتت مؤخرًا فتاة يانعة الصبا إلى المتجر رضوخًا لرغبة والديها. ابنة تشابهان تاجر الأطعمة الشهير، فهو عاشق لمهنة بيع الكتب وأراد أن ينقل حماسته لابنته. تلقيت مكالمة هاتفية

من فيلادلفيا بعد ظهر هذا اليوم وطُلب مني الذهاب إلى هناك مساء الاثنين لأقيّم مجموعة خاصة سيتم بيعها قريبًا. لقد شعرت بالرضا لأنهم عثروا على اسمي وقدروه كما يجب. أرجو أن تغفر لي هذه الرسالة الطويلة غير المتماسكة.

تحياتي المخلصة.

روجر ميفلين

10

روجر يهجم على صندوق الثلج

كان روجر قد وضع للتو رواية كروموبل في مكانها الصحيح، عندما فتحت هيلين الباب عائدة من دار عرض الأفلام برفقة تيتانيا. كان بوك يغفو تحت كرسي سيده يهز ذيله بضجر.

قالت تيتانيا: "أعتقد أن لدى بوك أخلاقًا راقية".

قالت السيدة هيلين: "نعم، حقًا وإنه لأمرٌ مدهش!"

قال روجر: "هل قضيتم وقتًا ممتعًا؟"

صرخت تيتانيا بصوتٍ مرتفع وملامح تشعّ فرحًا: "قضينا وقتًا رائعًا للغاية، وقابلنا صدفة صديقك السيد جيلبرت. رافقنا إلى دار العرض وقال إنه سيأتي يوم الاثنين وربما يساعدنا في شؤون المنزل في أثناء غيابك".

قال روجر: "حسنًا، لا بد وأن الوكالات الإعلانية هذه جريئةٌ للغاية، أليس كذلك؟ كيف لهم إرسال رجل إلى هنا للمساعدة في أمور المنزل، فقط من أجل فرصة ضئيلة في الحصول على حسابي الإعلاني؟!"

قالت هيلين: "هل حظيت بليلة هادئة؟"

قال روجر: "نعم، رغم بيعي نسخة فيليب درو. حدث أمرًا مسليًا، قضيت معظم الوقت في الكتابة لأندرو".

صرخت هيلين: "لا".

قال روجر: "إنها الحقيقة للأسف، أصرَّ العميل على شرائها. قلت له: إن

العقيد هاوس قد يكون من كتبها".

سألت تيتانيا: "هل حقًا كتبها العقيد هاوس؟"

أجاب روجر: "ليس لديَّ أدنى فكرة، في الحقيقة لا أرجح ذلك. لأنني أجد في نفسي ميلًا سريًا للاعتقاد بأن السيد هاوس رجلٌ بارع. إذا كان هو من كتبها حقًا، فآمل وبإخلاص ألّا يعلم أي من رجال الدولة في باريس هذه الحقيقة".

خلعت السيدتان معطفيهما، وهمَّ روجر بإغلاق المحل. ذهبت هيلين إلى المطبخ لتعدَّ إبريقًا كبيرًا من الشوكلاته الساخنة ليستمتعوا بها قرب الموقد.

قال روجر: "لقد كتب جلبرت شيسترتون قصيدة قاسية في حق شراب الشوكلاته. لكن من ناحيتي أظن أنه الشراب المثالي للمساء. فهو يعزل العقل عن المنبهات الخارجية برقة، ويمهّد الطريق للنوم. كنت قد لاحظت في كثير من الأحيان أن أفظع المعاناة الفلسفية يمكن تهدئتها بثلاثة أكواب من شراب الشوكلاته. يمكن للرجل قراءة شوبنهاور بأمان طوال المساء، إذا كان بجانبه إبريق شوكلاته ساخنة وعلبة حليب مكثف".

قالت تيتانيا: "لم أكن أعلم أن لهذا المشروب مكانةً عظيمة عندك. يتاجر به أبي لكنني لم أفكر في تجربته من قبل".

قال روجر: "لقد نسيت إخبارك، أتى والدك إلى هنا هذا المساء".

قالت تيتانيا: "لا بد وأنه سُرَّ لذهابي للتنزه برفقة السيدة هيلين، في يومي الثاني هنا!"

قال روجر: "لا تقلقي، أوضحت له الأمر، وقلت أيضًا أنني أنا من أصررت على ذهابك مع السيدة هيلين".

قالت تيتانيا: "آمل ألا تسمح لأبي أن يسمم عقلك بشأني. إنه يعتقد أنني

تافهة على نحوٍ رهيب، فقط لأنني أبدو متهورة بعض الشيء. أنا حريصة جدًا على تحقيق النجاح في هذا المنصب، قضيت الظهيرة في تعلم كيفية ربط الطرود وتغليفها. كما تعلمت طي أطراف الورق الملتف".

قال روجر: "حسنًا، لم أنتهِ بعد، اقترح والدك أن نقضي نهار الغد في منزله. فهو يريد أن يرينا مجموعة كتب جديدة قام بشرائها حديثًا. وأيضًا قال: إنكِ قد تشعرين بالحنين إلى المنزل".

قالت تيتانيا بغضب: "ما هذا الهراء؟ لا أريد العودة إلى المنزل، بل لن أعود قبل ستة أشهر من الآن".

روجر: "لن يقبل والدك الرفض، سيرسل سائقه الخاص ليقلنا في الصباح الباكر".

هيلين: "يا للمتعة! سنقضي نهارًا لطيفًا، لا تقلقي".

تيتانيا: "لا أستطيع تصور أنني سأترك هذا المتجر اللطيف من أجل قضاء نهار الأحد في قصر لارشمونت. لكن لا بأس، سأحضر فستاني الحريري الذي نسيته".

هيلين: "في أي وقت سيأتي السائق لإيصالنا؟"

روجر: "قال السيد تشابمان إنه سيرسل سائقه الخاص في التاسعة صباحًا، بدا شديد الحماسة حول مجموعتة التي ابتاعها مؤخرًا".

ذهبوا جميعًا للجلوس قرب الموقد. إلا أن روجر وثب بحماسة شديدة، وذهب ليختار كتابًا من على رفوف مكتبته الخاصة. ووجه سؤالًا لتيتانيا قائلًا: "هل سبق لكِ قراءة مؤلفات جورج غيسنغ؟"

التفتت تيتانيا نحو السيدة هيلين وبدت وكأنها تستنجد بها لتنقذها وقالت بحرج: "لا، لم يسبق لي قراءة أيًا من أعماله. في الواقع، أنا لا أعرفه".

قال روجر: "حسنًا، أعتقد أن عليك قراءة قصة واحدة له على الأقل، فشارعنا سميَ على اسمه. سأقرأُ عليكِ قصةً قصيرة ممتعة عنوانها "العائلة الساحرة" من مجلد قصصه "بيت العناكب".

قالت هيلين بحزم: "لا، لن تقرأها لنا اليوم. تيتانيا متعبة كما أن الليل يوشك على الانتصاف، حتى إنّ بوك تركنا وذهب لفراشه، ترى هل يحس بنا أكثر مما تفعل أنت؟"

قال روجر: "حسنًا، إنكِ محقة. ربما تأخذ تيتانيا الكتاب معها إلى السرير. هل أنتِ ممن يطلبون من الكتب أخذهم لعالم الأحلام؟" سؤال روجر المبهم أثار أستغراب تيتانيا ولم تجد له إجابةً.

قالت هيلين: "لا عليكِ عزيزتي، إنه يحب استعمال مفردات معقدة ليتباهى باتساع اطلاعه. إنه يعني هل أنتِ ممن يقرؤون في السرير؟"

قالت تيتانيا: "يا لها من فكرة غريبة! قراءة في السرير؟ لا أحد يفعل ذلك! لم يخطر لي الأمر من قبل. دائما أكون متعبة للغاية حين آوي إلى الفراش".

قال روجر: "حسنًا، أسرعن بالذهاب إلى النوم كي تحافظن على حيويتكنّ وجمالكنّ. أنا ينبغي ألّا أتأخر أيضًا".

روجر كان يعني كلامه حين تفوه به. لكن بصره - ودون إرادةٍ منه - وقع على أحد رفوف مكتبته، حيث يحتفظ بمجموعته التي أطلق عليها اسم "علاج الاضطرابات" كما يقول ريتشارد فرانسيس برتون. على هذا الرف يوجد "رحلة الحاج" كتاب لجون بنيان كتبه عام 1678، ومؤلفات شيكسبير، وكتاب "تشريح الملنخوليا" لروبرت بيرتون، و"دار الشعر" لروبرت لويس ستيفنسون، ومذكرات صموئيل بتلر. حدّث روجر نفسه: "يا لمتعة تصفح الكتب في منتصف الليل". تذكر إحدى مقولاته المفضلة والتي يرددها دائمًا "الإكثار من القراءة ليلًا يعالج سخط اليوم" كان من دواعي سروره مرور

الوقت دون تتبعه لعقارب الساعة، كان المهم بالنسبة إليه الاحتفاظ بوعيه طوال ساعات القراءة الليلية. الرجال الذين يقضون يومهم في التجارة وتتبع أخبارها، ومناقشة هذا وذاك، يقدرون قيمة العزلة بل يرونها كجوهرة نادرة. كان روجر يقرأ بنهم تأملات منتصف الليل ويحفظ منها ما يطيب له. لذلك قرر السهر برفقة روبرت بيرتون وجورج هربرت، لمداواة روحه ليس إلا. اعتاد أن يسلي نفسه بتفكيره في بيرتون طالب أوكسفورد، كتب كتبًا ضخمة ليعالج سوداويته. طفق يقرأ صفحةً تلو صفحة إلى أن تسلل النوم إلى عينيه تدريجيًا. يقضي حوالي ساعتين أو ثلاث بعد العشاء في القراءة، يراه الوقت الأنسب؛ المعدة حينئذ تكون قد تمكنت من هضم العشاء، الاستلقاء على الجانب الأيمن حيث يستريح الكبد يبدو مناسبًا. نظر روجر إلى ساعته، ووجد أن الوقت تجاوز منتصف الليل، لذا ذهب إلى المطبخ وتأكد من إطفاء الفرن. واتجه نحو صندوق الثلج، في الحقيقة دائمًا ما تنتهي تأملاته الليلية عند صندوق الثلج. هناك نظريتان حول موضوع الهجوم على صندوق الثلج. نظرية للأزواج وأخرى للزوجات. الرجال ميالون للاعتقاد (سذَّج) أنهم إذا أخذوا القليل من كل ما هو موجود في الثلاجة، فلن تلاحظ الزوجات النقصان العام.

أما الزوجات (وقد أوضحت هيلين لروجر هذا في أكثر من مناسبة) بالنسبة إليهنّ أكل طبق واحد بأكمله أفضل كثيرًا من أكل القليل من كل طبق. روجر، وبعناد كل الأزواج الصالحين، كان يتلذذ بالطعام المحفوظ في الثلاجة. الخوخ المطبوخ، الفاصوليا، والبطاطا المسلوقة، ينتقل باستمرار بين الأطباق. عادةً ما يؤدي هذا المهرجان إلى مواجهة ضارية مع هيلين في الصباح الباكر، تنتهي بمشهد مأساويّ مليء بالتراجيديا المثيرة للشفقة. هذه العادة التي كبحها بشدة خلال الحرب، لاحظت السيدة ميفلين أنه منذ الهدنة استأنفها وبعنفٍ شديد. تعاني مائدة الإفطار من نقصٍ شديد في الصباحات

التي تلي غارته على الثلاجة. يتكون الإفطار من شريحتي بنجر وقطعة من فطيرة التفاح بعرض بوصة واحدة، وثلاث خوخات مطبوخات دون شراب الخوخ الذي يرافقها عادة. شارك روجر بعض الأطعمة مع بوك الذي أدرك بذكائه الحاد هذا العشاء السري إدراكًا هزليًا، رغم ذلك دائمًا ما يظهر شغفه الشديد بالمشاركة في الخطيئة، حيث اعتاد روجر مشاركته البطاطس الباردة.

روجر مولع بقبوه كسائر سكان بروكلين، رغم أن رائحة العفن المعتق مستشرية هناك إلا أنه يحوي صندوقًا صغيرًا من المشروبات الكحولية وهذا كفيل بإنعاشه. كان يحب إطالة النظر إلى تراقص لهيب الشمعة وهو يستمع بالكحول. حلّق بفكره بعيدًا وهو يدخن غليونه باندماج على عتبات السلم في القبو. راح يتفكر بكلمات بيرتون حول التبغ...

التبغ، إلهي، نادر، التبغ الجيد يذهب بك بعيدًا، الترياق الشافي لجميع الأمراض، حجر الفلاسفة، والعشبة الفاضلة. جميع هذه الصفات تنطبق عليه في حالة تم استخدامه استخدامًا صحيحًا كما يقول الأطباء. لكن في حالة إساءة استعمال التبغ، فإنه يتحول إلى خراب، طاعون العصر، تبغ ملعون وشيطاني...

وقف بوك على قدميه الخلفيتين وهدر بصوتٍ منخفض، كان هناك ما يزعجه. قال روجر بهدوء وهو ينهي غليونه: "ما الأمر يا بوك؟" نبح بوك بحدة واعتراض، لكن عقل روجر ما يزال مع بيرتون وفلسفته. هدر مرةً أخرى. قال روجر بلطف: "لا تهتم بالفئران يا بوك. هيا، دعنا نطفئ النار ونذهب إلى السرير. يا إلهي، إنها الواحدة بعد منتصف الليل".

11

تيتانيا تحاول القراءة في السرير

سرعان ما داهم الضجر أوبري، الذي كان يجلس بقرب النافذة ممسكًا منظاره. اتضح أنّه حتى أعتى الملاحم الرومانسية ليست بمنأى عن التعب والضجر، إنه العدو الأكثر ضراوة. كان قد حظيَ بيوم طويل بداية بزيارة الطبيب له صباحًا منتهيًا بمراقبتِهِ لمقدمة المتجر عبر النافذة. ما أبقاه مستيقظًا هو خيط الريح المتسلل من أسفل إطار النافذة. بينما غبش النعاس يغشى عينيه ببطء، تناهى لمسامعه خطوات أسفل الطريق تخطو بحذر وخفة. كان قد أجبر نفسه على الاستيقاظ مرات عديدة من قبل ليراقب مرور عربات تخترق ظلمة شوارع بروكلين. إلا أنه وجد هذه المرة أنّ صوت الخطوات واضح ويقترب، راقبه بمنظاره عن كثب، وإذا به يراه يتوقف عند مصباح بجوار باب المتجر. ونظر إليه أوبري وتفاجأ حين تمكن من التعرف عليه كان البائع بمتجر وينتروب للأدوية! كانت واجهة المتجر مظلمة تمامًا باستثناء الضوء المنعكس من المصباح على الرصيف. أربك الأمر أوبري لكنه ركز نظره على باب المحل. رأى وينتروب يخرج مفتاحًا من جيبه ويدخله بعناية فائقة في المزلاج، فتح الباب وتسلل إلى الداخل خلسةً تاركًا الباب مواربًا خلفه. حدّث أوبري نفسه قائلًا:

"يا إلهي، أيّ عملٍ شيطاني هذا؟ لا بد أنه يعمل مع روجر ميفلين" تشكك هنيهة وبدا غير متأكد مما يجب فعله. تردد، هل يبقى ويراقب عن بعد أم يهرع إلى الطابق السفي ومن ثم إلى المتجر؟ رأى شعاع ضوء شاحب ينبعث من الزاوية الأمامية للمحل. تمكن من خلال منظاره رؤية أنه ضوء

مصباح ينعكس على رفوف الكتب، ووينتروب يقوم بسحب مجلد من على أحدها، اختفى الضوء بعدها. ثم فُتح باب المتجر وتسلل وينتروب بصمتٍ متأنٍ إلى الخارج. وسار بخطا سريعة، بعيدًا في الشارع، لقد انتهى كل شيء في غضون دقيقة واحدة فقط. وسرعان ما عاود الهدوء الكئيب ليسود أجواء شارع غيسنغ، تتخلله ارتعاشات أضواء المصابيح. تطلع أوبري إلى لافتة المتجر، ورأى حروفًا نُقشت بعناية "المتجر المسكون" وقال لنفسه: "هذا الرجل أعطى لمتجره اسمًا يليق به، فهو مسكونٌ فعلًا. لا بد لي معرفة ما الذي سرقه وينتروب، وهل يا ترى يقوم بتزوير الكتب؟ سأتحرى عن الأمر، ولن يهدأ لي بال إلا إذا اكتشفت ما الذي يجري حقًا". تساءل عما إذا كان يجب عليه الذهاب، واقتحام المحل لمعرفة ما إذا كان كل شيء على ما يرام. ولكنه، مثل كل شاب يافع، كانت لديه مخاوف مرعبة من الظهور السخيف. شيئا فشيئًا تسلل التعب إليه، و خدر جميع مخاوفه. رنَّ جرس الساعة الثانية صباحًا من كنسية بعيدة، عندئذ خلع أوبري ملابسه، وزحف إلى السرير وكأن التعب والإرهاق يدفعانه دفعًا. أرخى رأسه إلى الوراء وتهالك، فرَّج ذراعيه كالمصلوب، ولبث بلا حراك. كانت الساعة العاشرة صباحًا عندما استيقظ. منزعجًا من الضوء الساطع لأشعة الشمس الذي اخترق الستارة البيضاء. نظر إلى ساعته وصرخ غاضبًا:

"ترى ما الذي فاتني طوال هذا الوقت؟" نهض بسرعة واتجه نحو النافذة وتأمل المتجر، كان كما تركه، لا علامات تدل على الحياة، باستثناء لوحات إعلانية ضخمة وضعت على النوافذ الأمامية. لذا لم يعد يتمكن من النظر إلى داخل المتجر من مكان مراقبته. أحسَّ باليأس، ارتدى معطفه فوق ملابس النوم، وخرج ليبحث عن حوض استحمام مع مياه ساخنة. كان على وشك النزول إلى لطابق السفلي إلا أنه أدرك في اللحظة الأخيرة أن ساقيه عاريتان، وأنه ما زال يرتدي ثياب النوم. شاهد من أعلى السلم السيدة شيلر

وكلبها يناوران زبونًا بدهاء. تمكن الكلب من رؤيته وبدأ بالنباح. تراجع أوبري عدة خطوات إلى الوراء جزعًا وإذا بالسيدة شيلر تخاطبه متجاهلة ثياب النوم، توقع أنها ستزدريه على الأقل بنظراتها، إلا إنها قالت وبنبرة يملؤها الاحترام: "جاءني رجل نبيل بالأمس يسأل عنك، وقال إنه يأسف حقًا لتفويته فرصة مقابلتك".

قال أوبري: "لقد تأخرت أمس كثيرًا، هل ترك اسمه؟"

أجابته السيدة قائلة: "كلا، قال إنه سيقابلك مرةً أخرى". وأكملت بأسف: "كان قد وقع على الأرض، وزلزل النزل بأكمله، ما أوقظنا جميعًا".

قال أوبري بأسف زائف: "يا إلهي، هذا فظيع!"، ثم عاد لغرفته. ارتدى ملابس الخروج، وذهب للإفطار بمطعم ميلوكي. حيث كان يأكل في الليلة السابقة. فرِح بالإفطار المكون من اللحم المقدد والبيض والقهوة والكعك. أشعل غليونًا وجلس بجانب النافذة متسائلًا عن خطوته التالية. قال لنفسه: "إنه أمر محير، أنا أخسر هنا، قد تتعرض الفتاة للاختطاف إذا احجمت عن المبادرة. كم أتمنى معرفة ما الذي يسعى له وينتروب وذاك الطاهي الألماني". المطعم شبه فارغ، في المقعدين القريبين منه كان المالك ومساعده يتحدثان. صُعق أوبري عندما سمع جزءًا من حديثهما.

قال الأول: "لا بد وأن مهنة بيع الكتب تقود صاحبها إلى الثراء".

أجابه الثاني: "لا بد من ذلك، هل رأيت تلك السيارة أمام متجره هذا الصباح؟"

" كلا، لم أرَها".

"إنها مركبةٌ رائعة، وأراهن أنها تكلف ثروة".

"لا بد أنه استأجرها، وإلا من أين له أن يحصل على مبلغ كهذا؟"

"هل رأيت تلك الفتاة اليافعة التي استأجرها لمساعدته؟ كيف له أن يفعل ذلك؟!"

"بالتأكيد رأيتها، إنها بارعة الجمال، لكنني لن ألومه".

احترق أوبري غيظًا بينما المالك ومساعده يتجاذبان أطـراف الحديث. كيف له أن يفشل في حمايتها؟ لا بد وأنهم قاموا باختطاف الفتاة، وهو يغطُّ في نوم عميق. أول فكرة طرأت له هي التوجه إلى وينتروب، وإجباره على الحديث عن علاقته بالمتجر وبصاحب المتجر. ومن ثم الاتصال بالسيد تشابمان وإخباره بالذي جرى. إلا أنه تردد للحظات وخلص إلى عدم جدوى القيام بأي من الخطوتين قبيل اكتشاف الذي حدث حقًا. عقد العزم على الدخول إلى المتجر واكتشاف السر الغامض بنفسه. سار على عجل نحو الزقاق الخلفي متجهًا لفناء متجر الكتب، وجد النوافذ الخلفية للمتجر مفتوحةٌ قليلًا إلا أنه لا توجد إشارة على الحياة هناك في الداخل. فتح البوابة وسار بجرأة واضحة، رأى أشجارًا تطوق الفناء على امتداد السياج، يكسوها ضوء الشمس الباهت. والحشائش نمت فوق بعضها البعض وكأنها تدفّئ بعضها من صقيع الشتاء. ورأى أيضًا هناك شجر عنب صغير مع مقعد ريفي حيث يجلس عليه روجر لتدخين الغليون في أمسيات الصيف. وصل إلى باب القبو، وجرَّب دفعه إلا أنه وجده محكم الإقفال. لم يكن لديه الوقت الكافي للتأني ومحاولة فك القفل، فقد كان مصرًا على كشف سر ما حصل في أسرع وقت. لذا كان عليه البحث عن منفذ آخر يوصله لقعر المتجر المسكون وأرض الألغاز. على يمين الباب كانت هناك نافذة منخفضة مبلطٌ أسفلها بحجر القرميد، نظر من خلال الجزء الزجاجي منها، وتمكن من رؤية أنها معقودة بخيط رفيع من الداخل. لكز الجزء الزجاجي بكعب قدمه وبعد المحاولة الثانية نجح في كسر الزجاج وفك عقدة خيط النافذة. تناهى إلى مسمعه دمدمة منخفضة، رفع إطار النافذة ونظر إلى الداخل وإذ بالكلب

بوك مميلًا رأسه بحركة تنم عن تساؤل، عضَّ على أسنانه وتقدم نحو أوبري وبدا وكأنه يستعد للانقضاض عليه، كان أوبري مستعدًا للهجوم أيضًا إلا أنه تمالك أعصابه وقال: "مرحبًا، صديقي القديم. يا لك من كلب رائع!". ولدهشته تعرف عليه بوك كصديق، وانطلق يداعبه ويهز ذيله فرحًا. بوك كان كلبًا كهلًا وغرائزه القتالية قوضتها سنواتٌ من اللطف. وعلاوة على ذلك، فقد تذكر أوبري جيدًا. قال أوبري: "أتمنى أن جميع الكلاب ليست شديدة التمسك بالنظام مثلك يا بوك". ودفع بساقيه لأسفل النافذة، وقال لنفسه: "يجب أن أغتنم هذه الفرصة". كان يخطو بحذر فقد توقع وجود بعض الرعب الكامن هنا أو هناك، لكنه لم يجد شيئًا مروعًا باستثناء العدد الضخم من زجاجات الخمر الفارغة. بدأ يصعد سلالم القبو بهدوء، وبوك الغارق في فضولٍ مشروع يراقبه بعينيه. قال أوبري لنفسه: "لا أريد من الكلب أن يتتبعني، سيقوم بعضِّ أي شيء ألتقطه، وهذا من شأنه افتضاح أمري". لذا عاد إلى القبو وفتح الباب وتظاهر بالخروج وتبعه بوك، إلا أنه التف بسرعة وعاد إلى الداخل وأغلق الباب من خلفه. ظهر وجه بوك في النافذة المكسورة، والنظرة في عينيه غريبة جدًا تعبر عن غضب وسخط، ضحك أوبري وقال: "اهدأ أيها العجوز، سأنظر في الأرجاء فقط".

صعد السلم على رؤوس أصابعه، وقاده الطريق إلى المطبخ. كان كل شيء هادئًا، ساعة منبه عقاربها متعثرة، قدور من الجرانيت صُفَّت على عتبة النافذة. ودفء خفيف يشع من حجرة المؤن. بعدها توجه إلى غرفة الطعام، وأيضًا بدت له الأمور طبيعية. رأى وعاء نبات الخلنج وغليون روجر على طاولة الطعام. قال لنفسه: "يجب أن يشعر الخاطف بالفخر، فمسرح الجريمة هذا هو الأنظف على الإطلاق. أي مخرج مسرحي يجب أن يخجل من نفسه لعدم تقديمه عرضًا نظيفًا مثل هذا". اقترب منه في تلك اللحظة صوت خطوات خفيفة، تأهب على الفور، الآن سيقع الأسوأ، هذا ما جال بباله. كانت هناك

نافذة على السلم تُركت مفتوحة. صرخ صوتٌ يقول: "بوك، كيف تمكنت من الخروج!" كان الصوت واضحًا جدًا. ذُعر جيلبرت عندما تعرف عليه. صرخ: "يا إلهي، إنها هنا". اقتربت الخطوات منه شيئًا فشيئًا. هلع وقال: "الرحمة يا إلهي، لا أريدها أن تراني هنا. ستظنُّ بي الظنون" وركض مسرعًا إلى حجرة المؤن وانكمش في الزاوية. اقترب الصوت من الحجرة ومن ثم عبر إلى المطبخ. تنفس الصعداء، فلم يكن عليها المرور بحجرة المؤن كي تصل إلى المطبخ. جثم أسفل الحوض قلقًا، لمست قدمه المنثنية تحت الحوض سهوًا وعاء صفيح مائل على الحائط. حاول إمساكه إلا أنه سقط وأصدر قرقعة رهيبة تردد صداها في المكان. صرخت تيتانيا:

"بوك! ماذا تفعل؟"

حاول أوبري بيأس تقليد صوت بوك إلا أنه كان قد فات الأوان لفعل أي شيء. فُتح باب الحجرة ونظرت تيتانيا إلى الداخل محاولةً تحديد مكان الضوضاء. رأت خيالًا تحت الحوض، واقتربت منه لتتأكد، وإذا بها تبصر جيلبرت حدّقا ببعض في رعبٍ متبادل. رغم أنه في موقف لا يُحسد عليه، مختبئ أسفل حوض غسيل، إلا أن حواسه أخبرته وفي تلك اللحظة بالتحديد أنهُ لم يرَ قط مشهدًا أكثر جمالًا من هذا. كانت تيتانيا ترتدي فستانًا أزرق ياباني الطراز مطابقًا للون عينيها، وقبعة ذات تصميم غريب. شعرها الداكن قسِّم إلى ضفيرتين منسدلتين على كتفيها. تأمل عينيها اللتين تذكّرانه بلون المحيط، كانتا تقدحان غضبًا. وقتئذ استبدت به رغبةٌ واحدة فقط، ألا وهي تأمل عينيها لأطول وقت ممكن. صرخت بصوتٍ مرتفع: "السيد جيلبرت، ماذا تفعل هنا؟" للحظة اعتقد أنّها ستضحك لكن تعبيرًا جديدًا طرأ فجأةً على محياها. ودون أن تنبس بكلمةٍ أخرى التفتت وهربت مسرعة. سمع وقع خطواتها على السلم، ومن ثم صوت الباب يغلق من خلفها. ومرة أخرى عمّ الهدوء المكان. خرج من مكانه الضيق أطرافه متخدرة، مشوش

الذهن مندفعه. أحسَّ بضيقٍ في صدره، كيف له تفسير موقفه الغريب؟ ماذا كان يفعل على الأرض؟ ذرع الحجرة جيئة وذهابًا في ترددٍ مستفز. كان عليه أن يقرر وبسرعة. هل ينسل خلسة من المنزل كما دخل إليه؟ أم يحاول تبرير موقفه أمامها؟ اعتقاده أن الخطر محيط بمتجر الكتب لا يزال قائمًا. لذا وبغض النظر عن مدى الإحراج الذي كان سيتعرض له، إلا أنه أصرَّ على شرح الأمر لها. قال لنفسه: "كان سيسهل الأمر لو أنها لم ترتدي ذلك الفستان". خرج إلى الردهة ووقف أسفل السلم يصارع التردد. وبعد بضعة دقائق من الصمت استجمع قواه ونادى بصوتٍ خفيض أقرب للهمس:

"آنسة تشابمان".

لم يكن هناك جواب، إلا أنه سمع حركات خفيفة وسريعة أعلاه. نادى مرةً أخرى: "آنسة تشابمان". فتح الباب، وقالت من أعلى السلم بصوتٍ غاضب: "سيد جيلبرت" لثوانٍ معدودات خيّل إليه أن الكلمات التي خرجت من شفتيها حادة وجافة كالصقيع. أجابها وهو غارقٌ في البؤس: "نعم". قالت: "هلا استدعيت لي سيارة أجرة". أغاظته النبرة الإلزامية في صوتها، لكنه رغم هذا قال بحسن نية:

"بكل سرور. لكن قبل هذا يتحتم علي إخبارك بأمرٍ ما. أشعر بفظاعة شديدة لظهوري المفاجئ، أتوسل السماح. لكنه أمرٌ ملحٌ للغاية. هلا نزلتِ أرجوك؟". كان هناك صمت قصير. ثم قالت: "بروكلين، يا لها من مدينة مريبة!. انتظر بضع دقائق، من فضلك". أحسَّ أوبري بتوق شديد لغليونه وهمَّ بإشعاله، لكن منعته لباقته عن ذلك. بعد لحظات، ظهرت تيتانيا أعلى السلم، كانت ما تزال في فستانها الأزرق، نزلت بهدوء مبالغٌ فيه. أحسَّ أوبري أن موقفه يبدو أسوأ مما هو عليه في الحقيقة، وساءه هذا الأمر للغاية. لو أنه يتمكن فقط من النظر لمحياها لكان وقع الأمر أهون على نفسه. عكس

الضوء القادم من نافذة السلم ظلها، وهو يخطو خلفها على العتبات، تتبعه أوبري باستسلام. جلست وشبّكت يديها فوق ركبتيها بغضب. لم يتمكن أوبري من رفع رأسه والنظر مباشرة في عينيها، كان ينظر فقط لكاحلها وانعكاس ضوء الشمس عليه. وبلا وعي منه كان يتتبع مسارات الضوء المنعكس على جسدها.

قالت: "حسنًا، ما الأمر؟" ولم تتمالك ضحكاتها التي أفلتت من شفتيها كنغمٍ ساحر. فقد بدا جيلبرت يائسًا على نحو مضحك بعد سماعهِ رعشة صوتها. تابعت قائلةً: "لماذا لا تدخن؟ أمارات الحزن والكآبة باديةٌ عليك".

قال: "تيتانيا، أخشى أنكِ فكرتِ أنني..." وتوقف لثوانٍ معدودة ثم تابع قائلًا: "في الحقيقة لا فكرة لديَّ عما فكرتِ به. لكنني لم أتسلل إلى هنا إلا وهناك سببٌ جيد يدفعني لذلك، فأنا لا أعتقد أن هذا المكان آمنٌ كفايةً لكِ".

قالت: "بالفعل هكذا يبدو، لذلك طلبت منك استدعاء سيارة أجرة لتقلّني".

قال: "هناك مؤامرة ما تدور حول هذا المتجر. لم أكن لاستصوب بقاءكِ هنا بمفردك وبهذه الطريقة. كنتُ خائفًا من حدوث أمر سيئ لكِ. لم أكن أعرف بوجودك هنا بالطبع".

تضرجت وجنتاها بحمرة الخجل وقالت: "كنت أقرأ في السرير، السيد ميفلين تحدث كثيرًا عن هذه العادة، وأردت تجربتها. طلبوا مني الذهاب معهم اليوم لكنني رفضت. أنا عازمةٌ على امتهان بيع الكتب لذا يتحتم عليَّ قراءة جميع كلاسيكيات الأدب واللحاق بالركب".

قال: "أين ذهب ميفلين؟ ما الأمر الخطير الذي طرأ ليتركانك بمفردك هنا؟"

قالت: "بوك هنا لحراستي، ولا أعتقد أن صباحات الأحد خطرةٌ في بروكلين. وإذا كان لا بد أن تعرف، فقد ذهبا لتمضية النهار في قصر أبي بناءً على طلبه. إلى الآن لم أفهم لماذا اقتحمت المنزل؟ عمّ تبحث؟"

بدأ أوبري يشتاط غضبًا شيئًا فشيئًا وقال: "حسنًا، لا بد أنكِ تعدّين الأمر صفاقةً خالصةً من قبلي، لكن دعيني أوضح لكِ شيئًا". وبدأ بسرد الأحداث التي مرَّ بها في الليلتين السابقتين، منذ مغادرته المحل في يوم الجمعة. ثم أردف موضحًا: "كنت أظن أن روجر سيكون كبش الفداء وأن هناك مؤامرة لسرقة الكتب الثمينة. لكنني عندما رأيت وينتروب يحمل نسخة من مفتاح المتجر أدركت الأمر. هناك تعاون وثيق بينهما. لا أعلم ما الذي يخططان له! لكنني أستشعر أمرًا سيئًا خلفه. هل تقولين: إن السيد روجر ذهب لرؤية أبيك؟ أظن أنه مجرد تمويه، من أجل كسب الوقت. يجب أن أقنع أباك بخطورة الموقف، وأخرجك من هنا بأسرع وقت".

قالت له: "شكرًا لك، إني أقدِّر مخاوفك. لكننا لسنا في مشهد سينمائي".

قال: "حسنًا، وكيف تفسرين تصرفات المدعو وينتروب؟ هل يسرك وجود من يتسلل خفية إلى المتجر في ساعات الليل المتأخرة ويقوم بسرقة الكتب؟"

قالت: "ليس عليَّ أن أشرح، أعتقد أنت من عليه فعل ذلك. وينتروب يمتلك متجرًا لطيفًا، وفيه شوكلاته لذيذة وبنصف سعر الشوكلاته التي تُباع في الجادة الخامسة. كما أن السيد ميفلين أخبرني أنه زبون دائم للمحل، لذا ربما هو من سمح له بالدخول وقتما يشاء".

قال: "لا أعتقد أن من يتحدث الألمانية ليلًا في الزقاق، ويحاول التسلل عبر الفناء، يكون غير خطير البتة كما تلمحين. أؤكد لك أنكِ أنتِ ومتجرك المسكون مطاردين من قِبل ما هو أسوأ من أشباح توماس كارلايل".

وسحب غلاف الرواية من جيبه وأشار إلى الشروح المدونة عليه وقال: "ينتابني إحساس مقيت حول الأمر برمته".

قالت: "هذا خط يد ميفلين". مشيرة إلى الصف العلوي من الغلاف. "إنه يدون ملاحظات كهذه في جميع كتبه المفضلة. إنها تشير إلى الصفحات التي وجد بها ما يثير اهتمامه".

قال: "نعم، وهذا خط وينتروب". مشيرا إلى الأرقام بالحبر البنفسجي في الأسفل. ثم تابع: "إذ لم يكن هذا دليلًا على تواطئهم، فماذا عساه يكون؟ هلا أرشدتني إلى مكان رواية كروموبل؟ أود تفحصها".

قادته تيتانيا إلى المحل، غضب أوبري عندما رأى كتفيها الصغيرين، وازدادت فورة غضبه أكثر عندما رأى سلوكها الطفولي وهي تتجول في المحل. وحدّث نفسه: "مكانها أبعد ما يكون عن متجر كتب في أحياء بروكلين القديمة". وتوجّها نحو قسم التاريخ.

قالت تيتانيا: "هذا ما تبحث عنه". وهمَّت بإعطائه الكتاب إلا أنها تراجعت قائلةً: "كلا، ليس هو". واستمرت تبحث إلا أنها استسلمت في النهاية قائلة: "لا أستطيع إيجاد الرواية في أي مكان، هذا غريب، لقد كانت هنا الليلة الماضية. لا بد وأن السيد ميفلين خبئها بين رفوف مكتبته".

قال جيلبرت: "أعرف أين تكون، وينتروب تسلل إلى هنا أمس وقام بأخذها، لقد شهدت الأمر من نافذة النزل. إليك ما أعتقده؛ الحرب لم تنتهِ بعد، وينتروب ألماني وكارلايل مؤيد لألمانيا، لا بد أن صديقك ميليفن مؤيد لوجهة نظر ألمانيا أيضًا".

صرخت تيتانيا بغضب: "لقد أمعنت التفكير بالأمر حقًا! ما التالي؟ هل ستقول: إن أبي وأنا مؤيدين للحرب ولألمانيا أيضًا؟ كم أود رؤية وجه السيد ميفلين بينما تخبره بهرائك".

تجهمت تعابير وجه جيلبرت وقال بشراسة: "سأخبره حتمًا، أنا على يقين من ذلك". وأحسّ أن شعورًا من الكآبة سيطر عليه، فقد خسر ثقة من يهمه أمرها. لكنه رفض تخفيف حدة اتهاماته. انقبض قلبه انقباضًا شديدًا عندما تراءى له محياها بين رفوف المتجر. العينان المشرقتان، والذقن الذي يرتجف من شدة الغضب، والسلام الملائكي الذي يحيط بها. أحسَّ أن قلبه لن يحتمل غضبها عليه.

قالت بحدة: "على أحدنا المغادرة، إذا كنت تعتزم البقاء، استدعِ لي سيارة أجرة من فضلك".

قال أوبري بحدة لا تقل عن حدتها بالحديث: "أنا مغادر. لكن عليكِ أن تكوني منصفةً بشأني. أقسم لك أنّ السيد ميفلين ووينتروب يخططان لأمرٍ ما. وسأحضر لكِ الدليل. لكن إياك وتحذيرهما، ما إن يعلما أنني خلفهما سيلغيان ما كانا ينويان فعله، وسأبدو أمامك كاذبًا محتالًا. فقط اشحذي حواسّك وتيقظي لأي حركةً تبدر منهما".

قالت: "لن أعدك بشيء، سوى أنني لن أتكلم معك مرةً أخرى. رأيتُ الكثير والكثير من الرجال، لكنني لم أرَ شخصًا بغرابتك قط".

قال بحزم: "لن أغادر، حتى تعديني بعدم تحذيرهما، بحت لكِ لأنني وثقت بك. هل تظنين أنها مزحة؟ لقد تبعاني لمكان إقامتي مرتين. إذا أخبرتِ ميفلين سيخبر أصدقاءه كذلك".

قالت باستهزاء: "أنت خائف أن يعلم السيد بأمر اقتحامك المتجر".

قال: "يمكنك اعتقاد ما يحلو لكِ".

قالت وقد رقّ قلبها وبدأت تعتقد أن كلامه صحيح: "حسنًا، أعدك. يبدو هذا منصفًا كفاية. سأخجل من إخبار السيد ميفلين على كل حال. رغم

ذلك أحسب أنك بغيض، لقد أتيت إلى هنا مع آمال كبرى. لقد أفسدت الأمر برمته!"

مرت على أوبري لحظة فظيعة، ظنَّ بها أنها على وشك البكاء. وقال بحزن: "أنا متأسف للغاية، لكنني أقدمت على فعلتي هذه بدافع من إخلاصي التام، تيقني من ذلك. إذا كنت مخطئًا فلا حاجة لك للتحدث معي بعد الآن. وإذا كنت مخطئًا أيضًا فلينقل أباك إعلاناته خارج وكالة غري ماتر للإعلانات. هذا ما لديَّ، لا أستطيع قول أكثر من ذلك".

سمحت له بالخروج من الباب الأمامي دون كلمة أخرى.

12

يقرر أوبري تقديم خدمة مختلفة

قضى أوبري نهارًا كئيبًا، ورضخ لزوبعةً من التقريع الذاتي المهين، فهو لم يسبق وأن أحسَّ بالمرارة تكوي روحه هكذا مسبقًا. كان عزاؤه الوحيد أنه وبعد عشرين دقيقة من مراقبة المتجر، كانت هناك سيارة أجرة لتقلّ ابنة تشابمان. عرف أنّها ذاهبة لقضاء اليوم في قصر ليرشمونت، تقلّب مزاجه حينها بين الرضا والخيبة. لكنه اطمأنّ و شعر بالراحة لأنّها خرجت من منطقة الحرب كما يدعو المتجر الآن. لأول مرة يفشل أوليفر هنري في مواساته. فجأةً أضحى لغليونه طعمٌ مرٌّ ومقيت. كان متلهفًا للبدء في التحقيق بأمر وينتروب، لكنه لم يستطِع فعل ذلك في وضح النهار. لذا كان ينتظر هبوط الظلام بحماسة شديدة. راقب هدوء وسكينة أيام السبت في ضواحي بروكلين. وتدافع عربات الأطفال نحو جادة ثاكيري. وتساءل كرةً أخرى معذبًا ذاته، هل ضحَّى بصداقة تيتانيا من أجل أوهام مختلقة من وحي مخيلته؟ لم يحتمل ضيق غرفة نومه لأكثر من ذلك. تناهت إلى مسامعه نغمات حزنٍ شجي، ذهب ليستطلع الأمر. كان أحدهم يعزف على الناي في ردهة النزل. حينئذ تراءى له محيا تيتانيا الملائكي، وابتسم بأسى بالغ. نظر من حوله، السيدة شيلر تقوم بأعمال التنظيف كالعادة في هذا الوقت، كان بإمكانه الاستماع لصوت المكنسة وهي تداعب شعيرات السجاد. وصوت المياه ينساب في أحد أحواض الاستحمام. أحسّ أن هذه الأصوات مزعجة على نحو غير معقول. لذا غادر النزل، سار في الطريق والرياح العاصفة تصفعه بوحشية نحو حديقة بروسبكت. مستنكرًا على نفسه ما يقوم به من

تنكيل لذاته. إلا أنه ظل يكرر على نفسه بلا هوادة: "لقد كرهتني وسألعن بشقائي الأبدي". غمغم محدثًا نفسه: "لو أنني أتمكن من إيجاد دليل يبرهن على صحة كلامي فقط". صورة تيتانيا وهي تبحث بين الرفوف تأبى مغادرة ذهنه، لا تلبث تظهر باستمرار، وهذا كاد أن يدفعه إلى الجنون! قال محدثًا نفسه: "كنت سأقضي وقتًا ممتعًا، وقد أفسدت كل شيء! كانت مقتنعة تمامًا حين قالت: إنها لم ترَ رجلًا بغرابتي من قبل. رغم رؤيتها الكثير!" وقال بكآبة عارمة محاولًا التخفيف عن نفسه: "على الأقل تعترف باختلافي عن الذين سبق والتقت بهم". تذكر البند الأول في ميثاق غري ماتر للإعلانات: "تُبنى الأعمال على الثقة، قبل أن تقنع عميلًا بالتوقيع معنا، يجب أن تكرس نفسك لخدمته". تابع حديث النفس متسائلًا: "كيف أكرس نفسي لخدمتها؟ يتحتم عليَّ الإيفاء بوعدي. يجب أن أقدم لها خدمة مختلفة. إن فشلت في هذا فلن تتحدث معي بعد الآن. ليس هذا فحسب، بل سيلغي والدها عقده مع الوكالة. إنه ببساطة أمرٌ لا يمكن تصوره". بعد أن أطال التفكير في الأمر، وجد أن قدميه قادتاه إلى فرع من فروع تشابمان. رفّ رأسه ونظر إلى اللافتة المعلقة أعلى واجهة المحل. وقال لنفسه: "لطالما تمنيت رؤية إعلاناتي التي كتبتها من أجل تشابمان معلقةً فوق واحد من محلاته". بعد أن سار لعدة أميال، رمى أوبري بيأسه للريح العاصفة. وجد مطعمًا صغيرًا يقدم النقانق، والكعك المخبوز، مع الشراب المحلى. وهذا بالضبط ما كان أوبري بحاجته. راقب مغيب الشمس وهبوط الظلام تدريجيًا، وهو عائد في طريقه إلى شارع غيسنغ. لذا هيأ نفسه لمزيد من الاجتهاد. إلا أنه آثر بعض الراحة في النزل أولًا.

حوالي الساعة التاسعة سار نحو الزقاق الخلفي. كان قد ترك معطفه وغلاف الرواية في غرفة السيدة شيلر. حين اقترب من الفناء الخلفي للمتجر لاحظ أنوارًا خافتة تشع من هناك. لذا استنتج أنهم عادوا إلى المنزل آمنين.

انطلق نحو متجر وينتروب، ولبث يراقبه عن بعد. يقع متجر الأدوية في الزاوية بين شارع غيسنغ وجادة وردزويرث، حيث تمر القطارات على نحوٍ إيقاعي. تأمل المبنى الذي يقع فيه متجر الأدوية، يرتفع لثلاثة طوابق، بوابة واحدة صدئة، ساحة خلفية، وسياج متهالك. اكتشف أن وينتروب يعيش في نفس المكان، وقرر اقتحام مكان إقامته مهما كلفه الأمر. راقب مرور عربات القطار، وانطلق مسرعًا. تسلق الجسر الذي تمر من أسفله القطارات، وانتظر اللحظة المناسبة، وعندما حانت قفز. لثوانٍ معدودة لم يكن يعلم ماذا يفعل، إلا أنه قال لنفسه: "هذا السبيل الوحيد كي أتمكن من مراقبة وينتروب عن كثب. حتى وإن لم يعد بإمكاني العودة إلى الجهة الأخرى مرةً ثانية". عندما مرّ القطار خلف متجر الأدوية تمامًا، قفز أوبري دون أدنى تردد. حاول كتم صوت سقوطه كي لا يجذب الأنظار. ظل مستلقيًا على سطح الصفيح لبضع دقائق، وخلال ذلك الوقت، خطرت له عدة أفكار مقلقة؛ لماذا لم يخطط للأمر بإمعانٍ أكثر؟ كيف سيواجه وينتروب في حال تعين عليه ذلك؟ هل يعرف عدد الذين في الداخل؟ لماذا لم يرتب الأمر مع صديق له؟ لماذا لم يتفق مع أحدهم ليتصل بوينتروب ويشغله كي تسهل عليه لحظة الاقتحام؟ لم يتمكن من الإجابة عن نفسه. أحسَّ أنّ الصقيع نخر عظامه، لام نفسه مجددًا لتركه معطفه في غرفة السيدة شيلر. تحسس جيبه واطمأن حين وجد مسدسه. زحف بهدوء أسفل النافذة، ورفع نفسه بما يكفي لينظر عبرها.

كانت الستارة المرفوعة لأربع إنشات تعيق نظره، تأكد أن الغرفة مظلمة لكنه لم يستطِع استشفاف المزيد. رفع نفسه أكثر وعاد الكرة، حاول اختلاس النظر هذه المرة من عند حافة النافذة، تمكن من رؤية ممر ومن خلفه باب يشع النور من خلفه. قال لنفسه: "هناك أمر عليَّ الاحتراس منه، الأطفال، لا بد أنهم يتواجدون هنا، فما الألماني دون ذرية! إذا حدث وأيقظتهم سيضج المبنى بأكمله بصراخهم، من المحتمل أن تكون هذه الغرفة مخصَّصة

للأطفال. وجد أن الحال كما هو في الجانب الشرقي أيضًا. يبدو أن الألمان لا فكرة لديهم عن تهوية غرف النوم. ربما لم يكن تخمينه سيئًا، لأنه بعد اعتياد عينيه على ظلمة الغرفة، اعتقد أنه قادر على رؤية سريرين لرضيعين. ومن ثم قام بالزحف إلى النافذة الأخرى. وجد أن الستارة تحجب الرؤية كليًا، حاول رفع حافة النافذة بحذر شديد إلا أنها كانت مغلقة. أصيب بالحيرة، ما السبيل إلى هذا المكان؟ وعاد خائبًا إلى النافذة الأولى وراح يراقب عبرها المكان، ويرتجف من البرد، ويتساءل عما إذا كان من الآمن إشعال غليونه، إلا أنه تراجع وفضَّل الحذر على التبغ. لبث يراقب المكان مدةً طويلة، وتسرَّب إليه إحساس بعدم جدوى ما يقوم به وهمَّ بالرحيل. إلا أنه في تلك اللحظة تناهى إلى مسامعه صوت نباح كلب. أخذ الصوت يقترب شيئًا فشيئًا إلى أن رأى سيدة ومعها كلب داشهند[1].

قال لنفسه: "كلب داشهند، إذًا السيدة ألمانية". بدت له قوية البنية وشجاعة إلى حد أخافه. سارت نحو المدخل، وأضاءت المصابيح، خجل من نفسه فهو لم يهاجم امرأةً من قبل ولن يفعل. بدأ رعبه يضمحلّ في تلك اللحظة، وتراجع بسرعة. حين همَّ بالرحيل سمع رجلًا يتحدث الألمانية بطلاقة، وتعرف على الصوت فورًا، لقد كان وينتروب. أحسّ بالحنين لمعلمه الذي كان يعلمه الألمانية في الجامعة، وتساءل عن أحواله وماذا يفعل لكسب عيشه؟. التقط كلمة فحسب من آخر جملة سمعها، واستطاع فهم معناها، كانت: "اذهب إلى فيلاديلفيا". تساءل هل يتحدث عن ميفلين؟ خرجوا من الغرفة، وأغلقوا الباب من خلفهم. ذهب ناحية مزراب المطر، وتمكن من رؤية الضوء ينبعث من المطبخ. عندها توجه للبوابة الخلفية للفناء، اقترب

---

(1) Dachshund عبارة عن سلالة من سلالات الكلاب قصيرة الأرجل وطويلة الجسم من عائلة الكلاب. (المترجمة).

منها بحذر، كان مزلاجها مغلقًا بإحكام. لكنه قال لنفسه: "لن أتراجع الآن". وراح يحاول تسلقها بحماسة وهدوء مفرطين. تشبث بالجزء العلوي منها واضعًا قدمه بالجهة الأخرى، تطلع من حوله إلى المكان، لم يكن هناك أثر على وجود أحدهم بالقرب. ودون أن يعرف كيف فعل ذلك، انزلق من على جانب البوابة. لقد تمكن من الهبوط بهدوء أكثر من المتوقع. كان مندهشًا للغاية. انتظر لعدة دقائق ليرى إذا ما كان أحدهم تنبه على وجوده. بعدها سار في الفناء متفقدًا الأوضاع، يضخ في نفسه الشجاعة اللازمة لخطوته القادمة ألا وهي الاقتحام. أفضى به ممر مرصوف وضيق إلى قبو، استعدّ بحذر. كان هناك ضوء ساطع من نافذة في هذا القبو. زحف على ركبتيه خشية رؤية أحدهم له. وجد أن هناك بابًا أرضيًا للقبو، أحد مصراعيه مفتوح والآخر موصد. تمكن من الدخول، المكان غارق في الظلام، اجتاحت أنفه رائحة غريبة، رائحة رطوبة قوية ومواد كيميائية. استنشقها بحذر شديد. اعتقد أن وينتروب يخزن المخدرات هناك. زحف بعناية إلى الوراء نحو النافذة المضاءة. رفع رأسه بضعة بوصات ولخيبة أمله وجد النصف السفلي من النافذة مغطى بالجليد ممّا حجب رؤيته. لاحظ أنابيبَ ممتدة أسفله تخرج منها مادة لزجة لها رائحة حمض قوي. يبدو أنه يجري في الغرفة اختبارات للوصفات الطبية. سمح لنفسه بإجراء مسح سريع بنظره.

كان هناك أنواع الزجاجات التي تتراوح بالحجم صُفَّت على طول الجدران؛ وهناك عداد كبير، مع المقاييس، مكتب، ومكبّ صرف صحي. في الخلف، كان بإمكانه رؤية ستارة من الخيزران التي تذكرها من المتجر. كان المكان في حالة فوضى قصوى: ألواح جير، أكواب زجاجية، آلة كاتبة، خزانات فارغة، أكوام متكدسة من الوصفات الطبية القديمة، جميعها متناثرة. لاحظ أوبري مجموعة من الكتب القديمة بارتفاع عدة أقدام مكدَّسة بلا مبالاة. أمعن النظر أكثر، رأى ثقبًا في الجدار مختبأ خلف كومة الوصفات

الطبية. اقترب بحذر ونظر منه وإذا به يرى وينتروب، يقف خلف صندوق المال بمتجره، ينتظر بعض الزبائن المتأخرين. بعد أن رحل آخر زبون لديه في تلك الليلة، أسدل ستائر المحل، وأحكم إقفال الباب. اتجه نحو غرفة الوصفات الطبية بينما توارى أوبري عن الأنظار. لم يتمكن من كبح جماح نفسه، لذا خاطر ونظر إلى وينتروب، ورأى ما يثير اهتمامه. مشهد غريب، الصيدلي منحنٍ على منضدة، يسكب سائلًا ما في وعاء زجاجي. أضاء مصباحٌ معلقٌ أعلاه مباشرة ملامحَ وجهه الشريرة، ما أضفى على المشهد رعبًا تعجز عن وصفه الكلمات. رأى وجهًا حادًا وقاسيًا تغضنت جفونه على العينين، فيه ذقن مربع، وعظام وجنتيه بارزة، تلتمع تحت ضوء المصباح. ارتجف فكّه قليلًا، وكأنهُ يخبّئ مشاعر مكبوتة. كان مستغرقًا تمامًا في مهمته. ذُهل أوبري من صلابة هذا القناع المقيت للصيدلي الألماني. قال محدثًا نفسه: "نزعت الآن قناع البراءة أيها الكهل!" أزيح الستار، وظهرت من خلفه المرأة التي رآها سابقًا في مدخل البيت.

استمر أوبري بالمراقبة متناسيًا وضعه الحرج. كانت ترتدي ثوبًا باهتًا وشعرها مجعد. بدت هلعة وقلقة، قالت بضع كلمات، أوبري رأى شفتيها تتحركان إلا أنه لم يتمكن من سماع ما قالته. استمر وينتروب بسكب السائل لم يلتفت إليها إلا بعد نزول آخر قطرة. استقام فجأة وسار نحوها، مدَّ يده المتصلبة إليها، تمكن أوبري من رؤية ملامح وجهه بوضوح. بدت له أكثر وحشية من حيوان مفترس. وجه المرأة، الذي كان يحمل تعبيرًا خجولًا ومتوسلًا، لم يفلح في صد تلك اللفتة الشرسة. لذا استدارت وذهبت بسرعة. رأى أصابع الصيدلي ترتجف بعد مغادرة المرأة، واختفى عن الانظار مرةً أخرى. قال لنفسه: "ملامح هذا الرجل فريدةٌ من نوعها! لطالما ظننت أن الأفلام مبالغٌ بها، يجب أن يمثل مع ثيدا بارا". عندئذ انطفأ الضوء المنبعث من النافذة فوقه، هيأ نفسه للتحرك سريعًا إذا لزم الأمر، فربما يأتي لإغلاق

باب القبو. كان ذهن أوبري يعصف بآلاف الأفكار، عندما رأى وميض ضوءٍ عبر الممر، بينه وبين المطبخ. رآه من خلال نافذة أرضية، من الواضح أن الصيدلي في طريقه للقبو. لذلك انسل أوبري بخفة وصمت من مكان اختبائه، متجهًا إلى الفناء. سار بمحاذاة حائط القبو، ورأى ما يوجد في بقية المكان بوضوح. كان هناك ما يشبه المعمل الكيميائي، قوارير زجاجية ذات أشكال غريبة، صفائح من القصدير، مجموعة متنوعة من الأدوات، سوائل ملونة، وأخيرًا مراجل وإسطوانات غاز. للمرة الثانية في ذلك المساء تجتاح أوبري مشاعر الحنين لواحدٍ من معلميه، هذه المرة كان معلم الكيمياء. حدّث نفسه: "أتمنى لو كان أستاذ الكيمياء هنا". وجد طريقه نحو الفناء في النهاية. كانت أسنانه تصطك، ويداه ترتعشان من فرط ضخ الأدرينالين في جسده ومن الصقيع أيضًا. فقد كان قاب قوسين أو أدنى من مواجهة وينتروب. ولم يكن مستعدًا لهذه المواجهة تمامًا. شعر أنه حظيَ بما يكفي من الإثارة لليلة واحدة. سار بحذر بين الصناديق المتناثرة، بينما القطار يمرُّ من فوقه. تسلق السياج وعاد إلى الزقاق ثانيةً. أحسَّ أنه خرج من عنق الزجاجة، وبإمكانه مشاركة ذاته بأفكاره والتباحث فيها. قال: "حسنًا، أعتقد أنهم يخططون لتفجير فندق أوكتاجون، والمدعو وينتروب هو من يقوم بصنع المتفجرات". وجد متجرًا صغيرًا للحلويات في شارع وردزورث الذي كان لا يزال مفتوحًا، وتوجه لتناول كوب من الشوكولاتة الساخنة لتدفئة نفسه. قال لنفسه بينما ينتظر كوب الشوكلاته: "إذا كانت كلمة "فيلاديلفيا" هي الكلمة التي سمعت، أظن أنها تعني أن الأمر سيحدث في فيلادلفيا صباحًا!".

مكتبة
t.me/t_pdf

13

معركة شارع لودلو

استيقظ أوبري في اليوم التالي قرابة الساعة السادسة صباحًا. إنه يأخذ النوم على محمل الجد للغاية، كأنه وظيفة دينية، يحترم وقتها ويؤديها بلذة واستمتاع. وكما يقول الشاعر: "لقد جعل من النوم والأحلام وظيفةً له". لم يكن يعلم أي قطار سيستقله روجر، وكان قد عقد العزم ألا يفوته. في السادسة والربع كان يتناول إفطاره في مطعم ميلوكي (الذي يعمل لأربع وعشرين ساعة) تناول اللحم المقدد، وبعض القهوة. شعور من الكآبة كاد أن يخنقه، على غير عادته صباحًا. كان يفكر بتيتانيا قريبة منه، وتبعد عنه آلاف الأميال بالوقت ذاته. حظيَ ببعض الفراغ لهذا أطلق الحرية لتأملاته الكئيبة. في السابعة وعشر دقائق ظهر روجر يسير بعجالة نحو محطة القطار. تتبعه جيلبرت وبقي على مسافة قريبة منه، إلا أنه كان حذرًا جدًا. بائع الكتب ومطارده ركبوا نفس القطار المتجه نحو بنسلفانيا. لكن مع مشاعر مختلفة تمامًا تنتاب كليهما. بالنسبة إلى روجر الرحلة كانت مرحة، هادئة، وبسيطة. أحس بالبهجة تغمر روحه، فمنذ مدة طويلة لم يبتعد عن المتجر. أنّب ذاته قليلًا، قيّد نفسه هناك لسنواتٍ طويلة، للحد الذي تشعره رحلة اليوم الواحد بسعادة لا تُوصف. هذا ما دار بخلد الرجل العجوز في تلك اللحظات. اشترى سيجارين من أجل الرحلة -ترف استثنائي بالنسبة له- ترك صحيفة الصباح مستلقية في حضنه بينما كان القطار يبتلع مستنقعات هاكنساك. ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضا، حين تذكر سبب رحلته، شعور من الزهو والفخر تسلل إليه، وذلك من أجل استدعائه لتقييم مكتبة أولدهام. السيد

أولدهام كان أحد تجار فيلادلفيا الأثرياء، يهوى الكتب الجيدة ويجمعها. كان موضع حسد جميع خبراء الكتب في أنحاء العالم. علم روجر أن هناك عددًا كبيرًا من التجار المعروفين الذين يتحينون الفرصة من أجل الاستيلاء على مقتنيات المكتبة. قرر السيد أولدهام بيع مجموعته، وقبل طرحها للمزاد، طلب نصائح خبير فيما يتعلق بالأسعار، على أن تتوافق البنود مع الوضع الحالي للسوق. وبما أن روجر لم يكن ملمًا بشكل خاص بالأحداث الجارية في عالم الكتب والمخطوطات النادرة، كان قد قضى معظم الرحلة في فحص بعض الفهارس الشارحة لأحدث المبيعات. السيد تشابمان أعطاهم إياه مع قدر كبير من النصائح حينما أخبره بشأن الدعوة. بعد أن انتهى منها وضعها جانبًا. وقال لنفسه: "هذه الدعوة تؤكد ما رددته دائمًا، الفنان في أي مجال من مجالات الحياة، سيتمّ الاعتراف به في النهاية على حساب كل تاجرٍ جشع يهتمّ بالمال فقط. أمقت أولئك الذين ينشغلون بالتوافه كمساحيق الغسيل، ودهون إنتاج الصابون، أكثر من انشغالهم بعالم الأدب". أمّا أوبري فكان مزاجه على النقيض كليًا من مزاج الرجل العجوز. والسبب الرئيس لذلك كان جلوس روجر بالعربة المخصصة للمدخنين، الذي لم يستطع أوبري دخولها خشية أن يراه. كل ما تمكن منه هو مراقبته من عربة أخرى يرى من خلالها فقط رأس روجر الأصلع. والسبب الآخر كان عدم رصده لوينتروب في أي عربة من عربات القطار، بعد أن بقي لآخر لحظة قبل انطلاق القطار منتظرًا إياه. كان قد استنتج من كلام وينتروب في الليلة السابقة، أن ما يخططان له سينفذانه معًا. لذا كان لا بد من وجود وينتروب على متن القطار. من الواضح أنه كان مخطئًا. مرّ العديد من التخيلات الحزينة بذهنه. راح يقضم أظافره بحركة تنم عن توتر شديد. فلم يكن معه ما يكفي من المال ليعود إلى بروكلين. لم يكن أمامه سوى خيارين، إما الاقتراض من شخص ما في فيلادلفيا، أو إرسال برقية لمكتب غري ماتر. لم يكن يتوقع أن مغامرته ستكون مكلفة إلى

هذا الحد. وصل القطار إلى وجهته حوالي الساعة العاشرة. تتبع أوبري بائع الكتب عبر المحطة الصاخبة. ومن ثم إلى ساحة المدينة حيث أخذ يتجول روجر، بدا لجيلبرت أن روجر على علم بالمدينة وشوارعها. إلا أنها غريبة على جيلبرت تمامًا والذي بدا تائهًا قليلًا. كان مندهشًا من الإطلالة الرائعة للجزء الجنوبي من شارع برود الشهير في فيلادلفيا. انعطف روجر، وغذَّ جيلبرت الخطا كي لا يفقده. دلف العجوز إلى مبنى ضخم وركب المصعد، ولم يتمكن جيلبرت من اللحاق به. لذا مكث في الردهة. بعد عدة دقائق علم من الحارس أن هناك مصاعد في الجانب الآخر للمبنى. اتفق مع فتى صغير ليراقب الجانب الأول من المبنى بينما يذهب هو للجانب الآخر ويستقل المصعد. أعطى الفتى وصفًا دقيقًا للسيد ميفلين وحذّره من فقدان أثره. ذهب مسرعًا للجانب الآخر من المبنى، وجد أن المصاعد مشغولة ولم يتحمل الانتظار، راح يضغط على الأزرار بشكل جنوني وهو يردد الشتائم. فقد كان متوتر الأعصاب ومشوش الذهن. في هذه اللحظات كان روجر يستمتع باستقباله كخبير عالي الشأن. كان قد دخل جناح السيد أولدهام الفاخر. استقبلته سيدة شابة بلطف وترحيب.

قال لها: "أريد أن أرى السيد أولدهام".

قالت: "ما الاسم؟ وهل لديك موعد مسبق؟"

قال: "السيد ميفلين، السيد روجر ميفلين من بروكلين. ونعم لديَّ موعد مع السيد أولدهام".

في دقائق الانتظار، راح يتأمل خشب الماهوغني اللامع لأثاث المكاتب، و الجرة الخضراء البراقة لماء الشرب. والنشاط الفعال الذي يقمن به فتيات فيلادلفيا. قال لنفسه: "فتيات فيلادلفيا بارعات الجمال. لكن ابنة تشابمان ذات الوجه الملائكي تتفوق عليهن جميعًا"، عادت السيدة الشابة وبدت

مرتبكة قليلًا.

قالت له: "يبدو أن السيد أولدهام نسيَ موعده معك".

قال لها: "لقد اتصل بي وأكّد الموعد بعد ظهر يوم السبت. لابد وأن هناك التباسًا ما".

سألت قائلة: "هل قلت اسمك بشكل صحيح يا سيدي؟"

قال روجر: "السيد روجر ميفلين، بائع كتب".

ذهبت وعادت بعد بضعة دقائق.

قالت: "السيد أولدهام مشغول للغاية، لكنه يستطيع مقابلتك لبضع دقائق".

تم إدخال روجر إلى المكتب الخاص. السيد أولدهام، وهو رجل طويل القامة ذو شعر رمادي قصير وعينين سوداوين حيويتين، حيّا العجوز بلطف وتواضع.

قال: "كيف حالك يا سيدي، أنا آسف، لقد نسيت موعدنا".

قال روجر لنفسه: "لا بد أنه مشغول بأمور ملحةً أكثر. وإلا كيف غاب عن ذهنه أنه رتّب لبيع مجموعة تقدر بنصف مليون دولار؟" وقال: "أتيت بناءً على رسالتك، حول بيع مجموعتك النادرة".

نظر إلى روجر باهتمام شديد وقال: "هل تفكّر بشرائها؟"

قال روجر باستغراب: "شراؤها؟ كلا! إنما جئت لتقييم سعرها بعدما اتصل بي سكرتيرك الخاص يوم السبت".

قال أولدهام والجدية تكتسي ملامحه: "سيدي العزيز، لا أن هناك خطأ ما، أنا لم أبعث برسالةٍ لك، ولا نية لديَّ لبيع مجموعتي الخاصة".

صُعق روجر وصرخ بانفعال: "ماذا؟ لقد اتصل بي سكرتيرك الخاص يوم السبت وقال: إنك تريد مني القدوم إلى هناك ومساعدتك في تقدير قيمة مجموعتك، لقد أتيت من بروكلين لهذا الغرض بالتحديد".

دعا السيد أولدهام السكرتيرة إلى المكتب، وسألها عما إذا كان أحد من مكتبه اتصل بالسيد ميفلين ودعاه لتقييم قيمة مجموعته الخاصة.

إلا أن السيد ميفلين قاطعهُ قائلًا: "الذي هاتفني رجل وليس أمرأة".

قال أولدهام: "أخشى أنه تم خداعك يا سيدي العزيز. سكرتيرتي كما هو واضح ليست لديها أدنى فكرة. ولا سكرتير لديّ هنا".

شعر روجر بمزيج من الحيرة والغضب. حدّث نفسه: "لا بد أنّ أحد أعضاء نادي الذرة من قام بهذه الخدعة السمجة". وتذكر بألم لحظات الطرب والانتشاء التي قضاها على القطار صباحًا وهو قادمٌ إلى هنا.

بعد أن رأى الاستياء باديًا على ملامح روجر شعر أولدهام بالشفقة عليه. قال: "من فضلك لا تشعر بالحرج، ما رأيك بتناول العشاء معي مساءً، ونذهب بعدها لنطلع على مجموعتي الخاصة؟ كي لا تضيع هذه الرحلة سدى".

قال روجر: "أنا آسف، أخشى أنني لن استطيع قبول دعوتك. لديَّ الكثير من الأمور لأقوم بها في المنزل، ولم آتِ إلى هنا إلا لأنه تم اخباري أنه أمر ملح للغاية".

قال أولدهام: "ربما في وقتٍ لاحق، أنت بائع كتب أليس كذلك؟ أود زيارة متجرك في يوم من الأيام. ربما في زيارتي القادمة إلى بروكلين، هلا أعطيتني بطاقتك؟"

رحل روجر مسرعًا، بعد أن أنهى حديثه مع السيد أولدهام. كان مغتاظًا

ومحبطًا من هول الإحراج الذي تعرّض له. كانت الأفكار تطنُّ في رأسه كالنحل؛ من عساه يكون؟ من خدعه؟

تنفّس الصعداء حين وصل إلى الشارع مرةً أخرى. تمتم قائلًا: "لا بد أنه جلادفيست، أنه مكار ولطالما ضمر لي الحقد". كان الفتى الذي كلفه أوبري قد أخبره أن العجوز خرج من المبنى. وتمكن من اللحاق به، ورغم أنه يبعد عنه بضعة ياردات إلا أنه تمكن من رؤية غضبه بادٍ على محياه. قال لنفسه: "لا بد أن أمرًا سيئًا حصل له". توقف بائع الكتب ليشعل غليونه. واستمر أوبري في مراقبته، وبينما راح يراقبه هبّت ريح عاصفة أطارت قبعته عبر شارع برود. ركض عدة خطوات ليستعيدها، وعندما عاد لمراقبة العجوز لم يجده. نظر من حوله في كل الاتجاهات ولم يجد له أثر، كان قد اختفى ببساطة. راح يبحث عنه كالمجنون ويصطدم بالمارة من فرط هلعه لكن لا شيء. كان فزعًا فقد أضاع الدليل الوحيد الذي يمكن أن يقوده لشيءٍ ما. أخذ يجوب الشوارع ويذرعها صعودًا ونزولًا بلا طائل، وللحظةٍ تسرب اليأس لنفسه وشعر بالضياع. وجد نفسه أمام مكتب للصحف، وتذكر أن صديقًا قديمًا له من أيام الدراسة كان كاتبًا تحريريًا يعمل هنا. دلف للداخل واستقل المصعد، بعد جولة قصيرة في المكان، وجد صديقه في مكتب صغير قاتم، يحيط به بحر من الأوراق. يدخن غليونًا وهو رافع قدميه على طاولة المكتب.

صرخ صديقه حين رآه فرحًا ومتفاجئًا: "يا للمفاجأة، ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

قال أوبري: "أتيت لتناول الغداء معك، وأيضًا لاقتراض ما يكفي من المال لأعود إلى المنزل".

تناولا طعام الغداء معًا في مطعم إيطالي هادئ. روى أوبري مغامرات الأيام القليلة الماضية لصديقه، وأمدَّه بالتفاصيل. استمع له صديقه باهتمام

شديد بينما هو يدخن غليونه بشراهة. وعندما أنهى جيلبرت حديثه، قال له صديقه: "نبرتك صادقة وتسلسل الأحداث منطقي أيضًا، لكن هناك حلقة مفقودة. هل تقول: إن ميفلين بائع كتب؟ أعتقد أنني أعرف أين تجده".

قال جيلبرت: "هراء، كيف لك معرفة أين يكون؟"

قال الصديق: "هيا لنذهب، سأرشدك إليه".

وسار الصديق نحو مكتبة ضخمة للكتب المستعملة. رغم الجو العاصف إلا أن الناس كانت تصطف لتسليم أكوام المجلدات. تمكن من النظر إلى الداخل، كان بإمكانه رؤية الرفوف والكتب تستريح عليها. انتظر بضع دقائق، ودلف بعدها للداخل ونظر بشغف للكم الهائل من المجلدات. رغم ازدحام المتجر إلا أن الهدوء يعمّ المكان. لاحظ أوبري البريق في أعين متصفحي الكتب وقال لنفسه: "لا بد أنه الفردوس الذي يحلمون به". اكتشف أوبري الهدوء الفلسفي الهادئ الذي يحيط ببائعي الكتب المستعملة، كلما نظر إلى أحدهم تراءى له وجه ميفلين، كانوا نسخًا متشابهة. سار عبر الممرات الضيقة، حيث قام بمسح الحشود من الباحثين بعينيه. ذهب إلى القسم التربوي في الطابق السفلي، وصولًا إلى الكتب الطبية في المعرض، عاد إلى أقسام التاريخ في الجزء الخلفي. لم يكن هناك أي أثر لروجر. أسفل الدرج، رأى مكتبيًا هزيلًا، مجتهدًا ولطيفًا، كان يتأمل في فهرس ضخم. طرأت عليه فكرة.

سأله: "هل لديك نسخة من رواية كارلايل لأوليفر كرومويل؟"

نظر الآخر إلى الأعلى. وقال: "لا، لا تتوفر لدينا نسخةٌ منها، هذا غريب! قبل بضعة دقائق أتاني رجل وسألني عنها".

صرخ أوبري بحماسة: "هل حصل عليها؟"

لم تثر هذه الحماسة اهتمام بائع الكتب، الذي اعتاد غرابة أطوار من يبحثون عن نسخ كارلايل. وقال: "لا، لم تتوفر لدينا نسخة من الرواية لفترة طويلة".

سأل أوبري: "هل كان حليق الرأس ذو لحية حمراء وعينان زرقاوان؟"

قال الرجل: "نعم، إنه السيد ميفلين من بروكلين. هل تعرفه؟"

صرخ أوبري بصوتٍ مرتفع: "نعم، قضيت ساعات، وأنا أبحث عنه في أرجاء المدينة. هلا قلت لي بأي اتجاه مضى؟"

قال الرجل بلطف: "لقد كان هنا قبل لحظات". حدّق باهتمام في الشاب المتحمس وتابع: "اعتقد أنه خرج من المتجر، وربما توجه لشارع لودلو".

قال أوبري: "أين يقع هذا الشارع؟"

قال الرجل الطويل الذي احتار جيلبرت بتسميته: "شارع لودلو يمتد على طول الزقاق خلف المحل ويتفرع جهة اليمين".

هرع أوبري إلى الزقاق، كان يزدحم برجال الأعمال الغادين إلى متجر الكتب والعائدين منه. راح يبحث بينهم إلى أن وجد في نهاية الشارع رجلًا عجوزًا وقد أطرق رأسه نحو كتاب غير آبه بما يدور حوله من صخب.

صاح أوبري غاضبًا: "ها أنت!"

أزاح روجر الكتاب عن ناظريه، كان منبسط الأسارير ضاحكًا ميالا إلى الدّعة والاطمئنان. خلاف ما كان عليه قبل سويعات. قال بسعادة عارمة: "مرحبا! ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

صاح أوبري غاضبًا: "هل تحاول أنت تسخر مني؟ قل لي: ما الذي تخططان له أنت ووينتروب هنا في فيلادلفيا؟"

مرَّ شريط أحداث الصباح أمام عيني روجر، وعاد إلى مزاجه الكدر. قال

بحدة واضحة: "أي هراء تتفوه به؟ ماذا دهاك؟"

قال أوبري والشرر يتطاير من عينيه: "لقد كنت أراقبك أيها الوغد، أخبرني فقط نوع اللعبة الذي تلعبانها أنت وصديقك الألماني المعتوه".

لم يتحمل روجر سماع هذه الاتهامات الباطلة، اندفع نحو جيلبرت وسدد له ضربةً على عينه. رغم روح العجوز الطاعنة بالسن، إلا أنه كان يتمتع بعظام مرنة لشاب يافع، وقبضة يد سريعة. صاح بعدها غاضبًا: "لا بد أنك جننت، أثبت ما تقول وإلا سأبرحك ضربًا".

تأرجح أوبري من أثر اللكمة. وقال: "أخبرني، وإلا أخبرت الشرطة عنك وعن أصدقائك الألمان".

قال روجر بهدوء: "لا بد أنك تحمل من الوقاحة قدرًا لا يُستهان به. حتى تتبعني إلى هنا، وترمي عليَّ هذه الاتهامات الزائفة دون دليل. بل انتظرت حتى أكون في هذه البقعة بالتحديد ليتسنى لك مهاجمتي. هيا لنذهب إلى الزاوية ونواجه بعضنا كما يفعل الرجال".

خرجا من الزقاق وسارا نحو زاوية الشارع، ووقفا قبالة بعضهما. عندئذ قال روجر: "فرصتك الأخيرة، اشرح نفسك وإلا ستضطر لمواجهة قبضتي كرةً ثانية".

ضحك أوبري ساخرًا من العجوز وقال: "أرى أنك تدربت على مثل هذه اللحظات جيدًا". وفي تلك اللحظة لكمه العجوز على ذقنه، تراجع أوبري إلى الوراء لكنه لم يسقط. فلم تكن اللكمة قوية مثل سابقتها. نسي لحظتها وعده لنفسه بأن لا يضرب الرجل العجوز، وهجم عليه. كانا كلاهما غاضبين، جيلبرت مع الضغوط المتراكمة لعدة أيام من القلق والشك، وروجر كان قد استيقظ إحباط الصباح بداخله. تدافعا إلى أن سقط أوبري على الرصيف، وأصيب رأسه وتناثرت الدماء. ذعر روجر للغاية وصرخ: "يا إلهي، ربما

قتلته". هذا ما جال بباله حينها. هرع مسرعًا يبحث عن مساعدة في الأرجاء. بعد بضعة دقائق وجد متجرًا للخردوات على بعد عدة أمتار يقف على بابه حارس. قال له: "ساعدني أرجوك، صديق لي تعرض لإصابةٍ خطرة. هناك عند نهاية الشارع". هبوا إليه وإذا به يسير مترنحًا باتجاههم. قال روجر: "يا إلهي، إنني أسف. لم أكن أعي ما فعلت. هل أنت بخير؟"

كان وجه أوبري شاحبًا شحوب الموتى. نظر إلى روجر نظرة ازدراء. وقال بتهكم: "إنني في تمام الصحة!" ساعده الحارس وقاده إلى المتجر. استقبلهم مالك المتجر متسائلًا عما حدث. أخبره روجر بأنهم تقاتلوا كالعصابات في زاوية الشارع. رغم استغرابه إلا أنه ساعد جيلبرت، وغسل رأسه وأعطاه بعض المناشف. قال روجر أنه يريد استدعاء طبيب ليطمئن. إلا أن جيلبرت رفض بشدة قائلًا: "لا تقلق، تعرضت لمثل هذه الإصابة قبيل يومين عندما أرسلت شركاءك خلفي على جسر بروكلين". وقال لمالك المتجر: "هلاّ تركتمونا بمفردنا، يجب أن نتحدث".

مكتبة
t.me/t_pdf

14

رواية كروموبل تظهر للمرة الأخيرة

قال روجر بعد نصف ساعة: "يا لك من أبلهٍ غبي. هناك مؤامرةٌ تحاك من خلفي، لماذا لم تخبرني حينها؟"

قال جيلبرت بنفاد صبر: "أنّى لي معرفة أنك تجهل ما يدور حولك؟ عندما رأيت ذلك الألماني يحمل نسخةً من مفاتيح المحل، ظننت أنكما مشتركان في المؤامرة معًا. يبدو أن الكتب شوشت ذهنك للحد الذي جعلك تفقد التركيز على ما يحدث في العالم الحقيقي".

قال روجر بخشونة: "أخبرني مجددًا، متى رأيت فيه وينتروب يتسلل للمحل؟"

أجابه أوبري: "الساعة الواحدة صباحًا يوم الأحد".

قال روجر بعد مضي دقيقة حاول فيها استرجاع أحداث ذلك اليوم: "كنت في القبو برفقة بوك، عندما حاول إثارة انتباهي ظننت أنها الفئران. لا بد أن وينتروب في إحدى زياراته للمحل قام بنسخ المفتاح، يمكنه فعل ذلك بسهولة. وهذا يفسر اختفاء الرواية. لكن لماذا؟ ما الذي يخططون له؟"

قال أوبري: "لا وقت لدينا، دعنا نعود إلى بروكلين في أسرع وقت ممكن. الله وحده يعلم مالذي يحدث هناك".

رد روجر: "أشعر بالحماقة، مكالمة وهمية أغوتني. كيف رحلت وتركت النساء في المتجر لوحدهنّ؟ حاجتي لتقدير عملي وضعت على عينيّ غشاوة لكنها الآن انقشعت".

قال أوبري: "أنا أيضًا كنت مغفلًا، شككت بك وتتبعتك إلى هنا. بئسًا لذاك الوغد، لقد نجح في مسعاه".

نظر روجر إلى ساعته وقال: "علينا انتظار قطار الرابعة، وهذا يعني أننا لن نصل إلى شارع غيسنغ حتى السابعة".

قال أوبري: "لنتصل بهم ونطمئن". وأعطى سماعة الهاتف لبائع الكتب. انتظروا خمسة وعشرين دقيقة ليتم ربطهم ببروكلين، في هذه الاثناء دخن أوبري بشراهة وراح يلوم نفسه على اندفاعاته غير المدروسة. مستذكرًا حادثة الجسر، وملامح وينتروب الشريرة. وتسلسل أحداث اليومين الذين خلوا. بدا ما شهده كابوسًا فظيعًا للغاية. أخذ يئنّ من ألم رأسه لذا حاول الاستلقاء. بينما روجر يتبادل أطراف الحديث مع مالك المتجر، والذي كان على معرفةٍ سابقة به. رنّ جرس الهاتف، وهرع أوبري لروجر يدعوه لأخذ المكالمة. التقط بائع الكتب السماعة " مرحبًا، هل تسمعني؟ اللعنة، أنني أفقد الاتصال. مرحبا!"

أتاه صوت بعيدٌ جدًا: "مرحبًا، هذه مكتبة السيد ميفلين، كيف يمكنني أن أخدمك؟"

قال روجر: "مرحبًا. هل هذه أنتِ يا تيتانيا؟"

قال الطرف الآخر: "السيد روجر؟ أين أنت؟"

أجاب روجر: "في فيلادلفيا. قولي لي هل كل شيء على ما يرام؟"

قالت تيتانيا: "نعم، بعت كتبًا كثيرة. لقد خرجت السيدة ميفلين للقيام ببعض التسوق". في تلك اللحظة اقترب أوبري من السماعة، واهتز طربًا حينما سمع صوتها الرقيق، وكأن روحه تحلق في فضاءات بين النجوم. فهذا كل ما أراده، الاطمئنان عليها، والتأكد من سلامتها.

تابعت قائلة: "هل ستأتي إلى المنزل اليوم؟"

أجابها السيد ميفلين قائلًا: "نعم، سأصل حوالي السابعة مساءً. هل الأمور على ما يرام؟ أرجوك أصدقيني القول".

قالت تيتانيا مؤكدةً: "نعم، لماذا كررت السؤال؟ أجل، لقد تذكرت، أتى السيد وينتروب قبل قليل وترك حقيبة كتب، قال: إنك لن تمانع بالطبع. سيأتي صديقه بعد الظهر من أجلها".

وقع هذه الكلمات كان كالصاعقة على العجوز وجيلبرت. لبرهة كاد روجر أن يمزق سلك الهاتف من شدة غيظه إلا أنه تمالك أعصابه. أنزل السماعة وقال لأوبري: "ما العمل الآن؟"

"يا إلهي، قل لها لا تلمس تلك الحقيبة أبدًا". صاح أوبري مذعورًا.

قال لها روجر: "تيتانيا، هناك أوراق قيمة ونادرة داخل الحقيبة، إياك ولمسها بكل الأحوال. وبوك أبعديه عنها أيضًا".

قالت تيتانيا ببراءة ساذجة: "هل تريد مني نقلها لمكانٍ آمن؟"

شدد روجر على مخارج الحروف وهو يقول: " كلا، لقد قلت لك الحقيبة تحتوي على كتب ثمينة وأوراق نادرة. فقط ابتعدي عنها أنتِ وبوك اتفقنا؟ ولا تدخلي الغرباء للمتجر لأي سبب. لا أريد للحقيبة التزحزح إنشًا واحدًا عن مكانها الآن، عديني بذلك".

قالت تيتانيا برفق: "اتفقنا يا سيدي. سأنفذ ما تقول".

أنهى روجر المكالمة. ومن شدة غيظه برزت عروق جبينه وعينيه، حتى كادت لتنفجر. صاح بحدة: "كيف يتجرأ ذلك المعتوه؟" ونظر لساعته بفارغ صبر. وقال لجيلبرت: "هيا، إنها الرابعة".

انطلقا نحو محطة القطار يدفع كلاهما الغضب والترقب. لم تكن رحلة العودة مرحة لبائع الكتب، كما كانت رحلة الذهاب. توقف القطار عند محطة

ترينتون، ولم يكن هذا بالحسبان. تجادل أوبري مع سائق القطار، وشرح له جدية موقفه إلا أنه قال: إنه يتحتم عليه ذلك فهو موظف حكومي لا أكثر. ترجلا وجلسا على مقعد في المحطة والثلج ينهمر عليهما. ازداد حنق أوبري عندما فشل في إشعال غليونه وراح يسبّ ويشتم. بينما بائع الكتب حافظ على هدوئه.

قال أوبري بانفعال: "إنه شيء مضحك. هل تعلم أنني لم أسمع قط عن متجرك حتى الأسبوع الماضي، ويبدو الآن أنه المكان الأكثر أهمية على وجه الأرض. سخرية القدر، أليس كذلك؟! تناولت العشاء في متجرك الثلاثاء الماضي ومنذ ذلك الوقت، تعرض رأسي لإصابتين مختلفتين، وغيرت سكني، وخاطرت بفقدان أهم عميل لدينا. وسلسلة أحداث تبدو مريبة لكل ذي عقل. لا أتعجب من تسميتك إياه المتجر المسكون!"

قال روجر: "ستتمخض عن هذه التجربة إعلانات مميزة، أراهن على ذلك".

قال أوبري الذي بدا حائرًا للحظات: "كيف سنتخلص منه؟ إنه ضخم، قوي البنية، وحاد الذكاء".

قال روجر: "يجب علينا معرفة ما يخطط له. إنه يدير متجر الأدوية منذ عشرين عامًا، قبل حتى أن أدخل عالم الكتب والمتاجرة بها. اعتدت أن أزور متجره، ويبادلني هو الزيارة. لطالما اهتم بالكتب، خاصة العلمية منها. تبادلنا العديد من الأحاديث الودية. لست خبيرًا في تحليل الشخصيات، لكنه بدا دائما هادئًا وحسن التصرف. أعتقد أنه قد يكون نوعًا من التجارة في المخدرات غير المشروعة، أو القنابل الألمانية الحارقة".

قال أوبري: "اعتقدت في البداية أنها كانت عملية خطف. وأنك خدعت تشابهان واستضفت ابنته لتسهل عملية اختطافها".

قال روجر بسخرية: "لقد شرفتني بتفكيرك بي كمحتالٍ عبقري!"

ارتعشت شفتا أوبري غيظًا وقال كردٍ معاكس، بعد عدة دقائق من التفكّر: "ما سرّ اهتمامك الشديد برواية كروميل؟"

أجاب روجر: "لقد قرأت منذ سنتين أو نحوهما، أنها الرواية المفضلة عند الرئيس وودرو ويلسون، وهذا أثار اهتمامي بها".

صرخ أوبري بحماسة: "كيف نسيت ذلك؟" وأخرج من محفظته الغلاف الذي قام بسرقته من متجر الأدوية وأعطاه للعجوز قائلًا: "انظر لهذه الأرقام".

قال روجر: "مدون هنا 329 وما يليها، أي الصفحات من الرواية. أتذكر ذلك جيدًا، هذه المقاطع في الكتاب ذكرتني ببعض أفكار ويلسون. أنا أقوم عامةً بكتابة أرقام الصفحات التي تلفت انتباهي لأمور معينة".

قال أوبري: "كانت أول مجموعة من الأرقام بخط يدك، ولكن في الأسفل هنا يظهر خطٌ يد وينتروب، لقد رأيته في المتجر".

قال روجر باستغراب: "هل تقول إنك سرقته من متجر الأدوية؟ كيف وصل إلى هناك؟ على أي حال سنحيك خيوط هذه المؤامرة جيدًا عندما نصل إلى هناك، ونحصل على الأجوبة المفقودة. لديَّ نسخة من خطاب ويلسون اليوم، هل تريد قراءته؟"

رفض أوبري بأدب. وسيطر الصمت على الموقف طوال الرحلة. كانت حوالي السابعة مساءً عندما وصلوا إلى وجهتهم. ترجلوا من القطار مسرعين. وكلما مروا بزقاق مظلم، تحسَّس أوبري جيبه وتأكد من وجود سلاحه. عندما أقبلوا على شارع غيسنغ، غذَّ أوبري خطاه تاركًا العجوز خلفه. بدا كل شيء هادئًا كما جرت العادة. المصابيح تتوهج من وراء واجهات المحلات. متجر الأدوية مفتوح للزبائن. اقترب أوبري بحذرٍ منه

ونظر عبر النافذة، وإذا بالمساعد هو من يتولى مسؤولية المحل. مرَّ بمتجر للقرطاسية ووجده مزدحمًا من أجل بطاقات عيد الميلاد. وأيضًا مرَّ بمطعم ميلوكي ووجد رجلًا تلفّهُ السكينة، يغمس الدونات في القهوة بتمتعٍ تام. لوهلةٍ حسدهُ أوبري على خلو باله.

عندما اقتربا من المكتبة قال روجر لجيلبرت: "هذا الهدوء يبدو غير واقعي البتة".

ازدادت نبضات أوبري خوفًا من شرٍ مرتقب. نظرا عبر الواجهة الأنوار مشتعلة لكن الستائر كانت قد أسدلت. لماذا يتم إسدال الستائر قبيل وقت إغلاق المحل بثلاث ساعات؟ هذا ما جال ببال الاثنين. وصلوا إلى الباب الأمامي، وكان أوبري على وشك وضع يده على المقبض عندما أوقفه روجر. قال: "انتظر لحظة، دعنا ندلف بهدوء. قد يكون هناك شيء غريب يحدث". حرّك أوبري المقبض برفق، إلا أن الباب كان مقفلًا. أخرج روجر مفتاحه، وأدار الترباس بحذر. ثم فتح الباب قليلًا، وهمس لأوبري: "أنت أطول مني، حاول الوصول إلى الأعلى واكتم جرس الباب". أدخل أوبري أصابعه عبر المساحة الضيقة، ورفعها لمستوى الجرس، وأمسك به بينما دفعه روجر بهدوء شديد. كان المتجر فارغًا ويبدو طبيعيًا. وقفا للحظات يتطلعان حولهما بحثًا عما قد يثير الشبهات. حينها جاء صوتٌ واضح من الجزء الخلفي للمنزل. نظرا لبعضهما بذهول. قال السيد ميفلين بصوتٍ مرتفع: "بإمكانك فعل ما يحلو لك، لكنني لن أخبرك عن مكان الحقيبة التي تبحث عنها".

عندئذ تناهى إلى مسامعهما أصوات سقوط مقاعد ومن ثم حركة سريعة. وبسرعة البرق كان أوبري في الممر يتبعه روجر الذي تأخر عنه لحظات لإقفال الباب. قفزا درجات السلم تباعًا، ووصلوا إلى غرفة الطعام. وكانت المفاجأة، بدت الغرفة وكأن إعصارًا عصف بها، كل ما تحويه مبعثر. تيتانيا تقف في الزواية يمسكها رجلٌ ملتحٍ عرفه أوبري على الفور، كان الطاهي.

وقبالتها يقف رجلٌ ضخم البنية وبيده مسدس موجهٌ نحوها، كان من الواضح أنه وينتروب. بخطوتين واسعتين وصل أوبري إليه، ووجّه فوهة سلاحه نحو ذقن ذلك الكيميائي. قائلًا بصوت أجش "ألقِ سلاحك، أيها الألمانيّ الهمجيّ!" وبيده اليسرى سحب ياقة قميصه للخلف، مفكرًا بينه وبين ذاته "سيستحيل عليَّ خنق تلك الرقبة المليئة بالشحوم". رفع نظره نحو تيتانيا اللاهثة بين يدي الطاهي. بدت شاحبة لكن عينيها البراقة سحرته حتى في ذلك الموقف. حدّقت فيه بدهشة غير مصدقة، ما أثار في نفسه القوة. وقف وينتروب جامدًا بلا حراك، وببطء فتح يده اليمنى وأسقط مسدسه. في تلك اللحظة وصل العجوز إلى الغرفة. خلصت تيتانيا نفسها بقوة من بين يدي الشيف، وهرعت إليه قائلةً: "لم أسلمهم الحقيبة!" انحنى أوبري والتقط مسدس الألماني وبحركةٍ رشيقة أعطاه لروجر قائلًا: "خذ، تولى أمر الطاهي. واترك لي هذا". وفي جزءٍ من الثانية حاول الطاهي الهروب من النافذة القابعة خلفه، إلا أن أوبري وبملاحظته الحادة كشف نواياه، وركض نحوه بأقصى سرعة، وطرحه أرضًا. ارتطم أنف الطاهي بالأرض الخشبية ونزف الدماء، كما أصيبت أصابع يده، راح يئن إثر سقوطه. لم يكن أمامه سوى الاستسلام. خنقه أوبري بوحشية، وصاح نحوه بأقذع الشتائم. التي لم تكن مناسبة بحضور تيتانيا، لكنه تناسى هذا للحظات.

صوّب روجر مسدسه نحو وينتروب وصاح قائلًا: "هيا، تحدث، قل لي: ما الذي تعتزمه؟".

قال وينتروب محاولًا الدفاع عن نفسه: " هذا المسدس ليس لي وإنما لميتزجر".

قال روجر: "أين حقيبتك؟، دعنا نلقي نظرة عيها".

قال وينتروب: "إنه خطأٌ سخيف، لقد تركت حقيبة كتب هنا من أجل ميتزجر. فأنا كنت أعتزم السفر خارج البلدة بعد ظهر اليوم. قصد متجرك

ليأخذها إلا أن السيدة اليافعة رفضت إعطاءها له، لذا أتى إليَّ طالبًا المساعدة. وأتيت إلى هنا بدوري لأخبر السيدة أنه لا بأس من تسليم الحقيبة لميتزجر".

قال روجر: "هل ذاك الطاهي هو ميتزجر؟ أوبري، رجاءً أرخي قبضتك قليلًا، فنحن بحاجة إليه كي يفسر لنا ما يجري هنا". حاول الطاهي في هذه الأثناء الإفلات من قبضة وينتروب، إلا أنه فشل في مسعاه. همس له أوبري قائلًا: "هل استمتعت بسقوطك في النزل، أيها الألماني البغيض".

والتفت نحو وينتروب وأردف قائلًا: "أما أنت يا سيد وينتروب، ما الوصفات التي تعمل عليها في قبوك؟ هلاّ تفضلت وشرحت لنا؟"

انعكس ضوء المصباح على جبين وينتروب الذي كان يرشح عرقًا، وارتعشت شفتاه. قال بصوتٍ يرتجف: "عزيزي ميفلين، ما أفعله في قبوي ما هو إلا ممارسةٌ لشغفي. أرجوك صدقني، لمَ أكذب وأنا في هذا الموضع الحرج؟ أنها فقط..."

قاطعت تيتانيا حديثه بعودتها لاهثةً إلى الغرفة، تتبعها السيدة هيلين بوجهٍ ممتقعٍ مائل إلى الحمرة. قالت: "الحمد لله أنك عدت يا روجر. هذان المتوحشان قيداني وكمَّماني بمنشفة خشنة. هدَّدا بإطلاق النار على تيتانيا إذا لم تعطِهما الحقيبة".

بدأ وينتروب في قول شيءٍ ما، لكن روجر صوّب المسدس نحو رأسه. وقال: "اصمت، أيها المتحذلق. سنلقي نظرة على كتبك القديمة".

قالت تيتانيا: "سأحضر الحقيبة، كنت قد خبأتها حين أتى وينتروب وطالب بها. كدت أن أعطيها إياه في البداية لكنه بدا غريبًا، مما أثار الريبة في نفسي، وأدركت عندئذ أن وراء الأكمة ما وراءها".

صاح أوبري: "لا تلمسيها". والتقت عيناهما لأول مرة في خضم هذه الأحداث المتسارعة. وأحس لحظتها أن وجيب قلبه يأخذ في الخفقان باطراد.

تابع قائلًا: "أخبريني فقط أين خبأتها، وسنذهب أنا والطاهي ونأتي بها".

قالت تيتانيا وقد توردت وجنتاها قليلًا: "إنها في خزانة غرفة نومي". ومن ثم قادت الطريق إلى الطابق العلوي يتبعها الطاهي وجيلبرت خلفه يحمل المسدس.

عندما وصلوا إلى باب غرفة النوم توقف أوبري، ودفع الطاهي بيده نحو الداخل وقال: "أريه يا تيتانيا مكان الحقيبة وليأتِ هو بها. أخبريني إذا ما قام بأي حركةٍ مشبوهة، وسأقتله على الفور".

أشارت تيتانيا إلى مكان الحقيبة التي كانت قد خبأتها خلف بعض الملابس. أطاع الطاهي الأوامر ولم يبدِ أي تمرد، وعاد الثلاثة إلى الطابق السفلي.

قال روجر حين رآهم مقبلين نحوه: "هذا جيد، لنذهب إلى المتجر ولنرَ ما بها، قد تحوي الورقة الأولى[1] لشيكسبير! وأنتِ يا هيلين اذهبي للهاتف واتصلي بالشرطة، واطلبي منهم إرسال رجال أمن للمتجر على وجه السرعة".

في أثناء نزولهم إلى المتجر قال وينتروب: "عزيزي ميفلين هذا غير معقول، هل ستستدعي الشرطة من أجل كتب قديمة كنت قد جمعتها من حينٍ إلى آخر؟ أرجوك، كن منطقيًا".

قال روجر بحدة: "ومن غير المعقول أيضًا تسلّلك خلسة لمتجري، وتقييدك لزوجتي، والتهديد بإطلاق النار على فتاةٍ صغيرة. سنرى ما ستقوله الشرطة حول هذا الأمر. إذا ما فكرت في الفرار فسأفجر رأسك دون أدنى

---

(1) First Folio تراجيديات وكوميديات وتاريخيات السيد ويليام شكسبير. هي مجموعة مسرحيات لوليام شكسبير نشرت عام 1623. يشار إليها من قبل الباحثين الحديثين بالمطوية الأولى. المطوية الأولى تعدّ واحدة من أكثر الكتب التي تم نشرها تأثيرا في اللغة الإنجليزية. (المترجمة).

تردد، يجب أن تعرف ذلك".

أمر روجر الطاهي بوضع الحقيبة على الطاولة وفتحها. قال ميتزجر: "إنها كتبٌ قديمة فحسب".

قال روجر: "قد تكون كتبًا قيمة إذًا. أرني إياها".

أخرج ميتزجر مفتاحًا من محفظته وفتح به قفل الحقيبة. ورأى الجميع أنها مليئةٌ بالمجلدات المستعملة. روجر، وبحضور ذهني كثيف، كان مركزًا على وينتروب لا الحقيبة.

قالت تيتانيا بخيبة أمل: "إنها مجرد كتب، كتب كثيرة. وينتروب كان محقًا في نهاية المطاف".

أكد وينتروب كلام تيتانيا قائلًا: "كما ترى، ليس هناك سوى الكتب المستعملة التي..."

قاطعته تيتانيا صائحةً: "انظر أنها رواية كروميل".

وفي استجابة غريزية أزاح روجر نظره عن وينتروب لثوانٍ معدودة، وينتروب كان متيقظًا بما يكفي ليستغل الأمر ويجري بأقصى سرعة نحو الممر، ومن ثم إلى الباب، تبعه روجر إلا أنه كان أسرع منه بكثير، ولم يتمكن من اللحاق به. بقي أوبري في المتجر موجهًا سلاحه نحو ميتزجر، والتوتر في داخله يتصاعد شيئًا فشيئًا. عاد روجر إلى المتجر والخيبة تعلو ملامحه.

صاح عندها أوبري قائلًا: "يا إلهي، لماذا لم تطلق عليه النار؟ لقد كان في مرمى البصر".

قال روجر والتشوش بادٍ على محياه: "لا أعلم، ترددت في إصابته. لا تقلق، سنبتُّ في أمرهِ لاحقًا".

قالت هيلين وسماعة الهاتف في يدها: "الشرطة ستكون هنا خلال دقيقة.

سأطلق بوك في أثره".

قالت تيتانيا: "أعتقد أن كليهما مجنون. لنضع رواية كروموبل على الرف ثانيةً. ونطلق سراح هذا الكائن البائس". وانحنت لتلقط الرواية.

أمسك أوبري بذراعها وقال بصوتٍ مرتفع: "توقفي، إياك ولمسها!"

تراجعت إلى الخلف خجلةٌ والدموع تترقرق في عينيها وقالت لنفسها: "ما بال الجميع اليوم؟ لا بد وأن الجنون أصابهم جميعًا"

قال أوبري موجهًا حديثه للطاهي: "فلتفعل أنت، هيا التقط الرواية وأعدها إلى مكانها على الرف. لا تحاول الهرب وإلا أطلقت النار".

ارتعدت فرائص الطاهي، وارتعشت يداه. نظر لهم مذعورًا. ذهلوا من ردة فعله. إلا أنه تمالك أعصابه وقال بهدوء: "حسنًا، أروني مكانها".

قالت تيتانيا: "اتبعني، سأرشدك إليه".

وضع أوبري يده بين تيتانيا والطاهي وقال بلهجةٍ آمرة: "الزمي مكانك، ولا تتحركي".

قال روجر: "في الجانب الآخر من المحل، أسفل قسم التاريخ".

انحنى الطاهي، وحمل الحقيبة بأكملها. وحين وصل إلى قسم التاريخ، وضعها على الأرض بعناية بالغة، وأخرج رواية كروموبل منها. قال بصوتٍ غريب: "أين أضعها؟"

قال روجر: "هناك، على الرف الخامس".

صاح أوبري: "تراجعوا بحق الله، لا تقتربوا من الحقيبة. أقسم لكم أن هناك ما يريب بشأنها".

صاح ميتزجر: "يا لكم من أغبياء مساكين". وأعاد يده للخلف استعدادًا

لقذف الرواية نحوهم. وفي جزءٍ من الثانية دفع أوبري بائع الكتب بكل ما يملك من قوة نحو قسم الخيال، وحمل تيتانيا وهرع مسرعًا للجزء الخلفي من المحل. قفز بوك على ميتزجر، وغرس أسنانه بيده، سقطت الرواية من يد الطاهي، ودوى انفجار محطم، تبعه صدى ثقيل. ومن ثم ساد الصمت. لوهلةً أحس أوبري أن المتجر تحول إلى مغزلٍ ضخم. نظر من حوله، الدمار في كل مكان. انطفأت المصابيح، الكتب والموسوعات تناثرت في كل مكان، أرضية المتجر مغطاة بزجاج النوافذ. حمل تيتانيا بين ذراعيه، وقصد مكتب ميفلين، كانت ملابسها رطبة وبللت يداه، قال لنفسه "يا إلهي، إنها تنزف". وضعها على الكرسي وسألها عن حالها. قالت بضعفٍ جلي: "أنا بخير، ماذا عن السيد ميفلين؟" ذُعر أوبري وراح يتلمس طريقه بين الكتب والزجاج، وينادي السيد ميفلين لكن لا جواب. رأى شعاعًا من الضوء قادمًا من الممر بالخلف، سار نحوه مسرعًا. وجد السيدة ميفلين مصابة بحالة من الذهول عند باب غرفة الطعام. في الجزء الخلفي من المتجر حيث الأنوار ما تزال مشتعلة.

أمسكها أوبري من كتفيها قائلًا لها: "هل لديك شموع، بسرعة، تيتانيا بحاجة للمساعدة".

صرخت في وجهه: "أين روجر؟ هل هو بخير؟"

قال لها متوسلًا: "لا أعلم، لكن الفتاة بحاجة للمساعدة، أسرعي أرجوك". هبت إلى المطبخ، وجلبت الشموع على وجه السرعة، وعادا للمتجر. تعثرت السيدة ميفلين عدة مرات وهي تبحث عن روجر، فقد تملكها الخوف. ظلت تبحث بين أقسام المتجر وهي تحاول جاهدةً ألا تفكر باحتمال إصابته بمكروه. بينما أوبري عاد لتيتانيا يحمل شمعةً بيده. اطمئن حين رأى أن ما ظنه دمًا كان حبرًا ليس إلا. لكنها رغم ذلك بدت شاحبة للغاية. حملها كطفلة بين ذراعيه، وذهب بها إلى المطبخ، وقال لها: "ابقي هنا

ولا تتحركي. سأجلب المساعدة بأقصى سرعة". توجه نحو بوابة المتجر، ولاحظ أن الجموع بدأت تتوافد على الرصيف قبالة المحل. كان أحدهم يحمل مصباحًا بيده، أشار له أوبري قائلًا: "هيا أسرع ساعدنا في البحث عن السيد ميفلين، أنه مدفون أسفل هذا الركام". في هذه الأثناء ظهر ثلاثة من رجال الشرطة، تبعهم صوت إسعاف يقترب. عاد أوبري إلى الداخل عندما سمع السيدة ميفلين تصرخ بيأس: "أين أنت يا روجر. هل أنت بخير؟" راح يبحث معها هو ورجال الشرطة. سمع أنينًا منخفضًا في إحدى الزوايا، تتبع الصوت لكنه فشل في تحديد مكانه.

بعد بضعة دقائق سمعوا روجر يصرخ بصوتٍ مرتفع: "أحسب أنني بخير، فروايات أنتوني ترولوب امتصت الصدمة بدلًا مني. هل الجميع بخير؟" كان نصفه الأسفل لا يزال مدفونًا تحت الكتب. هب أوبري وحامل المصباح لمساعدته. بعدما ساعدا روجر على الوقوف. قال أوبري لحامل المصباح: "لنذهب كي نرى ما يوجد هناك". وأشار إلى قسم التاريخ. صاح أوبري من هول ما رأى، وغطى عينيه بحركة تلقائية. كانت جثة الطاهي متفحمةٌ تمامًا، وأشلاؤه مبعثرة في الأرجاء، ومثله بوك.

مكتبة
t.me/t_pdf

15

السيد تشابمان يلوح بيديه

لن يتم نسيان أحداث شارع غيسنغ بسهولة. انتحر وينتروب في اليوم التالي، عندما حاصره رجال الأمن. وجدوا في قبوه آلاف الوثائق، والتي كانت تبحث عنها وزارة العدل منذ سنوات. نجح وينتروب -الأمريكي من أصول ألمانية- في خداع الكثيرين. الصيدلية لم تكن سوى واجهة، استغلها كي يهرب المواد التي يحتاجها في صنع القنابل. كان هو من صنع قنابل الهجمات على السفن الأمريكية، وعلى قوات التحالف، وعلى مصانع الذخيرة أيضًا. توافد الألوف على المتجر ليروا الحطام، وليأخذوا الصور التذكارية. فقد ذاع صيته وأصبح مزارًا. اعترف أحد الطباخين من فندق أوكتاغون بأن القنبلة من المتجر كان من المفترض أن تزرع في جناح الرئيس ويلسون في الباخرة. عاد أوبري إلى النزل، واستحم أخيرًا بعد ثلاثة أيام متواصلة من التحقيقات. حيّته السيدة شيلر مثنيةً على شجاعته، وأعلنت أنها لن تؤيد ألمانيا بعد اليوم. عاد بعد ظهر الجمعة إلى المتجر متفقدًا الأوضاع. رأى أنّ كثيرًا من الحطام تمت إزالته، وروجر قابعٌ بين أكوام من الكتب يصنفها في مجموعات. بعد التحية سأله عن سر سرعة عمال البناء في تأدية عملهم. قال: إن السيد تشابمان هو من أعطاهم التعليمات. سيستغرق الأمر حوالي عشرة أيام فقط قبل يفتتح العجوز المتجر مرةً أخرى. ويعود لمزاولة عمله المفضل كبائع كتب.

قال روجر بحزن: "سأفقد قيمة الإعلان المجاني الذي أحصل عليه الآن

قبل أن يتسنى لي افتتاح المتجر".

قال أوبري: "ظننت أنك لم تؤمن بالدعاية".

قال روجر: "نعم، صحيح. لكن بائع الكتب المستعملة لا يظهر كل يوم في الصفحات الأولى لأهمِّ صحف البلاد!"

ابتسم جيلبرت وهو ينظر للفوضى التي تعمُّ أرجاء المكان. قال بسخرية: "سيكلفك إصلاح هذا المكان الكثير".

قال روجر وهو يزيل الغبار عن أحد المجلدات: "هناك جانبٌ مشرق لما حدث. لقد أظهر الانفجار الكثير من الكتب التي كنت قد نسيتها، ولم أكن أعرف حتى أنني حصلت عليها. انظر، هناك نسخة قديمة من كتاب "كيف تكون سعيدًا رغم زواجك؟"، أرى أن الناشر صنفه على أنه كتاب خيالي. القذارة في كل مكان، تيتانيا أعطتني الكثير من الأفكار الجيدة للتنظيف، إنها عبقرية". همَّ أوبري بالسؤال عن مكانها، إلا أنه تراجع في اللحظة الأخيرة.

تابع العجوز حديثه: "اتصلت بي نصف دزينة من الناشرين يودّون نشر كتابي، وأرى أن هذا من فضائل الانفجار أيضًا. مكتب ليسيوم يريد مني أن ألقي محاضرة حول بيع الكتب كنموذج للخدمة العامة، تلقيت مئات الرسائل من أشخاص يسألون عن موعد فتح المتجر، وقد دعتني جمعية باعة الكتب الأمريكية إلى إلقاء خطاب في مؤتمرها الربيع القادم. لقد نسيت إخبارك، دفنت بوك في الفناء الخلفي. أريد أن أريك قبره".

ذهبا إلى الفناء الخلفي، وبالقرب من السياج كان هناك تل صغير دفن تحته بوك. وُضعت على قبره زهور الإقحوان الأصفر. نظر روجر نحو القبر بحنو وقال: "نفكر في نقش نضعه على القبر لتكريم ذكراه".

قال أوبري: "أظن أنها فكرة جيدة".

استطرد روجر في كلامه وقال: "لم يتضرر المنزل من الانفجار. سيأتي السيد تشابمان لتناول العشاء هذا المساء، وسنتبادل الأحاديث الرائعة".

كان أوبري لا يزال يتلفت هنا وهناك بحثًا عن تيتانيا، وقد لاحظ روجر نظراته الحائمة. وقال مشفقًا على حاله: "بعد ظهر اليوم حصلت تيتانيا على أول راتب لها، وكانت مبتهجة للغاية للحد الذي دفعها للذهاب إلى نيويورك لتنفقه على التسوق برفقة والدها. اسمح لي، من فضلك، سأذهب إلى المطبخ وأساعد هيلين على تحضير العشاء".

جلس أوبري قرب الموقد وأشعل غليونه. راح يتفكر في أحداث الأيام التي خلت ويدخن بشراهة. مضى أسبوع فقط على مقابلته لتيتانيا، ومنذ ذلك الحين انقلبت حياته رأسًا على عقب. تساءل عن الوقت الذي قد تستغرقه الفتاة لتقع في الحب. كان يعرف أن الرجل قد يقع في الحب خلال خمس دقائق فقط، من واقع تجربته. ولكن كيف يجري الأمر مع الفتيات؟ تحوَّل فكره نحو الإعلانات، وأخذ يفكر بعمق في صياغة إعلان لمحل مستوحى من الأحداث. قطع حبل أفكاره صوت خشخشة ثياب قادم من الخلف. التفت نحوه وإذا بصاحبة الوجه الملائكي تقف خلفه، يعانق رقبتها فرو رمادي زاد حضورها جمالًا وأناقة.

توردت وجنتاها وقالت: "لماذا يا سيد جيلبرت؟ لماذا اختفيت بالأيام الماضية؟ بحثت عنك في كل مكان. كنت متلهفة لرؤيتك بشدة، هناك ما أودُّ قوله لك".

عرف أوبري في تلك اللحظة أنه سيتلعثم ويقول أشياء يتعذر فهمها، لذا التزم الصمت. خلعت تيتانيا الفرو عنها، وتابعت حديثها بجدية يشوبها الحزن والاستياء: "لقد أخبرني السيد ميفلين عما فعلته الأسبوع الماضي. أعني، كيف استأجرت غرفة في النزل عبر الشارع، وتجسست على ذاك

البغيض، ورأيت ما كنا جميعًا عاجزين عن رؤيته. أريد أن اعتذر عن الأشياء السخيفة التي قلتها صباح الأحد. فهل تقبل اعتذاري؟"

لم يسبق وأن شعر أوبري بهذا الضعف من قبل. كان مستعدًا للبقاء طوال تلك الليلة ليسمع اعتذارتها الرقيقة. أحسّ بالدموع تترقرق في عينيه، قال لنفسه: "خانتني عيناي وفضحتا أمري". قال محاولًا التماسك أمامها: "أرجوكِ لا تتفوهي بمثل هذه الترهات، كان يتحتم عليَّ فعل ذلك. وعلى أي حال كنت مخطئًا بشأن السيد ميفلين. كان من الطبيعي شعورك بالغضب مني، والتشكك في صحة كلامي".

قالت تيتانيا: "اسمح لي أن أشكرك على إنقاذ حياتنا إذن". تابعت والدموع تتلألأ في عينيها: "متيقنة أنك كنت ستنقذ بوك لو سنحت لك الفرصة".

قال أوبري: "كلا، الفضل يعود لكِ، أنتِ من منع ميتزجر من أخذ الحقيبة. ولولا فعلك هذا من يعلم ما كان سيحدث؟ ربما كانوا سينجحون في إدخال القنبلة للباخرة واغتيال الرئيس".

قالت: "لن نتجادل حول من يعود له الفضل. أردت فقط شكرك على إنقاذ حياتي".

على العشاء كانت هناك حفلة صغيرة، استمتع بها أوبري أيما استمتاع. أعدت السيدة هيلين بيض صموئيل بتلر خصيصًا من أجله، والسيد تشابمان أحضر معه زجاجتي شامبانيا. طلبوا من أوبري أن يقول لهم ملخص ما توصل له جهاز المخابرات بعدما ساعدهم في أثناء التحقيق.

قال: "يبدو الأمر بسيطًا جدًا الآن، وأتساءل لماذا لم نتمكن من رؤية الحقيقة الخفية مسبقًا. كما ترون، لقد ارتكبنا جميعًا خطأ في افتراض أن التآمر

الألماني سيتوقف تلقائيًا عند توقيع الهدنة. يبدو أن هذا الرجل وينتروب كان من أخطر جواسيس ألمانيا في بلدنا. يُقال: إنه تسبب في أكثر من أربعين حريقًا على السفن الأمريكية، ولأنه عاش هنا لفترة طويلة، ما مكنه من استخراج وثائق مواطن، لم يشك أحد فيه. بعد وفاته قالت زوجته التي كان قد عاملها بوحشية، الكثير عنه وعن أنشطته. وفقا لها، بمجرد أن أعلن أن الرئيس ذهابه لمؤتمر السلام، عقد وينتروب العزم على صنع قنبلة ليضعها في مقصورة الرئيس على متن الباخرة جورج واشنطن. حاولت السيدة وينتروب ثنيه عن ذلك، لأنها كانت تعارض سرًا هذه المخططات، لكنه هددها بالقتل إذا ما فكرت بفضح سره لأحدهم. كانت محاصرة بالرعب طوال حياتها. لا أجد صعوبة في تصديق ذلك، لأنني أتذكر جيدًا كيف تجهم وجهها عندما رشقها بنظرة مؤنبة في القبو. كان صنع القنابل سهلًا بالنسبة لوينتروب. كان يملك مختبرًا مجهزًا بالكامل في قبو منزله، حيث صنع المئات من القنابل. تكمن الصعوبة في كيفية صنع قنبلة لا تثير الشكوك، وكيفية تهريبها لمقصورة الرئيس. كيف استلهم فكرة وضعها بين غلافي كتاب؟ وكيف صنعها لتناسب هذا الحجم؟ إنها أسئلة محيرة وربما لن نكتشف أجوبتها أبدًا".

قال روجر: "ربما أكون أنا من أوحى له بفكرة وضع القنبلة داخل كتاب. كان كثيرًا ما يتردد إلى هنا، وفي أحد المرات تبادلنا أطراف الحديث وأتينا على ذكر الرئيس، فذكرت له اهتمامه بالقراءة وأن رواية كروموبل إحدى رواياته المفضلة. أتذكر أن الموضوع أثار اهتمامه وقال: إنه سيقرأ الرواية في يومٍ من الأيام".

قال أوبري: "حسنًا، يبدو أن الحظ لعب لصالحه لفترةٍ طويلة. تم اختيار ميتزجر للذهاب إلى الباخرة مع الرئيس. كان ينتمي إلى منظمة تجسس ألمانية، عرف وينتروب بهذا، وأعدَّ خطته وفقًا لذلك. دخل ميتزجر إلى البلاد بجواز

وأوراق سفر سويسرية مزورة. كان حريصًا للغاية، لم يتواصل مع وينتروب مباشرةً، بل عبر وسيط ثالث هو من كان ينقل الرسائل بينهما. تمت مراقبة هذا الوسيط والإطاحة به. يقبع الآن خلف قضبان سجن آتلانتا ذي الحراسة المشددة. يبدو أن الصيدلاني ابتدع وسيلة جديدة لنقل رسائله إلى ميتزجر، عن طريق متاجر الكتب المستعملة. لقد اختار وينتروب هذا المتجر ليس فقط لأنه من غير المرجح أبدًا أن يشتبه به كقناة تجسس، يتم تناقل الرسائل عبرها. ولكن أيضًا لأنه كان يتمتع بثقتك المطلقة، كان بإمكانه التردد على نحوٍ متواتر للمحل دون إثارة الريبة. المرة الأولى التي زار فيها ميتزجر المحل كانت عندما تناولنا العشاء معًا، هل تتذكر؟"

أومأ روجر وقال: "كان يبحث عن رواية كروموبل، صعق عندما قلت له: لا توجد نسخة لديَّ، أتذكر تعابير وجهه جيدًا".

قال أوبري: "كان وينتروب قد أخذها قبله بعدة أيام، ربما ليعرف مقاساتها ويتأكد من أنه لن يصنع قنبلةً تفوقها حجمًا. أعادها في الليلة اللاحقة، راقبته عبر نافذة النزل وهو يفتح البوابة الأمامية للمتجر ويتسلل إلى الداخل بخفة".

قال تشابمان: "لا بد أن ميتزجر قد سرقها ثانية في يوم اجتماع أعضاء نادي الذرة، فأنا أتذكر جيدًا بحث روجر عنها بلا جدوى".

قال أوبري: "تسبب غياب وسيطهم الثالث في تخبطهم، كانوا كمن يحل الكلمات المتقاطعة. على أي حال كان ميتزجر في حيرة من أمره، وهذا اتضح من الإعلان في صحيفة التايمز، كان يقول لوينتروب أنه حدد موقع المكتبة، لكنه لم يعرف ماذا يفعل بعد ذلك. وكان التاريخ الذي ذكره في الإعلان، منتصف ليل الثلاثاء، الثالث من شهر ديسمبر، هو إبلاغ وينتروب (والذي كانت هويته لا تزال مجهولة لديه) بموعد رحلتهم على متن السفينة. لا بد أن

وينتروب تلقى تعليمات من الوسيط لينظر إلى إعلانات المفقودات بانتظام".

صرخت تيتانيا: "يا له من تحليل عبقري".

قال أوبري بتواضع: "قد لا يكون تحليلي دقيقًا بنسبةٍ كبيرة، لكن هذا ما خلصتُ إليه، بعدما وضعت قطع الأحجية معًا. وينتروب كان حذقًا بل وماكرًا أيضًا، لكن ليس بما يكفي. فقد ارتكب خطأً جسيمًا بتركه غلاف الرواية في متجر الأدوية. هكذا تحصلت عليه. بعدما لفتُّ انتباههما تتبعاني إلى جسر بروكلين، وحاولا التخلص مني". في منتصف حديثه المستفيض وقع نظرهُ على تيتانيا التي كانت مصغيةً تمامًا لحديثه. ارتبك وعجز عن إعادة ترتيب أفكاره كما كانت. بدا وكأنه تائهًا. قال بخجل: "هذا كان كل شيء تقريبًا".

بروحٍ مرحة روى روجر كيف حدثت معركتهم في فيلادلفيا، وكيف أصاب جيلبرت ومن ثم أسعفه. لم يصدق ما قاله في البداية، لكن الاتصال الوهمي أكّد له الأمر.

قالت تيتانيا بإعجاب: "عادا إلى هنا بأقصى سرعة لإنقاذي. كنت لوحدي اقضي فترة ما بعد الظهر في المتجر، عندما ظهر وينتروب وسلمني الحقيبة. لم أرتَب في الأمر حينها. لكن عندما اتصل بي السيد ميفلين، وحذرني بشأن الحقيبة، أدركت أن هناك أمرًا جللًا. حوالي السادسة مساءً جاء ميتزجر وسأل عن الحقيبة، حاولت صدّه بشتى الطرق إلا أنه كان مصرًا على الدخول، لم يذهب إلا عندما هددته واستعنت ببوك لمساعدتي في ذلك. بعدئذ أخذت الحقيبة، وخبأتها في غرفة نومي رغم تحذيرات السيد ميفلين بعدم لمسها، لكنني علمت أنه سيعود من أجلها لذا اضطررت لفعل ذلك. عادت السيدة ميفلين، وبدأنا بتحضير العشاء كالمعتاد. رنّ جرس المتجر، وذهبت إليه مسرعة تدفعني حماستي بعملي الجديد. تفاجأت حين

رأيتها معًا، وجه ميتزجر سلاحه نحوي فورًا، وأخذ يهددني بالألمانية. اندفع وينتروب نحو المطبخ مسرعًا، وقيّد السيدة هيلين وكمّم فمها. ذعرت حينها وقلت لنفسي لا بد أننا هالكتان لا محالة".

صاح أوبري: "أولئك الأوغاد، كانوا يستحقون ما هو أسوأ من خاتمتهم".

قال السيد تشابمان: "حسنًا يا أصدقائي، علينا أن نشعر بالامتنان نحو مآل الأمور. لم أبدِ وجهة نظري حول ما جرى إلى الآن، سأرجأ ذلك لوقتٍ لاحق. دعونا الآن نشرب نخب بطل هذه الأحداث أوبري جيلبرت!" شربوا النخب مبتهجين، واحمرَّ وجه أوبري خجلًا.

قالت تيتانيا: "مررنا بمكتبة بيرتون اليوم، ووجدنا صدفة الهدية التي ستذكرك بالمتجر المسكون على الدوام". وهبّت لتأتي بها.

فرح أوبري بهذا الاحتفاء، وراح ينزع الغلاف عنها بكل سرور. كانت نسخةً من رواية كروميل. أراد أن يشكر تيتانيا، لكن النظرة على محياها أربكته واكتفى بابتسامة.

أنقذه روجر عندما صرخ قائلًا: "إنها نفس الطبعة! نستطيع الآن قراءة الصفحات التي أشار إليها وينتروب. هل دونت تلك الأرقام يا أوبري؟"

أخرج أوبري مذكرته من جيبه. وقال: "153، 3، 1، 2. هذا ما كتبه وينتروب على ذاك الغلاف".

قال روجر: "هذا سهل، أنه يعني الصفحة رقم 153 بالمجلد الثالث والسطران الأول والثاني. هيا اقرأها على مسامعنا يا جيلبرت".

حينئذ فتح أوبري المجلد، ابتسم وقال: "كنت محقًا يا سيدي أنه يعني هذه الصفحة".

صرخوا جميعهم متلهفين لمعرفة المكتوب: "هيا اقرأ لنا!" قال أوبري: "حسنًا، إليكم السطران الأول والثاني: إذا كنت ترغب بقتل الملك، عليك أن تضلل حارسه أولًا. وعندما تنهي مهمتك عد إلى القيام بأمورك التافهة ولا تلفت الأنظار".

صرخ روجر: "قلت لكم، لطالما كانت الكتب وستظل مصدرًا للأفكار. يا لدهاء ذاك الألماني!. لو أنه فقط استخدمه الاستخدام الصحيح".

قال السيد تشابمان: "لقد كنت أتحدث مع تيتانيا صباح اليوم بشأن مستقبلها. قبل ذلك، لا بد لي من القول أنني قررت إخراجها من هنا على وجه السرعة فور سماعي بما حدث، إلا إنني أعدتُّ التفكير بالأمر. سبق وأن حدثتني عن حلمك بنقل الأدب إلى الريف. حسنًا، إذا تمكنت أنت والسيدة ميفلين من العثور على الأشخاص المناسبين لهذا العمل، شريطةً أن تنضم تيتانيا إليهم. فإنني سأمول الأمر برمته. ماذا عن الربيع المقبل؟"

نظر روجر وهيلين إلى بعضهما، وإلى السيد تشابمان غير مصدقين. رأى روجر حلمه الأكبر يتحقق في تلك اللحظة. قفزت تيتانيا من كرسيها، والتي كانت متفاجئة بقدر السيد والسيدة ميفلين، وسارت نحو والدها لتقبله و تبكي قائلةً: "أبي، أنت حبيبي!"

نهض روجر أيضًا وصافح السيد تشابمان. وقال: "سيدي العزيز، فاجأتنا بهذا العرض السخي الذي لا يمكن رفضه. هذه هي أسعد لحظة في حياتي. لن تندم ما حييت إنها خدمة للإنسانية".

قال السيد تشابمان: "لقد حُسم الأمر إذن، سنناقش التفاصيل لاحقًا. هناك أمر آخر أود الإشارة إليه. أشعر أنه من واجبي إبلاغك يا أوبري بأنني سأنسحب من وكالة غري ماتر للإعلانات".

أوبري والذي كان يخشى وقوع كارثةً من هذا النوع، أحسّ وكأن غمامة سوداء تلفه من جميع الجهات. لم يتحمل نظرات تيتانيا له، لا يريدها أن تكون شاهدة على إذلاله. قال بحزنٍ جلي: "أنا آسف يا سيدي، لقد حاولنا أن نقدم لكم خدمة مميزة. أؤكد لك أنني قضيت الجزء الأكبر من وقتي في المكتب أخطط لحملاتك الدعائية".

قال السيد تشابمان: "لا أريد نصف وقتك فقط. أريدك أن تكرس نفسك لخدمتي، أود تعيينك كمساعد مدير الإعلانات في مؤسستي، هل تقبل بذلك؟"

هتفوا جميعهم وشعر أوبري للمرة الثالثة هذا المساء بأنه أسعد رجل إعلانات في العالم بأسره. قال: "أعتقد أنه حان دوري لاقتراح نخب. لنشرب نخب صحة السيد والسيدة ميفلين، ومتجرهم المسكون، والذي لولا وجوده ما كنت لألتقي بكم".

قالت السيدة هيلين: "دعونا نذهب إلى المتجر، ونقضي السهرة هناك. روجر يريد أن يشارككم خططه من أجل المتجر ويرى إذا ما كانت لديكم أي اقتراحات".

تعمد أوبري البقاء أخيرًا في الغرفة كي يتسنى له النظر إلى تيتانيا دون وجود أعين تراقبه. تيتانيا أسقطت منديلها متعمدةً هي الأخرى لتبقى في الغرفة. تلاقت أعينهما لثوانٍ معدودة، وشعر أوبري حينها أنه غارق في نظرتها الثابتة والصادقة. كان يتعذب بالقرب منها دون أن تعي ذلك. فكر في ملايين الأمور التي يود قولها إليها لكن لا شيء، تبخرت جميعها. نظر إلى الكتاب الذي يحمله كتذكار وقال لها: "هلا كتبتِ اسمي في مقدمة الكتاب؟"

قالت بصوتٍ خجول: "بالطبع، أعطني قلمك". وكتبت بسرعة "إلى

أوبري جيلبرت من تيتانيا تشابمان، مع التحية". وقالت: "حسنًا، انتهيت". غضب أوبري فهو لا يريد لهذه اللحظات أن تنتهي. هربت من الغرفة ضاحكةً ضحكةً شريرة. عندما دخلت إلى المتجر تناهى إلى مسامعها قول والدها أنه معجب برغبتها البقاء هنا وتعلم مهنة بيع الكتب.

نظر روجر إليها وقال: "ستحصد فائدة القرب من الكتب بسرعة كبيرة. لن تغويها الأمور التافهة بعد الآن. وسترى أن الشخصيات في الكتب تبدو أكثر واقعية من الشخصيات في الحياة، وستقع في حبهم أيضًا".

تبادلت هيلين وتيتانيا النظرات وابتسمتا بخبث.

مكتبة
t.me/t_pdf

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة

894 | مكتبة

telegram
@t_pdf

متجر الكتب المسكون

"متجر الكتب المسكون" عمل سلس ينطوي على متعة جمّة. يسعى الكاتب في طليعة الرواية ومن خلال شخصيته الرئيسية روجر ميلفين إلى إعلاء شأن مهنة بيع الكتب وتوضيح المهام المنوطة بكل بائع كتب مخلص لمهنته. وأيضاً لسرد فظائع الحرب وما تمخض عنها من أدب يصدح بالمعاناة. وفي خضم ذلك تأخذ الأحداث منعطفاً مغايراً تماماً. تتسم الرواية بالبساطة العميقة، وذلك ما يميز كتابات مورلي العبقرية.

"عندما تبيع كتاب لشخص ما، فأنت لا تبيعه مجرد حبر وورق وغراء بل حياة جديدة ليعيشها برفقة تلك الصفحات. ولعل هذا النبل يستحق منّا كل الامتنان."

كريستوفر مورلي

كريستوفر مورلي: (1890-1957)
كاتب وصحفي أمريكي، بدأ بالكتابة عندما كان في الجامعة، حيث نشر مجموعته الشعرية الأولى، بعد تخرجه عمل في دار دولدبي العريقة، كما عمل محرراً، وكاتب مقالات لصحف مختلفة. لديه أكثر من مئة عمل تروح بين الرواية والمقالات والمجموعات الشعرية.

ISBN 978-603-91691-0-9

أثر